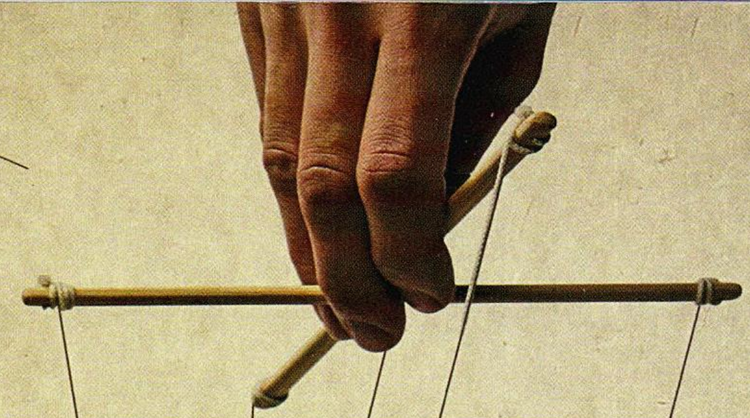
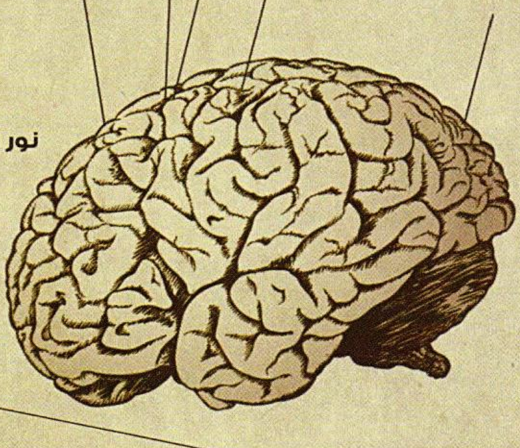


حروب العقل

تاريخ سيطرة الحكومات والإعلام والجمعيات السرية على العقل ومراقبته وإدارة شؤون الناس



ماري د. جونز
لاري فلاكسمان

نقله إلى العربية
نور الدائم بابكر أحمد

العبيكان
Obeikan

حروب العقل

تاريخ سيطرة الحكومات والإعلام والجمعيات السرية على العقل ومراقبته وإدارة شؤون الناس

ماري د. جونز
لاري فلاكسمان

نقله إلى العربية
نور الدائم بابكر أحمد

العبيكان
Obeikan

Original Title
Mind Wars
A History of Mind Control, Surveillance, and Social Engineering by the Government, Media, and Secret Societies

Authors:
Marie D. Jones
Larry Flaxman

ISBN-10: 1601633580
ISBN-13: 978-1601633583

ح شركة العبيكان للتعليم، 1436هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
جونز، ماري
حروب العقل. / ماري جونز؛ فلاري فلاكسمان؛ نور الدائم بابكر
- الرياض 1437هـ
344 ص؛ 14× 21 سم
ردمك: 9 - 882 - 503 - 603 - 978
1 - العقل (فلسفة)
أ. فلاكسمان، فلاري (مؤلف مشارك) ب - عبدالله، نور الدائم (مترجم) ج - العنوان
ديوي: 128,2 رقم الإيداع: 1407 / 1437

الطبعة العربية الأولى 1438هـ - 2017م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت
www.obeikanpublishing.com

كتبنا على جوجل Google play
https://t.co/8r2O53H3B3

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595

«السيطرة على العقل أصبحت شائعة في عالم اليوم: لذا فأفضل ما يمكن أن يفعله الإنسان هو تعلم الحيل، وهو ما تعرضه لنا جونز وفلاكسمان في بحث شامل عن الموضوع لم أعرف له مثيلًا حتى الآن. السيطرة على العقل تتراوح من الاستخدام الواسع لتلك الحيل في وسائل الإعلام والتسويق، إلى أن غدت واحدة من أكثر الأدوات السوداء التي تعتمدها النخب الشريرة. فإذا كانت المعرفة قوة، فإن كتاب حروب العقل هو السر لكيفية التحكم بها».

جريج كارلوود، مقدّم برامج المؤامرة في المدوَّنة الصوتية، الدردشات
The Higherside Chats

«أقول للذين يعتقدون أن الرغبة في السيطرة ومعرفة ما يفكّر فيه الآخرون في مختلف الأوقات ظاهرة جديدة... فكّروا مرة أُخرى! في كتابهما الأخير، أكّدت ماري د. جونز ولاري فلاكسمان أن السلطات والحكومات درجت على مرّ التاريخ على التجسس والمراقبة والتلاعب، أو حاولت معرفة ما نفكر فيه من أجل السيطرة على قدرة عقولنا، والأدهى من هذا والأكثر ترويعًا هو ما قد يحدث مستقبلًا، فهل ستتمكن التقنية - في السنوات القليلة القادمة- من القضاء على مفهوم الفكر الخاص؟ وما مقدار الأذى الذي قد تسبّبه هذه القوة الهائلة؟
للإجابة، طالع حروب العقل. لا تكتفِ بالتفكير في الأمر فحسب، بل سارع إلى شراء هذا الكتاب الآن قبل أن يقولوا إنك لا تستطيع التفكير».

جيم هارولد: رئيس شركة جيم هارولد الإعلامية.
مقدّم برامج في المدوَّنة الصوتية عن الخوارق،

ومؤلف كتاب حكايات أشباح حقيقية.
Jim Harold's Campfire: True Ghost Stories and True Ghost Stories: Jim Harold's Campfire 2

قائمة المحتويات

كلمة المؤلِّفين

لا شك أن الكتابة في هذا الموضوع أمر شائك معقَّد؛ فثمَّة أشياء عديدة تطل برأسها في طريق الادعاءات والاحتجاجات وشواهد الحكايات والفرضيات والمؤامرات والنظريات، ونحن -بالطبع- لسنا معنيين بالإشارة إلى الوقائع والحقائق والإحصاءات: إذ ليس عدلًا تناوُل أيٍّ من هذه الضوابط الأساسية دونما نظرة شاملة لموضوع السيطرة على العقل ومراقبته وتوجيهه.

من جهة أُخرى، يفرض علينا الناشرون -نحن معشر الكتاب- تلك النتف الصغيرة التي تعرف بحساب الكلمات. فنُجبَر على تجاهُل موضوعات قد تهم القُرَّاء كثيرًا، وعدم الاقتراب منها أو تناولها بأي شكل كان، ويضطرنا هذا أيضًا إلى اختصار موضوعات أُخرى كثيرة: التزامًا بتلك السياسة الصارمة. هذا هو -تحديدًا- النهج المتبع في عالم طباعة الكتاب ونشره وتوزيعه. وبالرغم من ذلك فإننا نحاول جاهدين الاقتراب من تلك الموضوعات وتناولها بعمق كلما كان ذلك ممكنًا، ونقدِّر عاليًا ما يبذله القُرَّاء من جهد للغوص في التفاصيل والتوسع في المعارف، مؤكدين

أنه ليس ضروريًّا أن نكون - نحن أو الناشر- متَّفقين مع كل ما تضمنه هذا الكتاب من أفكار ونظريات. ولا ننسى أن الكتَّاب والمؤلفين يحرصون على الكتابة عمَّا يؤمنون به، وإلَّا لانقرضت صناعة الكتب، أو أصبحت - على الأقل- مملَّة جدًّا؛ ما يجعل الجميع يزهد في اقتنائها، أو حتى مطالعتها.

وعلى أيٍّ حال، فإننا نأمل من قُرَّائنا الأعزاء أن يجدوا ضالتهم في مادة هذا الكتاب، وأن تشبع فضولهم، وأن تزيد من معارفهم؛ فالمعرفة قوة وسلطة، ومن العبث أن يبدِّد الإنسان وقته وجهده فيما لا ينفع... فأحسن استخدام عقلك.

تمهيد

مـا تزال الرغبة في السـيطرة على أفكار الآخرين وسـلوكاتهم وأفعالهم أكثر المطالب إلحاحًا منذ بزوغ فجر الإنسـانية، بيد أن قلة نادرة من النـاس فقط تدرك أن تقنيات السيطرة على العقل وجدت مع فجر الحضارة نفسها، وبقـدر إدراكنـا لما وهبنا إيَّاه الله من عقول متنوعـة وطرائق تفكير مختلفة، ندرك - في الوقت نفسه- تلك الشهوة العارمة للسيطرة على عقول الآخرين وطرائـق تفكيرهم، بصرف النظر عن الدافع أو الفائدة المبتغاة؛ ربما يكون السـبب نابعًـا من رغبتنا في فهم الطريقة التي يفكِّـر فيها الآخرون، وما إذا كانـت تتفـق مع طريقتنا أو تختلـف عنها، وقد يُعزى الأمـر أيضًا إلى معرفة مـا يحيكـه الأعـداء ضدنا، وما إذا كانت الأمور تسـير في صالحنا أو تخالف رغباتنا، وكما هي الحال بالنسـبة إلى تفاحة جنَّة عدن التي حصل بسـببها آدم وحـواء علـى معرفةٍ مـا كان لهما إن يلما بها، يمكن تشـبيه اللحظة التي نحصـل فيها على إدراك سـر اختلاف رؤانا ومعتقداتنـا وعاداتنا وتقاليدنا وأفكارنا وتباينها، بفتح علبة بندورا[1] التي يستحيل إغلاقها مرة أُخرى.

---

(1) بندورا: المرأة الأولى - في الميثولوجيا اليونانية- التي أرسـلها زيوس إلى الأرض؛ عقابًا للجنس البشـري بعد سـرقة بروميثيوس النار، وكان قد أعطاها علبة عرفت باسم علبة بندورا، وحظر عليهـا فتحهـا، لكنها فتحتها بدافـع الفضول، فخرجت منها صنوف من الشـرور والرزايا عمَّت البشرية كلها. المترجم.

فمنـذ عقيـدة قدمـاء المصريـين القسـرية وفرسـان الهيـكل[1]، مـرورًا بالتلاعـب واسـع الانتشـار بالعقـل، والتعذيـب الـذي مارسـته السلطات السياسـية والدينية في العصـور المظلمة والعصور الوسـطى حتى الحـرب العالميـة الثانيـة، والإبـادة النازية في معسـكرات السـجون المكتظـة، وبرامج وكالـة الاسـتخبارات المركزيـة الأمريكيـة الحديثـة في خمسـينيات القـرن الماضـي للسـيطرة علـى العقل (التـي رُفِعت عنهـا اليوم السـرية)، وبرنامج الصدمـة، ثـم ادعـاءات اليوم التـي أفضت إلـى مطاردات أجهـزة التواصل الإلكترونية والموجات الكهرومغناطيسـية والبرمجة اللغوية العصبية... منذ هـذا وذاك، كنَّا ضحايا لأولئك الذين اقتحموا خصوصية عقولنا، محاولين إعـادة صياغـة أفكارنا ومعتقداتنا الحقيقية بدافع الرغبة في إعادة تشـكيل عقولنا وقولبتها في أسـلحة حرب وقتل ودمار، مسـتخدمين مختلف الوسائل الظاهرة والخفية، عازفين على وتر الشـعائر الدينية والتقاليد الاجتماعية، ومعتمدين أحيانًا الفساد والتعذيب والتمثيل بالأجساد وامتهان الكرامة.

ولَمَّا كان ماضينـا يختـزن في أعماقـه أسـرارًا كئيبـةً موحشـةً، فـإن هذا الكتاب يعرض السيطرة الشاملة على العقل في الماضي والحاضر والمستقبل، إضافـةً إلـى المراقبة الإلكترونية والمضايقة الدائمـة، وكذا التأثيرات الماكرة للفـرق الدينيـة والطوائف والمذاهـب والسياسـة والعقيدة والإعـلام، مُبرِزًا تأثير ذلك كله في التفكير الجماعي.

---

(1) فرسـان الهيـكل: أعضـاء منظمـة دينيـة عسـكرية، أُنشـئت عـام 512هـ (1118م) أو 513هـ (1119م) لحماية الحجاج والقبر المقدس. المترجم.

إن ممارسة شركات الدعاية والإعلام التي تقوم على التأثير في اللاوعي، وممارسات القساوسة والكهنة والسياسيين التي تعتمد البرمجة اللغوية العصبية، والموضوعات الأساسية والأفكار الرئيسة التي يحفل بها الإعلام الجماهيري: كل ذلك يؤكِّد أن السيطرة على العقل ليست قاصرة فقط على القواعد العسكرية السرية أو قبو أشهر جامعات العالم، وإنما هي أمر يحدث لكل منًّا بصورة يومية.

بيد أن القصة الحقيقية للسيطرة على العقل تكمن في الاستخدام المفرط للتعذيب، وانتهاك الكرامة، والأساليب العدوانية التي يتعرَّض لها ضحايا أبرياء؛ بغية إذلالهم وإخضاعهم للطاعة العمياء، والعجيب الغريب أن هذا الأمر يحدث بطريقة ماكرة غادرة خبيثة، تجعل أولئك الضحايا يتوهمون في قرارة أنفسهم أنهم يمتلكون إرادتهم، وأنهم أصحاب القول الفصل فيما يخص قراراتهم.

وتأسيسًا على ذلك، فإن هذا الكتاب يتناول -في شرح موضوعي مستفيض- مسألة السيطرة على العقل وغيرها من أشكال المضايقة الخفية التي تهدف إلى الاستحواذ على تفكير الفرد والجماعة، والتحكم في تصرفاتهم، فما الذي نعرفه يقينًا؟ وما الذي نشك فيه؟ وما الذي يدَّعي الناس أنهم يمتلكون خبرة وتجربة مباشرة عنه؟

ثمَّة مؤامرات كثيرة تحاك حين يتعلق الأمر بهذه الموضوعات، وفي أحيان كثيرة يكون الإسفاف في الرواية بعيدًا عن الحقيقة مملًّا؛ لأن المتورطين في هذا الشأن لا يكونون دائمًا هم الأشخاص المباشرين المعروفين الموثوق بهم، وهنا بيت القصيد في التلاعب بالعقل؛ أي جعل الفرد يعيش في حالة

دائمة من الشـك والارتباك وعدم اليقين، والتغييب التام لأيٍّ رؤية واضحة؛ لأن وضوح الرؤية يعني الثقة. وبقدر ما نكره الاستسـلام لهذا الطرح. فإننا نلحـظ وجـود مؤسسـات وأشـخاص يبذلـون الغـالي والنفيس للحيلولة دون تمتعنا بعقل صافٍ لإدراك تلك الحقيقة.

وفي الوقت نفسـه، يتعين علينا -نحن الكُتَّاب والمؤلِّفين- أن نعترف بعدم معرفتنـا بوجـود بحـوث موضوعيـة في هـذا الشـأن. وأن الأمـر كلـه يقتصر علـى كتابـة عدد محدود من الصفحات، ما يضطرنا إلى المرور سـريعًا على موضوعات كثيرة من دون التعمق في طرحها. ولهذا ارتأينا أن نترك لقُرَّائنا الأعزاء مسـألة البحث والتنقيب في هذه الموضوعات والتعمق فيها، ويحدونا أمل كبير أن نكون قد تناولنا الموضوعات المهمة. وتعمقنا فيها جيدًا، وقدَّمنا للقُرَّاء توطئة تحفزهم إلى مزيد من التساؤل والبحث لمعرفة الحقيقة.

صحيـح أن الإنسـان يمكنـه أن يؤلِّف عشـرة كتب عن موضوع السـيطرة علـى العقـل، ومثلها عن مراقبته، بيد أننا نتمنـى أن يكون هذا الكتاب بداية جيدة لطريق المعرفة والسـلطة والاكتشـاف. وندعو القارئ العزيز أن يبحث في مصادر الكتاب؛ للوقوف على تفاصيل أوفى للموضوعات الكثيرة التي لم نعطها حقها من البحث والتحليل.

فالبحـث في السـبل الكفيلـة بإحـكام السـيطرة علـى العقل البشـري بدأ منـذ بزوغ فجر الاكتشـافات الأُولى. وهو مـا يعرضه الكتاب لبيان المحاولات الدؤوبـة لتغييب العقل والوعي، وتغيير الحقائق، والتلاعب بالإدراك، بما في ذلـك اعتمـاد التقنية التي قد تصبح يومًا ما قـادرة على قراءة أفكارنا حتى قبل أن نهم بها. فالمستقبل بحق مروع ما لم نجد وسيلة ناجعة لحماية حرمة

قناعاتنا الذاتية، وعقولنا، ووعينا، وقدرتنا على الاختيار، وحقنا في اتخاذ القرار، وتمييز الصواب من الخطأ.

وكل ما نخشاه -أيُّها القارئ العزيز- هو اعتقادك أن موضوع السيطرة على العقل ضرب من الماضي، أو مادة مبتذلة في الروايات العلمية، أو عمل متقن من روايات النجمين الشهيرين فرانك سيناترا وميل جيبسون، وأنه لا وجود له على أرض الواقع... فالحقيقة هي خلاف هذا كله؛ إذ إنه حقيقة ماثلة لا مراء فيها، وهو يقترب كثيرًا من مسرح العقل قربك، بل ربما تجري أحداثه الآن مباشرة على شاشة حاسوبك.

فعقل الإنسان هو آخر معاقل خصوصيته، حيث نكون على حقيقتنا وخصوصيتنا وسليقتنا التي فطرنا عليها خالقنا، فنفكِّر كما نشاء، ونتصرف وفق ما نؤمن به من قيم ومعتقدات، ولكن -يا للأسف الشديد- فإن الحضور الدائم في حياتنا لنزعة السيطرة على العقل والتلاعب بالفكر، يمثِّل تهديدًا خطيرًا لمصادرة هذا الحق الآدمي الأساسي: حق الإنسان في امتلاكه عقله الذي وهبه إيَّاه خالقه ليفكِّر كما يشاء، لا كما يريد له الآخرون.

الفصل الأول

المواظبة على ممارسة بعض الألعاب الذهنية

«غسيل المخ هو نظام يعمل على تشويش الدماغ وتعكير صفوه، فيصبح سهلًا تضليل الإنسان ليقبل بأشياء تتعارض مع مبادئه نتيجة التشويش الذي أصاب ذهنه، فيفقد الاتصال بالحقيقة، وتختلط الحقائق والأوهام في نظره، وتبدو له الأُولى مكان الأخيرة والعكس صحيح... ».

إدوارد هنتر، غسيل المخ

«إن أخطر ما في العلوم كلها هو ذلك الذي يتعلق بإعادة تشكيل وعي الجماهير؛ لأنه يمكِّن أيَّ شخص من حكم العالم كله».

تالبوت مندي

لم يعد في عالم اليوم متسع للخيال، فقد أصبح كل شيء في حياتنا، بدءًا بأجسادنا وانتهاءً بحياتنا اليومية، متاحًا للجميع بحيث يمكنهم مشاهدته عن طريق الحقيقة الجديدة المتمثِّلة في وسائل التواصل الاجتماعي، فأصبح الطعام الذي نتناوله في غدائنا وعلاقاتنا الأسرية جزءًا من المعلومات العالمية المتوافرة لكل مهتم، وأصبحت صورنا الشخصية ورسائلنا البريدية العادية وتلك الإلكترونية كتابًا مفتوحًا، ليس لعوائلنا وأصدقائنا وزملائنا

فحسب، بل لمخابرات الحكومات السرية، فأضحت حياتنا مكشوفة لعيان الجميع، تمامًا مثل الشريط اللاصق الشفَّاف.

وبالرغم من هذا كله، فإننا ما زلنا نؤمن -بسذاجة- أن قدسية عقولنا تمثِّل القلعة الحصينة الأخيرة لخصوصيتنا. حيث تظل أسرارنا الخاصة مدفونة، بعيدًا عن أعين الطفيليين، وتظل آمالنا وأحلامنا ومشاعرنا تجاه حماتنا ورؤسائنا في العمل عصية على الاختراق. ما لم نُقرِّر نحن نشرها في وسائل التواصل الاجتماعي بمحض إرادتنا؛ فالعقل في مفهومنا هو حقنا وملكنا نحن فقط دون سوانا، وليس لأحد -حتى لو كان من أحب الناس إلينا وأقربهم إلى قلوبنا- الحق في الاطلاع على ما يدور في خلدنا. ما لم نُقرِّر نحن مشاركتهم إيَّاه؛ فنحن فقط الذين نسيطر على سلوكاتنا وتصرفاتنا، ونفكِّر وفق رغباتنا، ونخطط حياتنا كما نريد، ونعبِّر عن مشاعرنا بوصفنا مخلوقات مستقلة في عالم مجنون، فعقولنا هي عقولنا.

ومع هذا، يحاول بعض الناس -كما هي الحال منذ بدء الخليقة- إرغامنا على التفكير والاعتقاد والتصرف وفق عقولهم. وتمثِّل الرغبة في السيطرة على أهم جزء من هويتنا. الضالة المنشودة لأولئك الذين يسعون إلى تحريكنا مثل الدمى والإفادة من ذلك بصرف النظر عن الهدف.

لا أبالغ حقًّا إذا قلت إن محاولات السيطرة على العقل هي مسألة قديمة قِدم إدراكنا أن لكل منَّا عقله الخاص به الذي منحه إيَّاه الخالق سبحانه وتعالى: فعلى مَرِّ التاريخ اكتسبت السيطرة على العقل مسميات عدَّة، تصف كلها هدفًا مشتركًا هو السيطرة على أفكار الفرد الخاصة، ثم التحكم في تصرفاته وأفعاله. فغسيل المخ، والإكراه، وإعادة برمجة العقل، والتلاعب

به، والحرب النفسية، وتشكيل الفكر، والتحوُّل، وإشعال الفتيل، والتلقين، وتسيير العقل، والسيطرة على الجماهير... كلها طرائق تستعمل لإرباك أفكار الفرد ومعتقداته وإدراكه وإلغائها، حتى لو وصل الأمر إلى استبدال أفكار شخص آخر ومعتقداته وإدراكه بها. وسواء كان الهدف إنشاء القاتل المطلوب أو الجندي المتطرف، وغسل أدمغة أسرى الحروب، وتجنيد أعضاء لمصلحة طائفة أو نظام ديني ما، أو السيطرة على عقول الجماهير وتوجيه سلوكاتهم لخدمة السياسة الراهنة... سواء كان الهدف هذا أو ذاك، فقد استُخدمت السيطرة على العقل على نطاق واسع في الماضي وما تزال تستخدم اليوم، وسوف تظل تستخدم مستقبلًا من دون أدنى شك.

قد يراودك شعور بأن المجتمعات الأكاديمية والعالمية ترى في السيطرة على العقل مؤامرة، ولكنني أؤكد لك أن الأمر ليس كذلك. والحقيقة أن أعضاء الطائفة الدينية تحدثوا كثيرًا في الاجتماع السنوي لجمعية علم النفس الأمريكية، مؤكدين ضرورة اعتماد نهج معالجة واضح يساعد على فهم ضحايا السيطرة على العقل بصورة شاملة، ولا سيما أولئك الذين تورطوا في الانضمام إلى حركات دينية تدميرية متطرفة، بما فيها المجموعات الإرهابية؛ فقد كتب رئيس جمعية علم النفس الأمريكية الدكتور فيليب ج. زيمباردو في عموده الصحفي في شهر نوفمبر من عام 2002م ما يؤكّد ذلك: «يفضي اعتماد الشرطة والجيش أو التنظيمات المتطرفة للسيطرة على العقل إلى عقائد فاسدة، تؤدي إلى ظهور معارضين ينغمسون في تعذيب أعداء مصطنعين أو حتى قتلهم، ويجندون مناصرين يعملون من دون كلل أو ملل، مضحين بكل شيء، حتى بأرواحهم إذا اقتضى الأمر: دفاعًا عمَّا يؤمنون به من مبادئ». ويستطرد زيمباردو قائلًا: «يعد فهم طريقة

عمل القوة التي تظهر في ظروف ما، ومعرفة أسباب سرعة انتشارها، أمرًا مهمًّا لمعرفة كيفية مقاومتها، وإضعاف قدرة المنظمات والوكالات العديدة على السيطرة على عقول الناس، وهي منظمات ووكالات تسوق تجاربها علينا يوميًّا خلف الكثير من الوجوه والأقنعة».

تشمل هذه الوجوه والأقنعة التي تختبئ خلفها تلك المنظمات والوكالات: وجهاء مسؤولين يحظون بالثقة، وشخصيات نافذة في السلطة، ونجومًا مشهورين ذائعي الصيت، وقادة عالميين، ورجال دين، وزعماء روحانيين، وشركات عالمية رائدة، ووكالات دعاية وإعلان، ووسائل إعلام، وزعماء سياسيين، وحتى عائلاتنا وأصدقائنا... لقد تعرَّضنا للهجوم من مختلف الجبهات، وانقض علينا أناس متلهفون ليأخذوا قطعة من عقولنا، ويجعلوها عقولًا لهم لأيِّ سبب، ما دام ذلك يوافق مخططاتهم.

مفهوم السيطرة على العقل في الثقافة العامة

تزخر ثقافتنا الشعبية بالكثير من القصص والحكايات والصور التي يتناقلها الناس حين يتعرَّض أحدهم لغسيل مخ، أو يقع ضحية لأحد أنظمة السيطرة على العقل، بعد الوشاية به من جهة مخابراتية حكومية سرية، أو شخص متسلط بغية التلاعب بعقله: إذ تصف الأفلام التي تتناول موضوعات الحروب مختلف صنوف العذاب والاستغلال التي يتعرَّض لها الأسرى على أيدي أعدائهم، والتي تبلغ حد حرمان الطعام والشراب، وحتى ضوء النهار، بهدف كسب ولائهم، أو انتزاع معلومات قيِّمة منهم. ويعد التلاعب بالعقل، وتعريض الجسم لمختلف صنوف العذاب الشديد؛

من: برد، وحرارة، وحرمان، وضرب. أحد أهم أساليب الاستجواب الكفيلة بانتزاع الحقيقة، حتى من أكثر الناس صمودًا ومقاومةً وصبرًا على العذاب، وتمسكًا بالقيم، واحترامًا للمبادئ.

وفي الواقع، فقد وفد إلينا مصطلح (غسيل المخ) من الصينيين الذين استخدموه في أثناء حكم الرئيس ماو تسي تونغ[1]. لوصف تلك الأساليب الإجبارية التي فرضت على المواطنين؛ لحملهم على «التفكير السليم» وفق النظام الاجتماعي الجديد. وقد ورد ذكر هذا المصطلح أول مرة في اللغة الإنجليزية في مقال نُشر في (أخبار ميامي) في شهر أكتوبر عام 1950م، وحمل عنوان (إجبار أساليب غسيل المخ الصينيين على الانضمام إلى الحزب الشيوعي)، وكتب هذا المقال المراسل الصحفي إدوارد هنتر الذي كان - في الحقيقة- شرطيًّا سريًّا تابعًا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، يتخذ من العمل الصحفي في (أخبار ميامي) وسيلة لتحقيق أهداف الوكالة. ونتيجةً للنجاح الكاسح الذي حظي به المصطلح: فقد جرى تداوله طوال أيام الحرب الباردة، وهو ما يزال يُستخدَم حتى يومنا هذا لوصف أساليب السيطرة على العقل التي تغسل حقًّا العقل من كل ما يحويه من أفكار ومعتقدات ومبادئ، فتجعله لوحًا أبيضَ نظيفًا يكتب فيه مَن غسلوه ما يريدون.

من جهة أُخرى، ثمَّة جدل واسع بخصوص أسرى الحرب الكورية؛ هل هم فعلًا ضحايا غسيل مخ أم لا؟ هل خضعوا لجلسات تحقيق واستجواب

(1) ماو تسي تونغ: زعيم ومُنظّر سياسي صيني، وُلِد عام 1893م، وتوفي عام 1976م. انتصر على قوات شيانغ كاي شيك، وأسس جمهورية الصين الشعبية عام 1949م. المترجم.

استغرقت وقتًا طويلًا بهدف تعذيبهم وإذلالهم واستغلالهم؟ لقد أثبتت وثائق الجيش التي عُثر عليها عام 1956م (بخصوص استجواب الشيوعيين للأسرى وتلقينهم واستغلالهم) عدم وجود أيِّ دليل مادي على أن غسيل المخ والسيطرة على العقل كانا سببًا في استغلال الأسرى.

صحيح أن الاستغلال قد حدث من دون أدنى شك. ولكن، هل كان فعلًا بهدف تغيير عقول الأسرى؟ لم يثبت حدوث هذا حتى الآن، مع أن كثيرين يرون في انشقاق بعض أسرى الحرب عن معسكر العدو الصيني دليلًا دامغًا على حدوث غسيل المخ.

اتُّهِمت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بابتكار طريقة غسيل المخ بوصفها وسيلة تفسِّر سبب انشقاق بعض أسرى الحرب وانضمامهم إلى معسكر العدو بمحض إرادتهم. ومع هذا، فثمَّة مَن يرى أن وكالة المخابرات المركزية كانت - وما تزال- متورطة حتى أذنيها في تجربة السيطرة على العقل: لاعتمادها وسيلة لتحقيق أهدافها (يتناول البند التالي هذا الموضوع بشيء من التفصيل). لقد أكَّد ستيفن آلان حسان (المستشار والعضو السابق في كنيسة التوحيد) الذي يدير اليوم مركز حرية العقل، من موقعه على شبكة الإنترنت، أن أسوأ أشكال السيطرة على العقل وأكثرها تدميرًا، هي تلك التي (تلغي مركز السيطرة في العقل) لدى الفرد. ثم تعتمد أربع وسائل أساسية للتلاعب بالشخص المعني أو حتى تغيير شخصيته، هي: السلوك، والمعلومات، والأفكار، والمشاعر. وقد ثبت أن اعتماد هذه الوسائل يعد أنجع طريقة لإحكام السيطرة التامة على العقل. ويظهر هذا جليًّا في موضوع الطوائف الدينية (كما يظهر في موضع لاحق من هذا الكتاب): إذ

يفضي العزل والتلاعب بالمعلومات إلى حقيقة مغايرة تمامًا لأتباع الطوائف الدينية، وليس بالضرورة أن يكون ذلك نتيجة اختيارهم بمحض إرادتهم.

تتبع رؤيتنا للسيطرة على العقل وغسيل المخ، وما يدفع إليهما من أسباب محتملة غالبًا، من أفلام السينما والروايات التي تتناول حكايات التجسس، إضافةً إلى الإثارة الصحفية التي تُسهِب في الحديث عن الطوائف الدينية والمذهبية المتطرفة، أو تلك التي ليس لها حضور يُذكَر على الساحة، فيخضع الإنسان للتلقين، ويتعين عليه اختيار أحد أمرين: الالتحاق بهذه الطائفة أو تلك، ولا يسمح له أن يبقى حياديًا. وقد ثبت للجميع وجود استغلال مروع للأطفال؛ بغية تحويلهم إلى عبيد مجردين من أيِّ إرادة ذاتية، وكذا تجنيد مقاتلين أشداء، أو جواسيس أوفياء، أو إعداد أشخاص لإجراء تجارب مخبرية مروعة على الضحايا غير الراغبين في السجون أو معسكرات الموت باستخدام الصدمة الكهربائية أو حمض اللسيرجيك[1]. ولكن - للأسف الشديد- قلَّما تأمَّل أحدٌ المشهدَ من وسائل الإعلام لمعرفة الحقيقة. بيد أن استمرار المؤامرة المرتبطة بالثقافة العامة يعد دليلًا واضحًا على الرغبة في معرفة إذا كان حقًّا ثمَّة مَن يتلاعب بنا بوساطة أطراف معينة، وباستخدام طرائق متعددة؛ تحقيقًا لأهداف محدَّدة.

منذ بزوغ عصر التصوير الأول الذي أظهر موضوع التلاعب بالعقل بوصفه ظاهرة غريبة، شرع علماء مهووسون في تعريض الفقراء والمساكين

---

(1) حمض اللسيرجيك: عقار مهلوس استُخدِم في ستينيات القرن الماضي بالولايات الأمريكية المتحدة لأغراض طبية خاصة تتمثَّل في تخفيف آلام المصابين بالسرطان، ثم حُظِر استخدامه، فانحصر بيعه في السوق السوداء، وأدمنه الشباب بوصفه مخدرًا يساعدهم على الانسلاخ من الواقع. المترجم.

والضحايا المجانين لجلسـات من التنويم المغناطيسـي، في حالة تشـبه كثيرًا قصص اليـوم المعقّـدة التي تجمع بـين الحقيقة والخيال. والتـي تمثّل غالبًا مـا يحدث من تلاعـب في التقنية الحقيقية التي تتمتع أيضًا بحقـوق الملكية الفكرية مثل باقي الأعمال الأخلاقية المشروعة.

لا شـك أننـا نعشـق القصة الرائعـة التي تتنـاول موضوع السـيطرة على العقل. ولكن، ما إن نستمتع بها حتى نسأل أنفسنا متعجبين: هل ما تضمنته هـذه القصـة مـن وقائع ومجريـات يحدث حقًا علـى أرض الواقـع؟ وبمجرد إدراك طبيعـة الموضـوع الجادة وحقيقة الأمر، يمكننـا تحليل حبكة الحكاية لمعرفة ما اشتملت عليه من حقائق.

ربمـا كان فيلـم المرشـح المنشـوري The Manchurian Candidate[1] أحد أهـم الأفلام السـينمائية التـي تناولت موضوع السـيطرة علـى العقل، وكان ريتشـارد كونـدون قـد كتبه بدايـةً بصورة قصة سياسـية مثيرة، ثـم عُرِض فيما بعدُ على شاشـة السـينما مرتين: الأولى عام 1962م. وكان بطله فرانك سـناترا وأنجيـلا لانسـبيري، والثانيـة عـام 2004م، وفيـه حظـي دينزيـل واشنطن وميريل ستريب بدور البطولة.

تـدور أحـداث الفيلـم حـول أحد أبنـاء عائلة سياسـية مشـهورة، تعرَّض لغسيل مخ فتحوَّل إلى قاتل خفي، وذلك في أثناء الحرب الكورية؛ إذ تعرَّض الرائـد بينيـت ماركـو (أدى دوره سـيناترا ثـم لاحقًـا واشـنطن) وحراسـه للاختطـاف، وذهـب بهـم المُختطِفـون إلـى منطقـة تعـرف بـمنشوريا حيث

(1) منشوريا: منطقة تقع في الجزء الشمالي الشرقي من الصين، مساحتها (1.554,00) كم2، وعدد سكانها (70,000) نسمة. المترجم.

خضع الجميع لعملية غسيل دماغ. وما إن عاد هؤلاء المُختطَفون إلى الولايات الأمريكية المتحدة، حتى بدأ الرائد ماركو يعاني كوابيس مرعبة، يُخيَّل إليه فيها أنه تعرَّض للخيانة والقتل على يد أحد حراسه الذي كان يظنه بطلًا، ومن دون الخوض في تفاصيل أكثر. فقد اكتشف ماركو أن بعض حراسه يعانون الكوابيس المخيفة نفسها، واكتشف أيضًا وجود مؤامرة خطيرة تشمل غسيل المخ، واغتيال أشخاص وهم نيام. واحتمال اغتيال شخصية سياسية بارزة. تقوم بهذا كله امرأة قوية شريرة (أدَّت دورها لانسبيري، ثم لاحقًا ستريب) كانت تحيك المؤامرات وراء الكواليس.

وبالرغم من أن الفيلم قد حظي بإعجاب منقطع النظير، فإنه أثار قلق المشاهدين الذين قرؤوا عن أحداث حقيقية مثل تلك أو سمعوا عنها، مما حفز الحكومة إلى تعزيز الأمن، فجاءت بمشروع (MKUltra) الذي سنناقشه لاحقًا.

ثمَّة فيلم سينمائي آخر يحمل اسم نظرية **المؤامرة Conspiracy Theory**، ويتناول مشروع (MKUltra)؛ بغية حفز المشاهدين إلى التعاطف مع سائق أجرة مخبول يُدعى جيري (يؤدي دوره الممثل ميل جيبسون) الذي يحاول جاهدًا إقناع أليس: المحامية الجميلة الفاتنة التي تعمل في وزارة العدل الأمريكية (تؤدي دورها الممثلة جوليا روبرتس)، أن ثرثرته بخصوص نظرية المؤامرة صحيحة إلى درجة قد تفضي إلى نتائج مأساوية. ربما تخفي ثرثرة سائق الأجرة المخبول هذا - أحيانًا- ذكريات مبعثرة وشخصية غير سوية لمنقذ حقيقي لمشروع (MKUltra)؛ شخص يبدأ بتذكر المزيد. وعندما أدركت أليس أن بعض عملاء وكالة الاستخبارات الأمريكية

المركزيـة يلاحقونهـا، صـارت تنتبـه لتوريط نفسـها في نفق المؤامـرة المظلم الذي يفضي إلى نتائج مميتة.

تجـدر الإشـارة إلـى أن قصـة هـذا الفيلـم كانـت مترعة بحوار مشـروع (MKUltra) التقليـدي (التعذيـب، المخـدرات، الضـرب، المطـاردة، الصخب، الضجيـج، المصطلحـات الفنيـة، وحتـى المثيـرات)، فصـارت بهـذا شـبيهة بقصـة **القناص في العشب** Catcher in the Rye: إذ تعمل الإثارة على حفز القتلة أو عملاء المخابرات إلى تنفيذ المهام المنوطة بهم، تمامًا مثلما يفضي التصفيق إلى التحفيز في التنويم المغناطيسي (أو العكس).

السيناريو

يعد اسـتخدام العقل مؤثراً لإبراز أهداف القصة أمرًا شـائعًا، حتى إنه يترك أثرًا عميقًا في نفس القارئ أو المُشـاهد؛ لأن العروض الشـعبية توحي أننا قد نكون جميعًا ضحايا محتملين. وبذا، فإننا لا نسـتطيع فعل شـيء إذا أرادوا السـيطرة علينا، سـوى الجلوس والخنـوع لما يُفرَض علينـا من قيود، وتضيف قصص بعض الأفلام إلى كل ما تقدَّم، الأشـباح والتلاعب بالعقل، مثـل فيلم **الجزيرة المغلقة** Shutter Island الذي عُرِض عام 2010م، والذي ركَّـز أساسًـا علـى التأثير النفسـي. والفيلم مـن إخراج مارتن سكورسيس، وبطولـة النجـم ليونـاردو دكابريـو الذي تقمَّص دور شـخص يعـاني صعوبة شـديدة في الاطمئنـان إلى سـلامة عقله وحقيقة شـخصيته، ويحقق بشـأن حالة اختفاء غريبة في مكان بعيد، ويُصنَّف الفيلم ضمن الأفلام التي تُسلِّط الضوء على الدراسـات التي تعنى بالتلاعـب بالعقل. وثمَّة قصة فيلم أُخرى

للنجم ديكابرو يحمل اسم الاستهلال Inception، تؤكّد أنه يمكن التحكم في الوسائل التي تُعرَف بها أحلام الناس، والتي يمكن الإفادة منها في سرقة أفكارهم، وهي تشمل حتمًا بعض نماذج السيطرة على العقل، والاغتيال، وبرمجة الأفكار التي أُخرجت حكاياتها في الأفلام الآتية:

- أسرة أورانج المنضبطة A Clockwork Orange[1] لأنثوني بيرقيس. أخرجه ستيلي كوبريك فيما بعدُ، وحوَّله إلى فيلم اسمه **هذيان العقل** Mindbender.
- الرجل الأخير (لمايكل كرشتون) The Terminal Man.
- الفتاة ذات وشم التنين[2] (لستيف لارسون) The Girl With the Dragon Tattoo.
- القبعة (لجورج دو موريز) Trilby.
- صانعو الدمية لروبرت أ. هينلين The Puppet Masters.
- عالم جديد شجاع لألدوس هوكسلي Brave New World.
- 1984م لجورج أوريل 1984.
- مشعل النار لستيفن كنج Firestarter.

---

(1) أورانج: أسرة أميرية نشأت في إمارة أورانج (تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا) وحكمتها، ثم هيمنت - فيما بعدُ- على مُقدَّرات جمهورية هولندا من عام 1579م إلى عام 1795م. وما إن انهارت الجمهورية عام 1795م حتى تربَّع أفرادها على العرش الهولندي، وما يزالون يحكمونها إلى اليوم. المترجم.

(2) التنين: مخلوق خرافي صوَّره بعض الأشخاص على هيئة أفعى ضخمة، خفاشية الجناحين، شائكة الذيل، تنفث النار. المترجم.

- The Bourne Identity book series by Robert Ludlum (also motion pictures)
- سلسلة كتب هوية بورن لروبرت لودلم (أُخرج أيضًا على هيئة صور متحركة) The Bourne Identity book series.
- التلفون، بطولة شارلز برونسون Telefon.
- مصباح الغاز Gaslight.
- الماتريكس The Matrix.
- الماسحة (أداة الفحص الآلي) Scanners.
- مشهد الحلم Dreamscape.
- مأساة غيانا[1] The Guyana Tragedy.
- سلم يعقوب Jacob's Ladder.
- سولت، بطولة أنجلينا جولي Salt.
- اقتل بيل Kill Bill.
- الأرض المكشوفة Closet Land.
- الرجال الذين يحدقون في الأغنام، بطولة جورج كلوني The Men Who Stare at Goats.
- دعوة عامة للعودة إلى العمل، بطولة آرنولد سشوارزنغر Total Recall.

---

(1) غيانا: جمهورية تقع في الجزء الشمالي من أمريكا الجنوبية، لغتها الرسمية الإنجليزية، نالت الاستقلال في نطاق الكومنولث البريطاني عام 1966م، مساحتها 214970 كم2، وعدد سكانها 812،000 نسمة. المترجم.

- سلسلة كتب (إكس-مين) الهزلية The X-Men.
- السجين، (سلسلة أفلام تلفازية) The Prisoner.
- السماوات المظلمة، (سلسلة أفلام تلفازية) Dark Skies.
- الملفات السرِّية، (سلسلة أفلام تلفازية) The X-Files.
- الفتاة نيكيتا، (سلسلة أفلام تلفازية) La Femme Nikita.
- المدعي. (سلسلة أفلام تلفازية) The Pretender.
- الرجل الخفي، (سلسلة أفلام تلفازية) Nowhere Man.
- القائمة السوداء، (سلسلة أفلام تلفازية) Blacklist.
- بيت الدمية، (سلسلة أفلام تلفازية) Dollhouse.
- أساطير، (سلسلة أفلام تلفازية) Legends.
- الهامش، (سلسلة أفلام تلفازية) Fringe.
- الوطن، (سلسلة أفلام تلفازية) Homeland.

يُذكَر أن فيلم حرب النجوم Star Wars قد تناول أيضًا موضوع السيطرة على العقل، مثلما ظهر من حِيل جيدي التي هدفت إلى تأمين ممر آمن في مناطق خطرة، وإحكام سيطرتها على البشر والروبوتات الآلية في آنٍ معًا، وحتى الطبيب الحاذق الذي لم يستخدم سيناريو القصة من قبلُ، فإنه يستطيع السيطرة على العقل عن طريق التنويم المغناطيسي. لقد قدَّم لنا النجم تريك: الغريب بورقس الذي مثَّل خلية عقل من التابعين الخانعين.

يبـدو هنـا -مرة أُخـرى- أن صناعة التسـلية لدينا تعكس الحقيقة؛ لأن كثـيرًا من تلـك العروض السـينمائية والكتب والقصص تمثّل أشـياء واقعية مغلَّفـة بحبكـة تخيليـة محكمـة. تاركـةً إيَّانـا - نحـن المشـاهدين أو المتلقين عمومًا- في حيرة من أمرنا: هل ما نشـاهده يمكن أن يحدث فعلًا، أو حدث حقًا، أو أن الأمر لا يعدو أنه براعة من المؤلِّفين وإعمال أذهانهم لتصوير ما نشاهده؟ وهذا ما جعل العالِم ولتر بشوب يوجز هذا الأمر في سلسلة الهُداب التلفازية، في جملة واحدة: «العقل حاسوب... حاسوب عضوي، ولهذا يمكن اختطافه مثل أيِّ شيء آخر».

من جهة أُخرى، لم تكن القائمة السابقة تمثِّل حتى مجرد البداية لحصر الحالات جميعها التي تُستخدَم فيها السيطرة على العقل خطةً ونهجًا في أدب جيل الشباب، وفي مختلف الأفلام السينمائية والتلفازية، وسواء استُخدِمت في السـيطرة علـى الطبقات الاجتماعية الدنيـا، أو بوصفها نوعًا من التنويم المغناطيسي للعثور على شخص ما، أو وسيلةً لإخراج شخص ما عن طوره - أو حتى أداة للقتل- فإن الأمر يبقى مثيرًا للاهتمام. ومؤشرًا دامغًا لأهميته في صراعاتنا ضد الأنانية، في عالم يبدو اليوم عازمًا بقوة على جعلنا نعيش جميعًـا في دولـة واحـدة آمنـة خانعـة؛ إنه صراع نفسـي داخلـي عميق، حيث نعيش في دولة قاسـية. حتى لو كنَّا نقاتل من أجل حرية التعبير بين أقراننا وبـين أعدائنـا، والأهـم أنها تطـرد عنَّا الخـوف، وتزيدنا قـوة؛ فالمعرفة قوة كما يقولون.

وهنـا، ربمـا تكمـن أهميـة الصلـة الوثيقـة بـين السـيطرة علـى العقـل وموضوعات التسـلية الهزلية. صحيح أننا نبـدو حريصين كثيرًا على حماية

أنفسنا وأغراضنا، لكننا نجهل كيفية حماية عقولنا. ولا نتذكر هذا الأمر إلَّا عندما نصطدم بمثل تلك القصص التي تتردد في الإعلام، أو مواقع المؤامرات في شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت)، أو حتى في الوثائق الحكومية التي أُتيحت للعامة بعد رفع السرية عنها.

وصحيح أيضًا أننا نستطيع تفهُّم الرغبة الجامحة لإيجاد تقنية فاعلة لبرمجة العقل والسيطرة عليه في أثناء الحرب من بعض المتنفِّذين في السلطة الذين تشرئب أعناقهم لكسب المعركة بأيِّ ثمن. ولكن يصعب علينا تفهُّم سبب الاستمرار في جعل السيطرة على العقل هدفًا حتى في زمن السلم والاطمئنان.

لا شك أننا سمعنا عن نظريات المؤامرة التي تتعلق بنظام العالم الجديد، أو العقل الواحد، أو العقيدة الواحدة، وعن الحكومات، واندماج الشركات العابرة للقارات التي تريد أن تسيطر على الشعوب، وتُقرِّر نيابةً عنها الطريقة التي تنتخب بها ممثليها، فضلًا عن شراء أغراضها أو بيعها، وتحديد طريقة استهلاكها.

وللحقيقة، فقد سمعنا أن نظريات الإغراق تجعلنا شعوبًا أكثر إذعانًا؛ نعم، إننا ندرك حقًّا وجود أشخاص يضعون نَصْبَ أعينهم استغلال الجماهير واستعبادها - مثل الدمى- لتحقيق أكبر قدر من الثروة والقوة للقلة القليلة التي تمتلك -ابتداءً- قدرًا كبيرًا منهما. أمَّا سبب الانتشار الواسع لظاهرة السيطرة على العقل اليوم فمرده دائمًا رغبة الناس في السيطرة على بعضهم.

بواعث السيطرة على العقل

نشر الدكتور ألان باركر (أحد خبراء السيطرة على العقل، ومؤلِّف وصاحب باعٍ طويل في التعليم)، في مجلة (MKZine)، في عددها الصادر في ربيع/ صيف عام 2003م، موضوعًا رائعًا، تناول فيه الأسباب التي تدعو بعض الأشخاص إلى السيطرة على العقل، وما تزال رؤيته اليوم مصدر إلهام للكثيرين، حتى في ظل تطور التقنية والبحث. ويمكننا حتمًا إثراء رؤيته تلك التي نورد بعضًا مما اشتملت عليه:

- عدم الاكتراث لمصالح المواطنين في أثناء الصراعات والحروب: وذلك باعتماد أسلوب المراقبة والمضايقة المستمرة وسيلة لاستهداف أيِّ شخص، كائنًا مَن كان، بدءًا بالقائد العالمي المحتمل، ومرورًا بالمخبر السري، وانتهاءً بالمجموعات النشطة.
- البحث عن الأفكار وسرقتها من الآخرين: وذلك بالتجسس، وسبر عقول الآخرين، ولا سيما العباقرة والمفكّرون في البلدان الأُخرى؛ بغية الحصول على التقنية باستخدام أساليب خفية من المراقبة.
- الاستجواب بهدف الحصول على الأسرار: يتمثَّل ذلك في الأساليب المعروفة المتبعة في الصراعات والحروب ودحر الإرهاب، بيد أنه يمكن استخدام ذلك أيضًا في الوطن الأم لمعرفة نواياك ومواقفك مقارنةً بالآخرين.
- العمليات النفسية: تستخدم العمليات النفسية في برامج الحكومة والبرامج العسكرية.

- التكتم على التقنية وإخفاؤها عن الآخرين: وذلك باعتماد أسلوب المراقبة والمضايقة المستمرة. وكل وسيلة يمكنها تعطيل المنافسين وإخراجهم من حلبة السباق.
- استئجار الأثرياء أصحاب البلايين لشراذم من النفعيين خدمةً لمصالحهم: يمكن للأثرياء وأصحاب السلطة استخدام أسلوب السيطرة على العقل، والمراقبة والمضايقة المستمرة لتحطيم المنافسين، ونزع زمام المبادرة من أعدائهم دون تبديد أيِّ أموال لتوظيف رجل واحد بارز.
- السيطرة على أحد الأشخاص (مثل: القائد العالمي، والقاتل المحترف...): وهذا يساعد شخصًا ما على الاستعداد لتولي زمام السلطة: بغية تحقيق السيطرة باستخدام نظام دعم قوي مساند، وإن بدا له أنه الشخص الفاعل الحقيقي. ويمكن أيضًا لشاغلي الرتب العليا في الجيش والقتلة إزاحة قيادات عالمية مؤثرة بعد السيطرة على عقولها.
- اختيار أكثر الأشخاص كفاءة بين المجموعة: وذلك بتنصيب شخص ألعوبة ضعيف الشخصية رئيسًا لمجموعة دينية أو طائفية للحصول على معلومات محدَّدة، ومعرفة ما يجري في تلك الطائفة من أخبار، وما يتردد بين حناياها من معلومات.
- إخضاع أشخاص معينين لإجراء البحوث والتجارب الطبية والنفسية.
- استشراف الأحداث واستباقها: مثال ذلك ما حدث في فيلم تقرير الأقلية Minority Report: إذ تتحدث قصة الفيلم عن أشخاص لا

يريدون السيطرة على سلوك الآخرين فحسب، بل استشراف ماهية هذا السلوك، ما يجعل الأمر كله وسيلة أكثر نجوعًا للسيطرة.

تلك هي فقط بعض النماذج التي تمثّل الأسباب الموجبة لبرامج السيطرة على العقل والمراقبة المستمرة، سواء كان ذلك على نطاق واسع من بعض المنظمات الحكومية، أو على نطاق محدود من المنظمات الدينية أو الطائفية. وهذا ما يؤكّده - تحديدًا- مشروع (MKUltra)، وممارسات الحكومة في برمجة السيطرة على العقل، وربما يكون ما نتعرَّض له اليوم هو مجرد رأس جبل هائل من الجليد، أو أحد مجسات أخطبوط عملاق، أثَّر في مظاهر حياتنا كلها؛ أفرادًا وجماعات.

نظرة عن قرب

لا يمكننا بالطبع الحكم على وجود استخدام واسع للسيطرة على العقل من دون النظر إلى طريقة تعاملنا اليومي - بوصفنا بشرًا عاديين- مع محيطنا. أمَّا الأمر الأهم بهذا الخصوص فهو ما يتبادر إلى أذهان الناس تلقائيًّا عن علاقة غدر الحكومة ومكرها وخبثها بما تضمره من شر وتعذيب وبرمجة للعقل، أو دعوة زعيم ديني صاحب سطوة ونفوذ أتباعه إلى الانتحار؛ إذ نادرًا ما يفكّر هؤلاء في الطرائق المتعددة التي يحاولون بها السيطرة على مَن حولهم، وتغيير أفكارهم، وتهديدهم، وإثارة الرعب في أنفسهم، وكبتهم، والتأثير فيهم، وصولًا إلى التلاعب بهم والعكس صحيح. ولا شك أننا نتعرَّض لمثل هذا السلوك دائمًا، بصرف النظر عن قبولنا له، أو رفضنا إيَّاه؛ لأننا نمثّل هدفًا مهمًّا.

قد يتبادر إلى ذهنك مجموعة من الأسئلة، مثل: هل تعرف أحدًا تعرَّض للاستغلال، أو طفلًا تعرَّض للإساءة والعنف؟ هل تعرف أحدًا يعاني الأمَرَّيْنِ على يدي شخص ما بسبب النرجسية وانفصام الشخصية؟ هل تعرف المقصود بعلم الاجتماع السياسي؟ هل حاولت الإفادة منه؟

يوجد العديد من أمراض العقل أو اضطراب السلوك كما يسميها بعض المتخصصين، وهي تعد مثالًا جيدًا للأشخاص الذين يمارسون غالبًا السيطرة على الآخرين عن طريق المراقبة العاطفية أو الجسدية، والتلاعب، والخداع، والاستغلال، والتعذيب، وقد يحدث هذا حتى بحق الأطفال مثلما يحدث بحق الكبار.

سنستعرض فيما يأتي الشخصية النرجسية المضطربة التي تبدو اليوم جلية في ثقافة (أنا... ومن بعدي الطوفان)، علمًا بأن الممثلين المشهورين ونجوم أغاني (الروك) والرياضيين والسياسيين ليسوا هم وحدهم مَن يرفع هذا الشعار، وإنما ينادي بذلك أيضًا الأشخاص العاديون، مثل: الأمهات، والآباء، والبنات، والأبناء، والأحبة، والزملاء، والأصدقاء، فعلامات الشخصية النرجسية المضطربة بسيطة جدًّا، ومغرية في آنٍ معًا، خاصة لأولئك الذين عانوا ويلاتها في محيطهم.

لتشخيص حالة ما، ومعرفة إذا كان صاحبها يعاني الشخصية النرجسية المضطربة، يجب أن تتوافر فيه الأعراض الخمسة الآتية، أو أكثر منها (وفقًا لجمعية الطب النفسية الأمريكية، ولما جاء في دليل تشخيص أمراض الاضطرابات العقلية وإحصائها):

- الإحساس المتعاظم بأهميته، بحيث يعطي إنجازاته ومواهبه أهمية كبيرة، ويتطلع دائمًا إلى أن يُنظَر إليه بوصفه شخصًا خارقًا، من دون إخضاع إنجازاته لمقياس حقيقي، يؤكّد كفاءته وقدرته وبراعته.
- الانشغال غير المحدود بتحقيق النجاح الذي لا يعرف حدًّا، وكذا السلطة، والشهرة، والجمال، والحب المثالي.
- الإيمان في قرارة نفسه أنه (أو أنها) شخص خاص مميز وحيد لا مثيل له، يختلف عن بقية الناس، ولا يستطيع أحد فهمه سوى أمثاله من الطبقة الراقية، ولا يليق به غير التعامل مع هؤلاء، أو مع المؤسسات الراقية أيضًا.
- انتظار الإعجاب المفرط به من الآخرين.
- الإحساس المفرط بالأحقية في كل شيء، بحيث يتوقع معاملة خاصة دونما وجه حق، أو إذعان الآخرين لتحقيق رغباته تلقائيًّا.
- استغلال الآخرين بصورة لافتة، بحيث يُطلَب إليهم دائمًا بذل المزيد لإرضاء طموحه وإشباع رغباته.
- الافتقار إلى روح العاطفة، بحيث يزهد في مشاركة الآخرين مشاعرهم، أو معرفة حاجاتهم.
- الاتصاف بصفة الحسد في الغالب الأعم، أو توهُّم أن الآخرين يحسدونه.
- إظهار كثير من التصرفات التي تدل على الغطرسة والتكبر.

قد ينطبق ما ذكرناه آنفًا على نحو 80% من الأشخاص الذين تعرفهم؛ إذ أصبحت النرجسية شكلًا فاعلًا من أشكال السيطرة على عقول الضحايا، ويمكن تشبيه ما يحدث من استغلال للأفراد نتيجة ذلك بما قد يحدث في

الطب النفسي الذي يستخدم مجموعة من الحِيل المضللة ويتلاعب بالسلوك لتشويه سمعة الضحايا، مثل:

- قذف الأبرياء المستهدفين ووضعهم في قائمة الأصدقاء فقط بهدف الانتقاص من قدرهم، حتى يكونوا منبوذين فيما بعدُ.
- الإحساس بالحق الأصيل في الكذب والخداع والغش؛ لأن الشخص النرجسي يؤمن بحقه في استخدام أيٍّ وسيلة لتحقيق ما يريد.
- عزو ما يرتكبه من أخطاء، ويقترفه من ذنوب، وما يظهر عليه من ضعف إلى ضحاياه.
- الطعن في الصحة العقلية للأبرياء الضحايا، والحط من قدرهم، والتقليل من شأنهم، عن طريق الكذب، وتغيير القصص، والمغالطة، والنفي، وحتى اللجوء إلى الصمت، وتهميش الضحية لمعاقبتها.
- الانفجار الغاضب غير المبرر عندما يضبط الشخص النرجسي متلبسًا بالغش والخداع والكذب، أو الصراخ والهياج في سلوك مستهجن.
- عزل الضحية ليسهل السيطرة عليها.
- مطاردة الضحية، وملاحقتها، ومضايقتها، وتهديدها إذا لزم الأمر، لجعلها تعيش في بيئة خوف وقلق وجنون الارتياب.
- الابتزاز العاطفي، والمادي، وحتى القتل.

والحقيقة أن الأشخاص النرجسيين ليسوا جميعًا كذلك، فبعضهم أعضاء ناجحون في المجتمع، حتى في ظل وجود آخرين حقودين حسودين مؤذين، بيد أن الوسائل التي يعتمدونها في برمجة العقل، وتشويه السمعة،

والسيطرة، وتقنيات غسيل المخ - لجعل الضحايا الأبرياء يعتمدون عليهم، ويرتبطون بهم، ويتأثرون بهم عاطفيًا بسرعة- تعكس كثيرًا من الوسائل نفسها التي اعتُمِدت لإلغاء شخصية الرجال والنساء في أثناء تلقين المذاهب الدينية. واستجواب الأسرى، والصدمات النفسية بغرض الابتزاز. لقد أفاد الطب النفسي من ذلك السلوك أكثر مما أفاده النرجسيون بمراحل، فأصبح جزءًا من ثقافتنا العصرية، ولهذا يتعين علينا توقير هؤلاء الناس وتبجيلهم والاحتفاء بهم، حتى لو مارسوا تلك التصرفات غير المقبولة.

الاستغلال والسيطرة

توجد قواسم كثيرة مشتركة بين النرجسية والتحكم في العقل: إذ تعد الحاجة إلى السيطرة المطلقة على الآخرين إحدى أهم الأدوات التي يستخدمها علماء النفس لتعريف الشخصية النرجسية المضطربة: فالذين يعانون النرجسية يحاولون دائمًا السيطرة على الآخرين من أجل تعزيز إحساسهم الخاص بالحق والسلطة، ويسعون جاهدين للاحتفاظ بمكانتهم مهما كان الثمن، مما يدفعهم إلى الانتقاص من قدر الآخرين لتعزيز إحساسهم الذاتي بالاعتداد بالنفس والغرور. ويتولد لديهم إحساس كبير عارم بالحق المطلق في كل شيء، ويعتقدون جازمين أنهم يستحقون اعترافًا خاصًا بذكائهم ومهاراتهم، ويعتقدون أيضًا، بسبب تفوقهم، أن الله قد منحهم الحق لاستغلال الآخرين، والانتقاص من قدرهم، واستخدامهم لقضاء شؤونهم. ولمَّا كان الضحايا الأبرياء يشعرون دائمًا بأن النرجسيين يحبونهم، فإن التخلص من هذا الابتزاز العاطفي صعب جدًا. وقد لخَّص شخص ما هذا النوع الأكثر انتشارًا من أنواع السيطرة على العقل في لافتة

علَّقها في إحدى الساحات العامة التي عُرِفت بالساحة النرجسية، وفيها: «ليس ثمَّة أسوأ من أن تتعرَّض لحقد أسود من شخص تثق به، وتحبه، وتعتقد أنه يحبك ويستأثر بأعظم مكانة في قلبك».

تلك هي التصرفات نفسها التي يمارسها الحكام الطغاة المستبدين بصرامة شديدة، فيغضون الطرف عن التعذيب، والاستغلال، وحتى الذبح، بسبب ما يعتقدون في أنفسهم من صلاح وتقوى؛ إذ ثمَّة توجيه محكم للسيطرة على قلوب الآخرين وعقولهم معًا في أيِّ علاقة مستبدة، سواء كانت بين زوج متعسف وزوجته التي تعاني طويلًا ظلمه وتعسفه، أو سياسي، أو رجل دين شرير يعتقد أن الله اختاره ليكون فوق الآخرين، مُميَّزًا عليهم.

لا شك أن الاستغلال العائلي لا يقل أهمية عن ابتزاز الحكام الطغاة المتغطرسين. وفي الحقيقة، فقد يظهر بعض أسوأ المضطربين عقليًّا في العالم الذين خضعوا لفحوص الطب النفسي، بمظهر الشخصية العادية التي لا يبدو عليها أيُّ سلوك سلبي، والأمر نفسه ينطبق على أولئك الذين ارتكبوا جرائم في الحروب والصراعات. وتطلق بنت نيويورك حنا أرندت، المُنظِّرة السياسية، على هذه الظاهرة اسم «استمراء الشر». وكانت أرندت هذه قد تابعت مجريات محاكمة أدولف إيشمان عام 1961م الذي أُدين بارتكاب جرائم حرب، والذي خضع لفحص عامٍّ من عدَّة اختصاصيين في الطب النفسي، فأجمعوا على أنه شخص طبيعي يتمتع بعقل سليم، ثم ذكرت -فيما بعدُ- في كتابها إيشمان في القدس: تقرير عن استمراء الشر ما نصه: «إن الاضطراب الذي يعانيه إيشمان يعانيه كثيرون، بيد أنهم لم يكونوا شريرين، أو فاسدين، أو منحرفين، أو قساة؛ إذ كانوا - وما يزالون-

عاديين جدًّا، ويعد هذا من وجهة نظر مؤسساتنا القانونية ومبادئنا القضائية الأخلاقية أكثر ترويعًا من الفظاعات كلها مجتمعة».

مما لا شك فيه أن وَسْم مَن يستغلون عقول الآخرين، في الأحوال كلها، بالأشخاص العاديين، بمَن فيهم أولئك الذين يرتكبون أبشع أنواع الفظاعات ضد الإنسانية؛ هو أمر مزعج كثيرًا. لكنه صحيح على أيِّ حال. فلنلقِ نظرة على النرجسية بوصفها مثالًا على الصورة غير المألوفة للسيطرة على العقل التي تمثّلها صناعة الترفيه لدينا، ولنتذكر ما حدث لفرانك سيناترا في فيلم المرشح المنشوري The Manchurian Candidate، أو تلك السيدة المثيرة القاتلة التي حظيت بعبارات الإعجاب والإثارة لتغتال في نهاية المطاف أحد أعضاء مجلس الشيوخ. فأحيانًا، تجري أحداث المعركة المناهضة للسيطرة على العقل في مكان أقرب من هذا كثيرًا: مكان طبيعي جدًّا حميمي، وقد يحدث هذا أحيانًا بالقرب منك، حتى في منزلك... وسط أسرتك.

الفصل الثاني

الطقوس والشعائر: السيطرة على العقل في الماضي

«يؤكِّد علماء الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) أن للطقوس صلة وثيقة بالتحوُّل، فالطقوس التي نمارسها للاحتفال بالزواج، والمعمودية، وتنصيب رئيس ما، هي طقوس معقَّدة جدًّا؛ لأننا نربط ممارستها بأحداث رئيسة في الحياة، واجتياز مرحلة حرجة من حياتنا؛ أي إننا نربطها بما يطرأ عليها من تحوُّل».

أبراهام فيرجيس

«من الواضح أن الطقوس والتضحيات قد تكون وسيلة لجمع الناس على صعيد واحد، وقد تكون المجموعة التي تمارس الطقوس وتقدِّم القرابين مميزة عن غيرها من المجموعات التي لا تمارس تلك العادات والتقاليد، بيد أنه من غير الواضح سبب مشاركة الدين في ممارسة الطقوس، وكذا سبب جلب الآلهة، والأرواح، والحياة الآخرة، والمعجزات، والخلق الإلهي للكون... لممارسة الطقوس».

بول بلووم

من الثابت أن الطقوس في الثقافات القديمة كانت تمارس للسيطرة على السلوك، ومعتقدات الآخرين، وطريقة التفكير وتغييرها، وكانت أيضًا تمارس كثيرًا للتعبير عن الاعتقاد بما تريده الآلهة من تقديم فروض الولاء

والطاعـة والخضـوع التـام. وبالمثـل فقـد طالـب أيضًـا جمع غفير مـن رموز السلطة البشرية بالشيء نفسه.

وتجدر الإشارة إلى إن أسلافنا لم يمارسوا الطقوس للعبادة فقط، وإنما وضعوا قواعد واتفاقات معينة ليتبعها الآخرون، وكانت هذه القواعد موجَّهة أحيانًـا إلـى الجماهـير على صـورة مذاهب وعقائـد دينية، ويعد هذا نفسـه نوعًا من غسـيل المخ الطائفي الذي سنناقشـه بشـيء من التفصيل في فصل لاحق؛ نعم، لقد كانت الطقوس وسيلة لإضفاء الطابع الرسمي على المعتقد، والفهم، والمعرفة، وحتى التوقعات. وفي كثير من الأحيان فإن الطقوس كانت تفضـي إلـى ظهـور هوية جماعيـة، فضلًا عـن الهوية الفردية، ما يـؤدي إلى اكتساب الجمعيات السرية شعبية كبيرة، مع عضوية مختارة بعناية.

الطقوس

لفظـة (طقوس) مشـتقة من كلمة لاتينيـة تعني: طريقة معينـة أو مثبتة لأداء شـيء معـين، كمـا هـي الحـال في العـادات والتقاليـد؛ فالطقوس إذن مجموعـة مـن الأنشـطة، تشـمل: الإيمـاءات، والألفـاظ المقـروءة، والرموز، والأعداد، والحركات... .

ومعلـوم أننـا نمارس الطقوس طـوال الوقـت. بـدءًا بالمـآتم والزيجات، وانتهاءً بالقسـم أمام القاضي، ولكن لا ينبغي أن تُمارس الطقوس في مكان سري، ترى كاثرين بيل؛ العالمة الأمريكية المتخصصة في الدراسات الدينية والشـعائرية، مؤلِّفـة كتـاب نظريـة الطقوس Ritual Theory، وممارسـة

الطقوس: النظريات والأبعاد Ritual:Perspectives and Dimensions أن الطقوس تتميز بالآتي: الالتزام بالشكليات، والمذهب التقليدي، والصمود، وحكم القانون، والرمزية المقدسة، والأداء.

تقول بيل: «تعتمد الطقوس مصطلحًا محدَّدًا ومنظَّمًا من التعبيرات التي تفضي إلى أسلوب رسمي قادر على جعل التمرد ضربًا من المستحيل، ويؤدي الالتزام بالشكليات إلى تثبيت مبدأ ممارسة الطقوس، ثم القبول والامتثال، ويدعو المذهب التقليدي إلى التمسك بالأحداث التاريخية، مثل تقديم واجب الشكر أو طقوس السنة الجديدة، وربما تكون تلك طقوسًا رسمية أو غيرها، ويؤدي الالتزام إلى إنشاء نظام مادي، كما هي الحال في الوصف الدقيق لأعمال الطقوس، وغالباً ما يُنظر إليها في الطقوس الجماعية».

على صعيد آخر، نجد أن تطبيق القانون يعد أيضًا أحد أشكال الطقوس التي تحمل طابعًا رسميًّا، يشمل قواعد محدَّدة لفرض النظام على سلوك الجماعات، وغالبًا ما يكون هذا مفيدًا في زمن الحرب.

تدعو الرمزية المقدسة إلى الالتزام بالمبادئ الدينية والغيبية، باستخدام كائن أو رمز معين، يؤدي إلى فرض الولاء والطاعة، مثل العلم الأمريكي، أو وسام الشرف. ويضيف الأداء طابعًا نظريًّا للطقوس، مثل الغناء والرقص، للمساعدة على تشكيل تجارب المشاركين فيها، فضلًا عن الذين يشاهدونها.

وبوجه عام، تمارس الطقوس التي تجمع بين واحد أو أكثر من هذه الخصائص في المناسبات الآتية:

- اجتياز مرحلة من الحياة إلى أُخرى، مثل: الزواج، والختان، والضربة الأُولى للكرة. والاحتفاء بالإخوة والأخوات والأصدقاء.
- الاحتفال بأيام السنة التي تشير إلى تاريخ أو وقت محدد، مثل: تناول البازيلاء السوداء العينين يوم الاحتفال بالسنة الجديدة. والالتفاف حول طاولة الاحتفال بالعيد؛ تعبيرًا عن الشكر والامتنان.
- تقديم الأطعمة في المناسبات الدينية.
- الاحتفال بالمهرجانات وطقوس الصيام، والاحتفالات الدينية، والتقاليد الروحانية، والاحتفالات التي تكون مناسبة للقاء الناس بعضهم بعضًا.
- علاج أحد أفراد المجتمع، بما في ذلك علاج شخص معين بالرقية الشرعية، ممن يُعتقد أن به مسًّا من الجنون.

أمَّا أكثر جوانب الطقوس والشعائر أهمية، فيكمن في قدرتها على تأسيس نوع معين من السيطرة الاجتماعية، وتنظيم التفاعلات الاجتماعية للفئة المعنية وترسيخها. وتساعد الطقوس أيضًا على حفظ النظام وسط حالات الفوضى، حيث يوجد غالبًا دور يؤديه الأفراد يُعزِّز من وظيفة الجماعة. ولمَّا كانت الطقوس شكلًا من أشكال النظام، فإنها تعمل أيضًا على تهذيب السلوك العام ليتناسب مع حدود النظام المطلوب، ويعد أيُّ شخص ينتهك قوانين الطقوس، أو يرفض المشاركة في ممارستها متمردًا أو عدوًّا، يتلاعب برغبة البشر، وينتمي إلى عصابة ما.

وفي المقابل، تمارس الطقوس بوصفها نوعًا من التأديب أو العقوبة، كما فعل الكهنة في العصور الوسطى؛ إذ كانت أوامر الرهبان تحتم اتباع

الأنظمة الصارمة، ومَن لا يحترم تلك الأنظمة والقوانين من الكهنة كان يدفع الثمن باهظًا... لحد يقترب من إجهاد الجسد والروح معًا.

وفي حالات أُخرى، تمارس الطقوس توبة من اقتراف الذنوب وارتكاب الخطايا مرارًا وتكرارًا، شرط أن يُقرِّر أحد رموز السلطة أن الراهب قد ارتكب تجاوزات داخلية وخارجية؛ بغية تدريب الرهبان على السيطرة العاطفية والجسمية، عن طريق ممارسة الطقوس باستمرار.

تجدر الإشارة إلى أن ممارسة الطقوس تؤدي إلى الإحساس بروح الجماعة، أو الانتماء إلى هذه الجماعة أو تلك، مما يُسهِّل السيطرة على الفرد. ولكن، هل يعد هذا حقًّا سيطرة على العقل؟

طاعة الآلهة

تميزت الديانة المصرية القديمة بأنها كانت تنظر إلى النوايا والأهداف جميعًا بوصفها عقيدة يجب اعتناقها بدافع الرغبة في التفاعل مع الآلهة، وذلك بممارسة طقوس محدَّدة. لكن هذا قد لا يبدو نوعًا عاديًّا من أنواع السيطرة على العقل. وبكل تأكيد، لا يمكن مقارنته بالتجربة التي تجريها الحكومة على الضحايا الأبرياء، بيد أن ممارسة الطقوس هي حتمًا صورة من صور تعديل السلوك، شأنها في ذلك شأن سائر المذاهب الدينية التي تهدف إلى حمل مجموعة معينة من البشر على الاعتقاد والتصرف بطريقة محدَّدة، كما كان متَّبعًا في نشر المعرفة وتأصيل الحكمة.

كان هذا النشاط الشعائري الطائفي حاضرًا في الثقافات العتيدة جميعها، بما في ذلك الرومانية، والإغريقية، وثقافات أمريكا الوسطى؛ إذ

أُنشئ هيكل على هيئة تسلسل هرمي من الكهنة، بل حتى الكاهنات: بغية إنشاء النظام، وفصل مستويات الشرف والحكمة، ومعرفة التنجيم من الطبقات الدنيا التي لا تُقدِّر قيمة المعلومات. ليس هذا فحسب، بل جرى تنظيم الآلهة داخل هياكل هرمية التسلسل، مع طوائف أولية وثانوية لتكريم مختلف الآلهة حسب الأهمية والضرورة.

من جانب آخر، كانت الآلهة ترى أن الرجال والنساء الذين ينتمون إلى الطبقة الدنيا، والذين يكونون دائمًا على العمود المزين برسوم طوطمية[1] لديهم عدد أقل من الأزهار والأتباع، وكذلك من رجالات الصحافة، وأنهم يسيطرون على السلطة المحلية بدرجة أكبر. أمَّا الكبار فيحظون بشرف الطوائف المختارة، وقد شارك مزيد من الأشخاص في ممارسة تلك الطقوس على نطاق إقليمي بدرجة أكبر.

من الملاحظ أن هذا التصرف ماثل للعيان في الطوائف الدينية الحالية؛ إذ ينشئ زعماء الطوائف الدينية هيكلًا هرميًا بين أتباعهم: حفظًا للنظام. ويشيع مثل هذا الهيكل الهرمي في أنظمتنا العسكرية والحكومية والقضائية التي تبدو في الغالب جزءًا من تلك الطقوس نفسها، على هيئة حوكمة وسلطة.

من جهة أُخرى، فقد عُرِفت تلك الطوائف القديمة بعباداتها السرية أو الباطنية؛ إذ كان أتباع هذه الطائفة أو تلك يمارسون بعض الطقوس

(1) الطوطم: شيء مثل الحيوان أو النبات، يُتَّخذ رمزًا للأسرة أو العشيرة، ويطلق على الأسرة أو العشيرة التي يجمع بين أفرادها رمز مشترك. المترجم.

الخاصة -ربما كانت في عُرْفنا اليوم شيئًا همجيًا عنيفًا مستهجنًا- تكريمًا لإلههم المختار.

يُذكَر أن القرابين كانت من البشر والحيوانات وطقوس التعذيب، وكان الكهنة والأتباع يُعبِّرون عن الجوانب المظلمة للآلهة والبشر بتلك الممارسات السرية الرمزية نوعًا ما التي كانت ترمز إلى دورة الميلاد، والحياة، والموت والبعث. وكان يُنتظر من الأتباع تنفيذ كل ما يُطلَب إليهم، ولا سيما طلبات الآلهة، والتخلي عن السلوك الفردي من أجل توحيد التفكير الجماعي.

وفي المقابل، كانت العديد من الطوائف زمن الإمبراطورية الرومانية (قبل ظهور المسيحية) تستخدم الطقوس والمعتقدات الوثنية في صورة مهرجانات، واحتفالات تقام على شرف الآلهة في الطبيعة، مثل الآلهة ساتورنيا، وحتى الآلهة التي تمثّل العناصر المظلمة للتجربة الإنسانية؛ كل ذلك بقصد تشريف القوى التي تقف خلف الحياة والتدمير؛ فقد عُرفت طائفة الإله دينوسوس في التاريخ الإغريقي القديم، بممارساتها الأكثر انحلالًا، حتى تلك المروعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى التي تصل أحيانًا إلى حد الجنوح، وممارسة طقوس الشنق.

وعلى النقيض من ذلك، فقد اشتمل تكريم الإله أولمبي على الأشياء الدنيوية، مثل: تقديم الفواكه والعصائر قرابين، وشرب كميات كبيرة من العصائر؛ إذ كان الإله دينوسوس هو إله الخصب والعصائر، بيد أن أولئك الذين قرَّروا الاحتفال بمهرجان الإلهة أنثيستريا في مدينة أثينا، ذهبوا أبعد من ذلك بكثير؛ ففي اليوم الثالث من أيام المهرجان، كانت بعض النسوة

(يُعرَفن باسم أليتايدز تيمنًا باسم أليتيز. وهي شخصية أسطورية شنقت نفسها حسب أسطورة إيكاريوس) يشنقن أنفسهن من حبال تتدلى من أعمدة خشبية: تجسيدًا لمعاناة المسكينة أليتيز وموتها. والحقيقة أن الشنق كان عملًا رمزيًا، لا تفقد النسوة حياتهن بسببه، وكان الهدف منه إظهار إخلاصهن للآلهة. ورغبتهن الأكيدة في التصرف بطرائق معينة ترسخ المعتقدات الحالية. ومع هذا فثمَّة طوائف اليوم يزهق أعضاؤها أرواحهم حقًّا في كثير من الأحيان؛ امتثالًا لبعض طقوسهم.

كانت الإلهة الفريجية[1] كيبيل ترمز إلى الخصب والطبيعة، وكانت أيضًا تعد أُم الإله دينوسوس، حسب التاريخ الإغريقي القديم الذي كان يرى فيها أُمًّا عظيمةً للآلهة. أمَّا الاحتفاء بها فكان عن طريق الانغماس في الحفلات الماجنة، وحتى تشويه الذات. وما إن يبلغ الصخب مرحلة الإثارة التي ترقى إلى مستوى التطرف المحموم، حتى يشرع المريدون في جلد نفسهم بسيور مصنوعة من الجلد. أمَّا الكهنة يدهنون زخارف المهرجان بدمائهم... فتأمل عزيزي القارئ، أيُّ احتفال محموم هذا الذي يؤدي إلى هذا العنف كله، ويلحق الأذى الجسيم بالنفس؟ وعلى كل حال، فإن الناس في العبادة يفقدون السيطرة على عقولهم بمنتهى السهولة.

---

(1) فريجيا: بلاد قديمة تقع في الجزء الغربي من وسط آسيا الصغرى، وفد إليها الفريجيون، وهم شعب هندي أوروبي، أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وما تزال آثارهم ماثلة إلى اليوم، في القبور والهياكل التي نحتوها في الصخر بكثير من البراعة. اشتُهر الفريجيون بصنع الأدوات المعدنية وحفر الخشب، وقد اتخذوا من غورديوم عاصمة لهم. وفي عام 546 ق.م سيطر عليها الفرس، ثم سيطر عليها المقدونيون عام333 ق.م، ولم تلبث أن سقطت في أيدي الرومان عام 133 ق.م. المترجم.

والآن لنلقِ نظرة على طقوس الشرق الآن، ولنتعرف ما يحدث في طائفة الغوري، وهي طائفة هندوسية ذات جذور قديمة، ضاربة بأطنابها في عمق التاريخ. يعبد أتباع هذه الطائفة الإله شيفا الذي يمثّل أحد الأشكال الرئيسة للآلهة في عقيدة سمارتا الهندوسية، وهو الإله المدمر المحوّل للأشياء، بقدر كبير من الحماس.

يُعتقَد أن أتباع هذه الطائفة قد انفصلوا عن نظام كابايكا في القرن الرابع عشر، ومن الطقوس المثيرة حقًّا للاشمئزاز التي يمارسونها لتكريم الإله براهمان: الشر، والموت، وأكل لحوم الحيوانات المتعفنة وروثها، كل ذلك لكي يتحوَّلوا إلى أشخاص مستنيرين، حسبما تقضي به تعاليمهم، ثم يختتمون طقوسهم بالتهام الجثث الآدمية المتحللة. بدافع من قوة العقيدة الدينية، لحمل الناس على أداء بعض الأعمال الجنونية البشِعة حقًّا، فيما يخضعون لتأثير سيطرة عقول القوى التي يرغبون في كسب حظوتها أو الاحتفاء بها.

وللتذكير مرة أُخرى، فإننا سنستعرض موضوع الطوائف الحديثة لاحقًا. ولكن، تجدر الإشارة هنا إلى أن الفكرة الأساسية تكمن في سماح أسلافنا بتعديل معتقداتهم وسلوكاتهم وفقًا لرغبات الآلهة التي كانوا يبدون إعجابهم بها أو خشيتهم منها، وهم بذلك لا يختلفون كثيرًا عن أولئك الذين تُغسَل أدمغتهم من وسائل الإعلام، والجماعات الدينية والسياسية، وحتى الحكومات، في محاولة لتحقيق هدف محدَّد في السلوك الفردي والجماعي، أو حتى على صعيد الأمة كلها.

الجمعيات السرية

دأبت الجمعيات السرية، على مَرِّ التاريخ، مثل: منظمة فرسان الهيكل[1]، والمنظمة الماسونية[2]، وجمعية كوكلوكس[3]، وغيرها من الجمعيات والمنظمات التي تعمل تبعًا لنظام الرادار والطرائق الشعائرية المنظمة المتقنة؛ دأبت كلها على دمج مختلف أنواع السلوك المعدل، لحمل الأعضاء والمريدين على السير وفق الهدف المرسوم. ويعد هذا الإجراء جزءًا لا يتجزأ من نظام الجمعية السرية الذي لا يراعي أيَّ اعتبارات أُخرى، مثل: الزمالة في كلية جامعية، أو عدم الانسجام مع ما يؤمن به الأعضاء والمريدون من قيم ومُثُل، بل ربما يتطور الأمر إلى أكثر من ذلك. فيُطلَب إليهم تغيير نظرتهم الشاملة تجاه العالم، وارتكاب أعمال بشعة تتنافى مع قيمهم، وتبني نظرية مختلفة تمامًا، مثل: تأييد التفرقة العنصرية، والتمييز على أساس الجنس، والاستغلال، والعدوان، والعنف، والاعتداء، وإذلال النفس والآخرين.

وسواء تعلق الأمر بتعاطي المخدرات والجرعات الدوائية التي تُحضَّر لتغيير الوعي، فثمَّة نوع من الحرمان الحسي، والإجهاد البدني والعاطفي، أو التلاعب النفسي الذي يستخدم بهدف تطهير المريدين والأتباع وتنقيتهم

(1) فرسان الهيكل: منظمة دينية عسكرية، أُنشئت عام 512هـ (1118م) أو عام 513هـ (1119م)، بهدف حماية الحجاج والقبر المقدس. المترجم.

(2) الماسونية: مبادئ البنائين الأحرار وممارساتهم التي تنطوي على مشاركة وجدانية. المترجم.

(3) كوكلوكس: جمعية سرية إرهابية أمريكية، أنشئت في الولايات الجنوبية عام 1283هـ (1866م)، بُعَيد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، بهدف إخضاع الزنوج لسياسة البيض بوسائل إرهابية. وقد عُرفت بعدائها الشديد للزنوج واليهود والكاثوليك والأجانب. المترجم.

من الناحية الرمزية: خدمة للمؤسسة الدينية. تمامًا مثل الطفل الذي يُعمَّد بغسله في حوض من الماء المقدس ليصبح من معتنقي الديانة المسيحية. وبالعودة مرة أُخرى إلى المريدين في العهد الروماني القديم، والعهد الإغريقي، والطوائف المصرية، نلاحظ أن الطقوس والشعائر كانت تمارس للارتقاء بالشخص إلى مستوى آخر من الإدراك الواعي؛ بغية الالتزام - رمزيًّا- بالإله المختار. ويمكن تحقيق هذا الهدف بدقة، عن طريق حرمان المريد من التجربة الحسية، أو إغراقه فيها، وفي كلتا الحالتين، فإن المريد يصل إلى الحالة العقلية المطلوبة.

ارتبطت الجمعيات السرية في كثير من الأحيان بعبادة الشياطين، ما أدى إلى ظهور صنوف شتى من ادعاءات الإساءة المروعة، والتضحية بالأطفال، والاستغلال الجسدي، وذبح الحيوانات، والتضحية بالكبار أيضًا... كل ذلك في سبيل خدمة بعض الآلهة، والسيطرة - في الوقت نفسه- على الأتباع، عن طريق بث الرعب في أنفسهم: خوفًا من العقوبة.

وبوجه عام، يمكن لأيٍّ إنسان الانتماء إلى جمعية سرية، ولكن يتعين عليه أولًا، قبل كل شيء، أداء قسم الولاء التام للنظام العام، حتى لو تعارض ذلك مع كرامته، وقيمه الشخصية، وواجباته الأسرية.

وفيما يتعلق بالسيطرة على العقل، نجد أن تلك الولاءات القاتمة تفوق حتى مبادئ الماسونيين الأحرار نفسها، والأدهى من هذا كله، أنها ربما تنطوي على أكثر الأمور غموضًا.

والحقيقة أن أصل الماسونية المتواضع - التي يشعر أتباعها بكثير من الفخر والاعتزاز، لما يضطلعون به من عمل- قد تحوَّل إلى أداة قوية تمارس الطقوس، وتستخدم الرموز للترويج لأجندة خفية في العالم أجمع.

تعد الجمعيات السرية طوائف متفرقة تعمل بطريقة خفية جدًّا، بحيث لا تفصح عن أهدافها الصريحة، أو أجندتها، أو قائمة واجبات أعضائها، مقارنةً ببقية الطوائف والمنظمات التي تبحث غالبًا عن الدعاية لكسب مزيد من الأتباع الجدد.

يُذكَر أن الطقوس حظيت بأهمية كبيرة في العصور الوسطى، لما لها من تأثير في حمل الجماهير على الالتزام بالنهج المستقيم، حسب رؤية هذه الطائفة أو تلك، والمعتقدات الدينية والسياسية الصارمة، فضلًا عن الأجندة الدينية والسياسية، لكنها مع هذا لم تكن الطريقة الوحيدة المستخدمة لصرف شخص ما عن عمله.

وبالطبع، كانت الأمراض العقلية منتشرة في تلك الحقبة بصفة دائمة، وكان الناس يظنون أن كل مَن يعاني انفصام الشخصية أو اضطرابها تتلبسه الشياطين أو الأرواح الشريرة. وكان العلاج يتضمن إحداث ثقب في جمجمة المصاب، فيما يُعرَف بالقص بالمنشار؛ بغية تسريح الجني والسماح له بالهروب، وأحيانًا تُدخَل أداة حادة في المخ، لمساعدة الروح الشريرة على الخروج، فيما يُعرَف باستئصال فص المخ. وليس مهمًّا إذا تسبَّب ذلك في إصابة المريض بتلف دائم في المخ، بل الأهم أن سلوكه الشاذ يخضع الآن للسيطرة التامة.

استخدام أسلوب التعذيب

في العصور الوسطى، كانت النساء اللاتي يرفضن الانصياع للقواعد والتقاليد اليومية يخضعن لإجراءات طرد الأرواح الشريرة التي تنفِّذها مجموعة من الرجال وفق تعاليم الكتاب المقدس، فيما يُعرَف بمطرقة الشر الذي سُنَّ عام 1484م، واشتمل على أنواع صارمة من المساءلة وطرائق التعذيب الخاصة، للحصول على اعتراف أولئك النسوة. كانت هذه الطريقة تمثِّل أداة محاكم التفتيش التي كانت شائعة طوال العصور الوسطى، والتي استُخدِمت وسيلةً لذبح النساء والرجال والأطفال الأبرياء الذين ينتهي بهم المطاف إلى الاعتراف بما لم يقترفوه من ذنب.



مخلعة التعذيب التي كان الجسم يبسط عليها، في برج لندن، تصوير ديفيد بجورقين. المصدر: ويكيميديا.

وقد اشتملت أدوات التعذيب وقتئذٍ على كراسي التقييد، والأَسِرَّة الخشبية، والعلاج بالصدمات، والعزل، والحرمان الحسي، فآتت أُكلها، وتعدَّى دورها طرد الشياطين إلى انتزاع اعترافات كاذبة، ما تسبَّب في إصابة كثير من الضحايا الأبرياء بنوبة من الجنون.

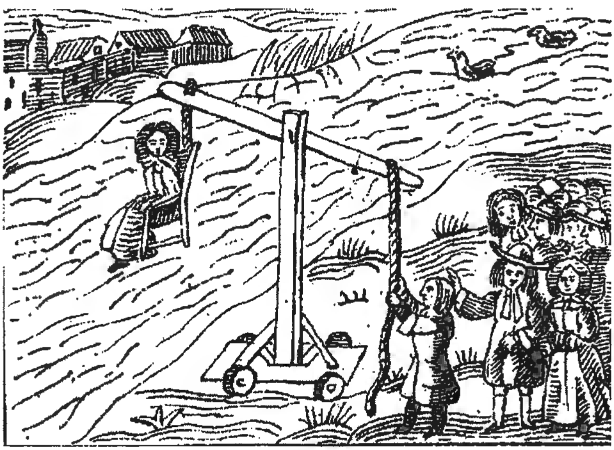
أمَّا العلاج بالصدمة فاشتمل على الصدمات الكهربائية، ووضع عصابة على العينين، ثم الغمس في أحواض مليئة بالمياه، وإصدار أصوات مزعجة جدًّا، أو وضع الضحايا الأبرياء على كراسي دوارة، فيصابون بالغثيان، ثم يفقدون وعيهم.

ومع كل ما تقدَّم، فقد كان يُنظَر إلى العنف والتعذيب بوصفهما طرقًا طبيعيةً مقبولةً تمامًا لتخليص النساء من الأرواح الشريرة الداخلية. حتى لو كان استخلاص علاج من الأعشاب الطبيعية هو الذنب الوحيد الذي كُنَّ قد اقترفنه.

وفي الوقت نفسه، لم تكن ثمَّة ضرورة مُلِحَّة لاعتماد العنف في كثير من الأحيان: نظرًا إلى سهولة انتزاع الاعتراف الكاذب من كثير من الأشخاص الأبرياء، في ظل التهديد والمساءلة الدائمة الفظَّة التي تجعل النازيين يشعرون بالفخر. والحقيقة أن تلك الوسائل ساعدت على تحديد أساس للمساءلة، اعتمادًا على أساليب التعذيب والصدمات المعتمدة من الحكام الديكتاتوريين والطغاة من رجال الدين والسياسة.

توصف الطرائق والأدوات التي استُخدِمت في التعذيب خلال العصور الوسطى بالوحشية في أفضل الأحوال، والمرعبة في أسوئها؛ إذ ابتُكِرت العديد من الوسائل لقتل الضحية وإزهاق روحها، أو جعلها في حالة بين الموت والحياة، أو قل أقرب إلى الأُولى منها إلى الثانية. وكانت بعض تلك الطرائق تجلب السعادة لمَن يمارس التعذيب، بسبب ما يفرضه من سيطرة وسطوة على الضحية. وهذه بعض أدوات التعذيب المفضلة في تلك الحقبة:

- التعذيب بالتابوت: توضع الضحية داخل تابوت ساعات عدَّة، أو حتى أيامًا، من دون طعام أو شراب.
- التعذيب باللوح الخشبي: يشد الوثاق على الضحية، مع بسطها على طاولة، حتى تكاد أوصالها تتمزق.
- الشوكة الإسبانية: يُمزَّق لحم الضحية بها إربًا إربًا في أثناء جلسات محاكم التفتيش الإسبانية.
- التعذيب بالماء: نوع بدائي من أنواع الإغراق حتى الاختناق، وهو ما يزال يُستخدَم حتى يومنا هذا؛ إذ تُغطَّس الضحية داخل بحيرة أو حوض مائي، وهي مكبلة ومقيدة.



امرأة تُعذَّب بإغراقها في النهر، وهي مشدودة الوثاق على كرسي التشهير في القرن السابع عشر[1].

---

(1) كرسي التشهير: كرسي يوثق به النساء السليطات والتجار الغشاشون...، للتشهير بهم ورجمهم بالحجارة أو تغطيسهم في الماء، كما يظهر في الصورة. المترجم.

- المخنق: طوق حديدي استُخدِم غالبًا في إسبانيا للإعدام خنقًا.
- التعذيب بالشوكة: اقتصر هذا النوع من التعذيب على المنشقين عن عقيدة معينة، وقد استُخدِم في العصور الوسطى ومحاكم التفتيش الإسبانية.
- التعذيب بالدولاب: تُقيَّد الضحية بدولاب خشبي كبير يدور ساعات عدَّة، أو أيامًا في بعض الأحيان، مما يفضي غالبًا إلى الوفاة.
- التعذيب بالنار: طريقة مفضلة للتعذيب في أثناء محاكمة الساحرات وحرقهن، وفيها تُصفَّد الضحية، ولا سيما النساء والأطفال، إلى أوتاد خشبية، ثم تُحرَق.
- التعذيب بسرير جوداس: يربط الضحية بمقعد مثلث الشكل، ثم يوضع على خازوق حتى الموت.

تمثِّل الأدوات السابقة نزرًا يسيرًا من قائمة طويلة من الوسائل التخيلية التي دَمَّرت بوساطتها الرموز الدينية والسياسية في أثناء عصور الجهل والظلام العقول، والأجساد، وأرواح الأشخاص الذين يعتقد أنهم خطرون؛ إذ تكمن الفكرة أساسًا في انتزاع الاعتراف بالقوة والسيطرة على السلوك، أو قتل الشخص صراحةً متى كان ذلك مناسبًا للعمل القذر؛ فقد كان يُعتقَد أن الشخص الضحية متهم بارتكاب ذلك العمل. وبالمثل، فما نزال حتى اليوم نستخدم نسخًا معدلةً من تلك الأدوات، في الأجنحة والمؤسسات النفسية، بحجة السيطرة على السلوك، وتقييد المختلين عقليًا. وثمَّة سؤال هنا نبحث عن إجابة شافية له: مَن مضطرب العقل الحقيقي: الشخص الذي يخضع للتعذيب، أم ذاك الذي يمارسه؟

ثمَّة أوقات مناسبة تُطبَّق فيها وسائل السيطرة على العقل، وتهذيب السلوك على نحو جيد، مع أنها تتسم بالفظاظة والهمجية، وتفتقر تمامًا إلى الإتقان والتجويد، حتى إن الضحية تفارق الحياة، فيحدث أثر من السيطرة نيابةً عن أولئك الذين يمارسون التعذيب. فهل توجد وسيلة أفضل من التعذيب والقتل لتخويف المجتمع، وإعدام أولئك الذين يُغرِّدون خارج السرب؟ هل توجد طريقة أفضل من الخوف، والخوف من الألم، للتحكم في شخص معين، ومشاهدة معاناة الآخرين والموت؟

نستعرض في الفصل القادم كيفية انتقال الخوف من مجال التحكم في السلوك الشخصي إلى مجال الحرب الأرحب؛ إذ لم يعد يُعتقَد أن الضحايا من النساء والأطفال مصابون بمس من الجنون أو الشياطين مثل الساحرات، وإنما يتم إعداد الرجال والنساء والأطفال ليصبحوا قتلةً وجنودًا متفوقين وجواسيس.

الفصل الثالث

البرامج الاستخباراتية والسيطرة على العقل

- برنامج (Artichokes)
- برنامج (Bluebirds)
- برنامج (Monarchs)
- مشروع (MKUltra)[1]

«إن أفضل جاسوس هو ذلك الذي لا يعرف أنه يعمل جاسوسًا...».

ألين باركر، حوافز للسيطرة على العقل البشري

«الأسـرار الصغـيرة فقط هي التـي تتطلب حماية، أمَّا الأسـرار الكبيرة فتبقى مصونة عن طريق التشكيك في صحتها من الجماهير».

المارشال مكلوهان

يتوافـر لدينـا في عالم اليوم متاجر يمكنك أن تشـتري مـن أحدها دمية بدائية في صورة دب، ثم تضيف إليها جميع أنواع التجهيزات والملحقات التي

---

(1) مشـروع (MKUltra): أحـد أهـم برامـج وكالة المخابـرات المركزيـة الأمريكية للسـيطرة على العقل. المترجم.

تريد. ويطلق على هذه العملية اسم طريقة تصميم الدب Build-A-Bear. ثمَّة عشرات الامتيازات في مختلف أنحاء العالم، ويمكن لأيٍّ طفل تصميم دميته المفضَّلة بطريقة متقنة، وفقًا للمواصفات التي يحبها ويفضِّلها؛ لذا كل ما عليك فعله هو دفع تكاليف المواد التي تستخدمها، ثم الفوز بدمية أحلامك.

يوجد أفراد كُثر في الحكومات والمجمعات العسكرية والشركات المتحدة (معظمنا يدرك اليوم أن تلك الجهات مرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا) حاولوا جاهدين عمل الشيء نفسه مع الناس: تجنيد الجاسوس المثالي، وتجنيد القاتل المثالي، وتجهيز السلاح المثالي.

عصر مشروع (MKUltra)

كانت طريقة التحكم في العقل هي الخيار المفضل للعمل؛ فمنذ مطلع الخمسينيات وحتى أوائل السبعينيات كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية منهمكة في إجراء بحوث تُعنى بالسيطرة على العقل، فيما عُرِف بمشروع (MKUltra)، بهدف إلغاء الشخصية الحقيقية للفرد المعني، باتباع سلسلة من الممارسات التي تفضي إلى برمجة شخصيات متفرقة، موزعة إلى أقسام، ما يجعل الضحية مهووسة بأفكار معينة تُحدَّد سلفًا.

فاستنادًا إلى عدد من الوثائق السرية التي نُشِرت بعد إقرار قانون حرية المعلومات، أصبحنا ندرك الآن أنه، إضافة إلى دائرة العمليات الخاصة لسلاح الجيش الكيميائي، ثمَّة قطاع متخصص في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يُعرَف باسم دائرة المخابرات العلمية، أجرى مجموعة متنوعة من

التجارب بمساعدة عشرات الكليات، والسجون، والمؤسسات والمستشفيات. شملت السيطرة على العقل، وتعديل السلوك، واستخدام عقار الهلوسة، والتعرُّض للإشعاع الكيميائي، والحرمان الحسي، والانتهاكات الجسدية، والتعذيب. وللأسف الشديد، فقد كان الكثير من ضحايا تلك التجارب أطفالاً.

لقد أصبح هذا المشروع ذائع الصيت في عصر تجارب الاستغلال والعدوانية التي تمارس على البشر، بحجة الكيانات والمؤسسات الحكومية و (أو) العسكرية التي تعتمد مناهجها الأساسية على التعذيب وغسيل المخ، والتي يدرسها عملاء الحكومة الأمريكية على أيدي علماء النازية السابقين الذين استُقدِموا إلى الولايات المتحدة الأمريكية إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية، وذلك ضمن مشروع «مشبك الورق»[1] الذي أُقِرَّ مع مشروع (MKUltra) جنبًا إلى جنب ضمن مشروعات استخباراتية أُخرى عُرِفت باسم (Bluebird, Artichoke, Delta, Span, Chatter, Monarch).

كانت تلك كلها أسماء وهمية لتجارب تهدف إلى السيطرة على العقل وتكييف السلوك، التي ما كان ينبغي لها أن تحدث مطلقًا، ولكن للأسف الشديد. فقد حدثت تلك التجارب هنا في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ولدينا شهود عيان على الكثير من الأبرياء الضحايا الذين خضعوا لتلك التجارب، إضافة إلى الوثائق التي أصبحت في متناول أيدي الناس كافة، والتي تُسلِّط الضوء على جانب مظلم حقًّا من سجل تاريخنا المعاصر: إذ تُظهر قدرة حكومتنا على إجراء تجارب كيميائية وبيولوجية، وحتى إشعاعية، للسيطرة

(1) مشبك الورق (Paperclip): برنامج استخباراتي أمريكي سري، هدف إلى استقدام علماء النازية عقب الحرب العالمية الثانية. المترجم.

على عقول أناس أبرياء والتحكم فيها، في سابقة تقشعر لها الأبدان، بل نجد أن الأمر أدهى من ذلك عندما تتضح لنا أهداف هذا السلوك المشين، التي تتمثَّل في تجنيد جواسيس، وآخرين لمكافحة التجسس، فيما يُعرَف بالتجسس المضاد، وجنود أشاوس، وقتلة مدربين؛ فعلى سبيل المثال، أُخضعت عقول مجنَّدي منشوريا لبرمجة معينة تُسهِّل عليهم تنفيذ عمليات القتل؛ فكل ما عليهم فعله هو تدمير الإرادة والعقول والشخصية، ثم إحلال إرادة وعقول وشخصية أُخرى بدلًا منها، وفق رؤية مُنفِّذي تلك التجارب البشعة.

وبالمثل، فثمَّة خلايا نائمة تُنفِّذ كل ما بُرمِجت من أجله وتدربت عليه، مضطلعة بمهام جد خطيرة، دونما أدنى تفكير فيما تفعله، أو قدرة على تذكر أيِّ شيء بعد تنفيذ المهمة، ويبدو أن هذا، إضافة إلى طرائق الاستجواب الفاعلة، هو الهدف الرئيس لهذا الاهتمام الشديد بالعقل البشري، وإجراء التجارب عليه؛ فإذا كان ممكنًا ممارسة مختلف صنوف التعذيب بغية الحصول على معلومات، فليس ثمَّة ما يمنع من تغذية العقل بمعلومات معينة، وبرمجته لجعل كل شيء طيَّ النسيان لحظة الانتهاء من تنفيذ المهمة.

تجدر الإشارة هنا إلى أن مشروع (MKUltra) والبرامج المرتبطة به قد صُمِّمت لمعرفة المدى الذي يمكن الوصول إليه في تدمير العقل البشري ومسخه، ثم إعادة بنائه لتنفيذ عمليات سرية، مثل تجنيد جواسيس أفضل ومقاتلين أشاوس لإلحاق الهزيمة بالعدو بطرائق حديثة مبتكرة، بدءًا بإعطاء الضحايا عقاقير الهلوسة، والتنويم المغناطيسي، والاستغلال الجسدي، وانتهاءً بالتعذيب البدني المتكرر؛ إذ أصبح ممكنًا اليوم تحسين

التقنيات التي اعتُمِدت في ألمانيا النازية في معسكرات الاعتقال، واستخدامها داخل أرض المعركة وخارجها لتحقيق مصالحنا الشخصية.

يحكي اسم مشروع (MKUltra) نفسه قصة؛ إذ يعني نسخة مطورة لمشروعات (Chatter, Bluebird, Artichoke) القديمة. فالحرفان (MK) يرمزان إلى كل مشروع يرعاه طاقم الخدمات الفنية في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. أمَّا لفظة (Ultra) فترمز إلى البرامج الاستخباراتية التي سادت إبَّان الحرب العالمية الثانية، والتي كانت تتمتع بأعلى قدر من السرية.

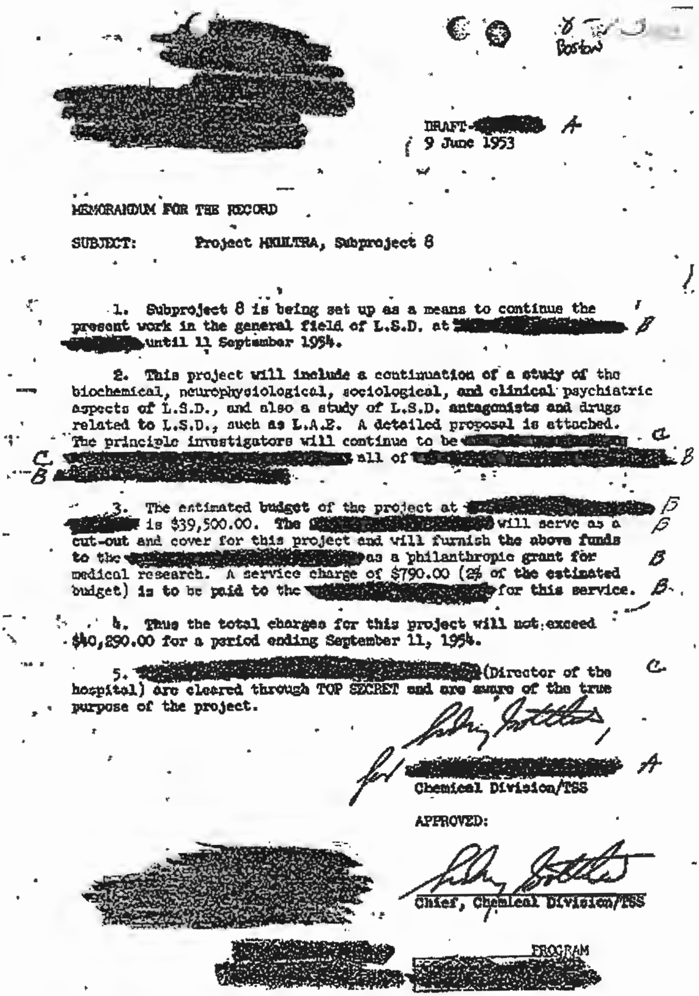
وكان آلان ويلش دولز (مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عام 1953م)، قد أمر ببدء العمل في مشروع (MKUltra) لتطوير عقاقير تساعد على السيطرة على العقل، واستخدامها في محاربة الأعداء، بمَن فيهم السوفيت، وذلك بعد علمه أن أفرادًا من الجيش الأمريكي خضعوا لاختبار العقاقير إبَّان الحرب الكورية. وقد اختير سيدني غوتليب لرئاسة المشروع الذي يشير كثير من الباحثين إلى أنه كان نتيجة مباشرة للخوف المفزع، وجنون العظمة الذي سيطر على الشيوعيين.

ولسوء الطالع، فقد أُتلفت معظم سجلات هذا المشروع بأمرٍ من ريتشارد هيلمز الذي كان رئيسًا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية عام 1973م. ولكن في عام 1977م، أظهر طلب مقدَّم بناءً على قانون حرية المعلومات نجاة عشرين ألف مستند سري من الإتلاف، فشُكِّلت إثر ذلك لجنة تحقيقات عُرِفت باسم (لجنة جيرج) نسبةً إلى رئيسها فرانك جيرج، عضو مجلس الشيوخ؛ للتحقيق في المزاعم التي تتهم وكالة الاستخبارات الأمريكية بإجراء تجارب بهدف السيطرة على العقل، واستخدام عقاقير

طبيـة للغرض نفسـه، وقد طلب مجلس الشيوخ إلـى بعض أعضائه تشـكيل لجنـة عُرِفت باسـم (لجنة اسـتجواب وكالـة المخابرات المركزيـة)، فعقدت جلسـة اسـتماع عام 1977م إثر إصدار الرئيس جيرالد فورد قرارًا تنفيذيًّا، يحظـر إجـراء تجـارب علـى البشـر باسـتخدام العقاقـير الطبيـة، من دون علمهم وموافقتهم.

وبعد مراجعة اللجنة وثائق مشروع (MKUltra) وما يتصل به من مزاعم، عثرت على أدلة دامغة تؤكِّد إجراء اختبارات مكثَّفة على المواطنين الأبرياء، ما أدى إلى وفاة أحدهم، وهو فرانك أولسون، اختصاصي الكيمياء الحيوية في الجيش الأمريكي، والباحث في شؤون الحرب البيولوجية، وقد ادَّعت عائلته أنـه أُعطي جرعات من عقار الهلوسـة مـن دون موافقته، بوصف ذلك جزءًا من برنامج تجارب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، بإشراف الكيميائي سـيدني غوتليـب، حيـث فـارق الحيـاة بعد أسـبوع واحد مـن تناولـه العقار، فاعتقـدت عائلتـه أنه اغتيل بسـبب اطلاعه على معلومات سـرية جدًّا، أدَّت إلى تصنيفه شـخصًا يُهدِّد الأمن القومي، ولا سـيما أنه ترك - قبيل وفاته- وظيفته المرموقة رئيسًـا لدائرة العمليات الخاصة، إثر أزمة ضمير أخلاقية تتعلق بتورطه في الحرب البيولوجية والمواد التدريبية المستخدمة في الاغتيال، فضلًا عن مشاركته العلماء النازيين في عملية مشبك الورق (Paperclip).

في بداية الأمر، قيل إنه انتحر بعد قفزه من نافذة في الدور الثالث عشر، بيـد أن تقرير الفحص الطبي الصـادر عام 1994م، إثر نبش القبر، أكَّد أن الوفاة كانت نتيجة جريمة قتل صريحة.



[redacted]

DRAFT-[redacted]
9 June 1953

MEMORANDUM FOR THE RECORD

SUBJECT: Project MKULTRA, Subproject 8

1. Subproject 8 is being set up as a means to continue the present work in the general field of L.S.D. at [redacted] until 11 September 1954.

2. This project will include a continuation of a study of the biochemical, neurophysiological, sociological, and clinical psychiatric aspects of L.S.D., and also a study of L.S.D. antagonists and drugs related to L.S.D., such as L.A.E. A detailed proposal is attached. The principle investigators will continue to be [redacted] all of [redacted]

3. The estimated budget of the project at [redacted] is $39,500.00. The [redacted] will serve as a cut-out and cover for this project and will furnish the above funds to the [redacted] as a philanthropic grant for medical research. A service charge of $790.00 (2% of the estimated budget) is to be paid to the [redacted] for this service.

4. Thus the total charges for this project will not exceed $40,290.00 for a period ending September 11, 1954.

5. [redacted] (Director of the hospital) are cleared through TOP SECRET and are aware of the true purpose of the project.

for [redacted]
Chemical Division/TSS

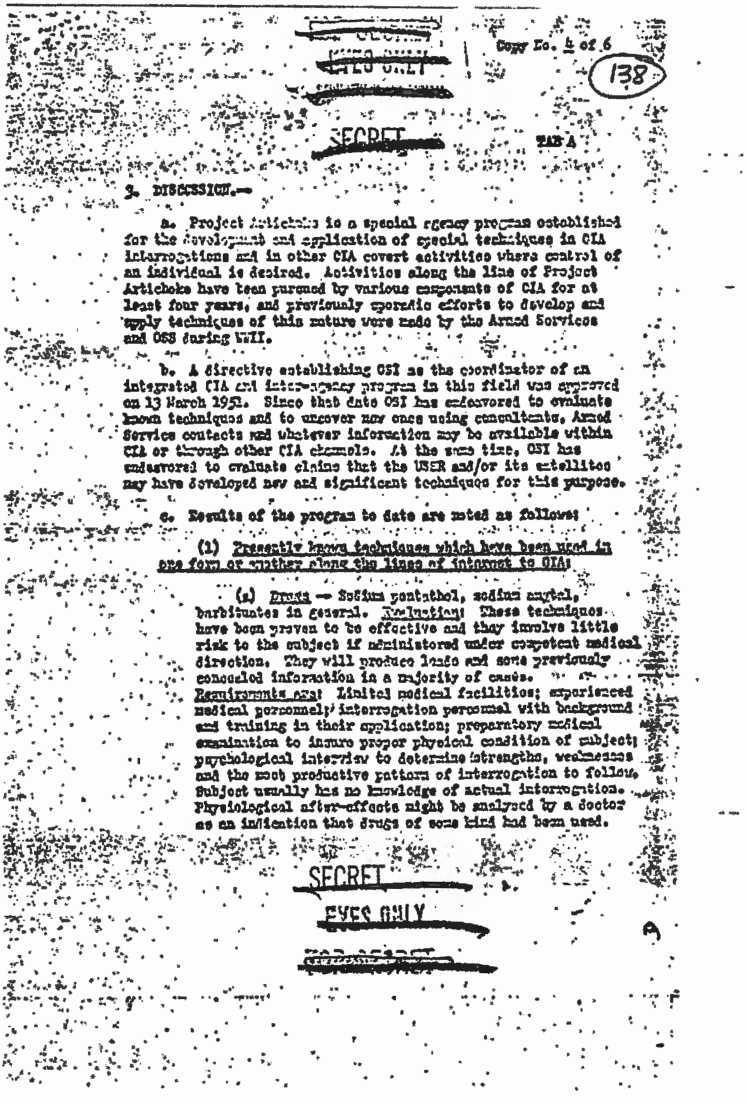
APPROVED:

[redacted]

Chief, Chemical Division/TSS

[redacted] PROGRAM [redacted]

صورة طبق الأصل لصفحة من ملفات (MKUltra) بعد رفع السرية عنها.



[redacted]

Copy No. 4 of 6

138

SECRET

TAB A

3. DISCUSSION.—

a. Project Artichoke is a special agency program established for the development and application of special techniques in CIA interrogations and in other CIA covert activities where control of an individual is desired. Activities along the line of Project Artichoke have been pursued by various components of CIA for at least four years, and previously sporadic efforts to develop and apply techniques of this nature were made by the Armed Services and OSS during WWII.

b. A directive establishing OSI as the coordinator of an integrated CIA and inter-agency program in this field was approved on 13 March 1952. Since that date OSI has endeavored to evaluate known techniques and to uncover new ones using consultants, Armed Service contacts and whatever information may be available within CIA or through other CIA channels. At the same time, OSI has endeavored to evaluate claims that the USSR and/or its satellites may have developed new and significant techniques for this purpose.

c. Results of the program to date are noted as follows:

(1) Presently known techniques which have been used in one form or another along the lines of interest to CIA:

(a) Drugs — Sodium pentothal, sodium amytal, barbiturates in general. Evaluation: These techniques have been proven to be effective and they involve little risk to the subject if administered under competent medical direction. They will produce leads and some previously concealed information in a majority of cases. Requirements are: Limited medical facilities; experienced medical personnel; interrogation personnel with background and training in their application; preparatory medical examination to insure proper physical condition of subject; psychological interview to determine strengths, weaknesses and the most productive pattern of interrogation to follow. Subject usually has no knowledge of actual interrogation. Physiological after-effects might be analyzed by a doctor as an indication that drugs of some kind had been used.

SECRET

EYES ONLY

9

[redacted]

صورة طبق الأصل لصفحة من ملفات (MKUltra) بعد رفع السرية عنها.

ويبدو أن وكالة المخابرات المركزية والجهات الأُخرى المتورطة في جرائم من هذا النوع، لا تشعر مطلقًا بتأنيب الضمير إزاء قتل أيٍّ من أعضائها، إذا رأت أنه ربما كشف سرًّا من أسرارها.

على صعيد آخر، عقدت الحكومة الكندية أُولى جلسات الاستماع، إثر الأخبار المروعة التي انتشرت في المجتمع بعد عرض فيلم **الضريبة الخامسة Fifth Estate** الذي فضح للجمهور تورط الحكومة الكندية، وإسهاماتها المالية في إجراء مثل تلك التجارب، ما اضطر الحكومة – في نهاية المطاف – إلى تسوية دعاوى المواطنين وديًّا، فدفعت مئة ألف دولار أمريكي لمئة وسبع وعشرين ضحية، وفق ما جاء في مقال (كارين قودوين) الذي نشر في مجلة (Sunday Times).

من جهة أُخرى، يرى كثير من مُنظّري المؤامرات أن هذه التجارب (يقال إنها انتهت رسميًّا في سبعينيات القرن الماضي) قد أشعلت فتيل ثورة عارمة بين العامة ووسائل الإعلام، إثر رفع السرية عن تلك المستندات التي أشرنا إليها آنفًا، إضافةً إلى جلسات الاستماع التي عقدتها الحكومة، ما يؤكّد استمرارها حتى اليوم، وإن كانت باسم الرادار وغيره من الأسماء المستعارة، لإخفاء صلتها بمشروع (MKUltra) الأصلي.

ليس ثمَّة شك في ظهور عشرات الكتب التي تناولت تفاصيل بزوغ شمس مشروع (MKUltra) . ولهذا لا نرى حاجة إلى إعادة سرد تلك التفاصيل. أمَّا سبب اكتسابها الآن هذه الأهمية الخاصة، فيعزى إلى الجمع بين جنون الشك والارتياب، والرغبة الجامحة في السيطرة على العدو، إضافةً إلى

جنـون العظمـة الجديـد الموجَّـه اليـوم إلـى الجماعـات الإرهابيـة والحـرب المستعرة في الشرق الأوسط.

إن محـاولات حكومتنا الدؤوبة للسـيطرة وإنتاج أسـلحة بشـرية، حسـب ما أكَّدت الوثائق التي رُفِعت عنها السـرية. إضافةً إلى ما أدلى به الشـهود، تعـد أمـرًا مروعًا ولا شـك، بيد أن الأكثر ترويعًا هـو إنجاز ذلك كله بطريقة سرية إلى حد كبير، ثم اجتهاد الحكومة وحرصها على إتلاف معظم الأدلة الدامغـة التـي تؤكِّـد تورطها في مثل تلك الأعمال، ولكـن -مع هذا- يكفي ما وقع في أيدينا من أدلة لمعرفة ما تعرَّض له الرجال والنساء، وحتى الأطفال، من عداء واسـتغلال بسـبب تلك التجارب التي تهدف إلى مسـخ الإنسـانية، واستبدال ما يشبه الماكينة بها، لتنفيذ كل ما يُحدَّد لها من أوامر وطلبات.

أهداف الدراسات

كشفت إحدى وثائق جلسات الاستماع التي عقدها مجلس الشيوخ، والتي يعود تاريخها إلى عام 1955م، عن بعض أهداف تلك الدراسـات والتجارب التي اعتُمِد في كثير منها على مواد تفضي إلى تغيير العقل، بناءً على مشروع (MKUltra). وفيمـا يأتـي بعض المواد التي سـعت الدراسـات إلـى الحصول عليها[1]:

(1) المصدر: جلسـة مجلس الشـيوخ الخاصة بالاسـتماع إلى حيثيات مشـروع (MKUltra). لجنة مجلس الشيوخ المنتخبة لاستجواب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، لجنة الموارد البشرية، الثالث من أغسطس عام 1977م.

- مـواد يؤدي تناولها إلى تعزيز التفكير غير المنطقي، وتجعل متعاطيها منبوذًا في المجتمع.
- مواد تُعزِّز نشاط الذهن والقدرة على الإدراك.
- مواد تؤدي إلى الشيخوخة المبكرة من جهة. وتطيل المدة اللازمة لبلوغ الرشد من جهة أُخرى.
- مواد تُعزِّز أثر التسمم بالكحول.
- مـواد تفضي إلى ظهور علامات الأمراض المعروفة وأعراضها بطريقة عكسية. فتدفع متعاطيها لادعاء المرض. ثم التهرب من العمل.
- مواد تُسبِّب تلف الدماغ المؤقت أو الدائم، وفقدان الذاكرة.
- مـواد تُعـزِّز قدرة الأفـراد على تحمل الحرمـان والتعذيـب والإكراه في أثناء الاستجواب، وما يُعرَف بغسيل المخ المزعوم.
- مـواد وطرائـق مادية تفضي إلى عدم تذكُّر الأحداث السـابقة لتعاطي تلك المواد، وفي أثناء تعاطيها.
- أسـاليب مادية تُسـبِّب صدمـات وارتباكًا مُددًا طويلـةً. مع القدرة على استخدام تلك الطرق بشكل سرِّي.
- مواد تُحدِث إعاقة جسدية. مثل: شلل الساقين، وفقر الدم الحاد.
- مواد تفضي إلى إنتاج مواد كيميائية تتسبَّب في ظهور البثور.
- مـواد تُحدِث تغييرًا في تكوين الشـخصية بصورة تُعـزِّز اعتماد المتلقي على الآخرين.
- مـواد تـؤدي إلـى تشويش الذهـن. فيعجـز متلقيهـا عن الحفـاظ على رباطة جأشه عند الاستجواب.

- مواد تتسبَّب في خفض معدل الطموح، والكفاءة العملية العامة للرجال، عند تناولها بكميات غير محدَّدة.
- مواد تُضعِف السمع أو تُشوِّه البصر، ولا تترك آثارًا مستديمة.
- حبوب جاذبة مغرية، تكون على شكل رذاذ وغيره، ويمكن تناولها سرًّا مع المشروبات والمأكولات، وحتى مع الدخان، وتُستخدَم بطريقة آمنة، وتُسبِّب الحد الأقصى من فقدان الذاكرة، وتكون مناسبة لاستخدام العملاء، ولا سيما في الإعلانات التجارية.
- مواد يمكن تناولها في المسارات الآنف ذكرها، ويعجز الإنسان، حتى لو تناولها بكميات قليلة جدًّا، عن ممارسة أيِّ نشاط بدني.

مشروع (Paperclips) والبرمجة: علاقة النازية بالسيطرة على العقل

قلة قليلة من الناس هي التي تُدرِك ما حدث بعد قتالنا النازيين في الحرب العالمية الثانية؛ إذ استقدمت حكومتنا، ممثَّلةً في إدارة الوكالة المشتركة للأهداف الاستخباراتية، من ألمانيا نخبة من أفضل علماء النازيين وباحثيهم، وذلك ضمن برنامج عُرِف باسم (Project Paperclip)، وأُطلِق عليه أيضًا اسم العملية السرية (Operation Overcast). وقد استقر القادمون الجدد مع عائلاتهم بهدوء تام في مختلف الولايات، ولا سيما أولئك العلماء المتخصصون في علم الصواريخ والأسلحة التي ترتكز على علم الحركة الهوائية، لسباق السوفييت في معرفة أسرار تصنيع تلك الأسلحة، والإلمام بكيفية عملها. فاتجه نحو ألف وثمان مئة من أولئك العلماء النازيين

(وأفـراد عائلاتهـم) إلى أماكن، مثل: وايت سـاندز بروفنغ قراوند، وفورت سترونق، وفورت بلس. وكان منهم مسؤولون في الدولة، وعلماء متخصصون في الجيوفيزياء[1]، وعلم البصريات، ومهندسـون، وكيميائيون، وفيزيائيون، وضبـاط مخابـرات، وخبراء هندسـة إلكترونية، وباحثـون في مجال الطب، ومهندسـون متخصصون في علـم الحركة الهوائية، إضافـةً إلى بعض رموز النازية من ذوي المناصب العليا في الدولة، مثل: ويرنير فون براون، وويلهيلم جنغرت، وفريتز موللر، ورينهارد غهلين، وثيودور بوبول.

وإلـى جانـب هـؤلاء جميعًـا، فقـد اسـتقدمت دائـرة الألغـام الأمريكيـة مجموعـة مـن العلمـاء الألمـان المتخصصين في الوقـود الاصطناعـي، للعمل في مصنـع للكيماويـات في ولايـة ميسـوري؛ بغيـة الاسـتفادة مـن خبراتهـم، والحصـول علـى ما لديهم من معلومات ثرّة ومعارف غزيرة، من أجل تأمين موطئ قدم في سباق الحرب الباردة ضد السوفييت.

والعجيـب الغريـب أن أولئك العلماء هم أنفسـهم الذين سـاعدوا أدولف هتلر على تصنيع غاز السارين السام، وسلاح الطاعون المميت. والأكثر من ذلـك أن بعضهـم حوكمـوا بتهمـة ارتكاب جرائـم حرب. وبالرغـم من ذلك كلـه، فقد منحتهم الحكومة الأمريكية صكوك براءة، فسـاعدوها لكي يكون لهـا القول الفصـل، واليد الطولى في الحرب القادمة للسـيطرة على العالم. والأغـرب مـن هـذا كله أن الرئيـس هـاري ترومان نفسـه لم يكن يعلم شـيئًا عن هذا المشـروع؛ لأن الوكالة المشـتركة للأهداف الاستخباراتية التي كانت

(1) الجيوفيزيـاء: علم يبحث في طبيعة الأرض، ويشـمل حقولًا عديـدةً، مثل: علم الأرصاد الجوية، والجيوديسيا، والمغناطيسية الأرضية، والهيدرولوجيا، وعلم الزلازل، وغير ذلك. المترجم.

تمثِّل الجهة المسؤولة عنه، زوَّرت سجلات التوظيف، وذهبت إلى أبعد من هذا بتزويرها هويات العلماء وسيرهم الذاتية، لإخفاء كل ما له علاقة بانتمائهم السابق إلى النازية.

وفي التاسع عشر من شهر يوليو عام 1945م، احتجزت هيئة الأركان المشتركة عددًا من العلماء العاملين في مركز الصواريخ التابع للجيش الألماني، منهم ويرنر فون براون الذي كان يشغل منصب المدير الفني في مكان عُرِف باسم «المعسكر السري»، ثم صدرت أوامر صارمة بمراقبتهم إلى حين استكمال جمع المعلومات الاستخباراتية اللازمة منهم، ليُنظَر بعدها في إمكانية إطلاق سراحهم.

ذكرنا آنفًا أن المشروع عُرِف بدايةً باسم العملية السرية (Operation Overcast)، ولكن الاسم تغيَّر بعد عام واحد فقط ليصبح (Paperclip) إثر اكتشاف تسريب للمعلومات عن الموقع.

وكانت الصحفية آني جاكوبسن قد طرحت السؤال الآتي بناءً على نظرتها المحدَّدة لبرنامج (Paperclip) السري الذي جاء بالعلماء النازيين إلى أمريكا: هل الإنجاز يَجُبُّ ما قبله من جرائم؟ وقد ألَّفت كتابًا يعد بحق توثيقًا شاملًا لدور العلماء النازيين في أمريكا؛ إذ كشفت فيه أساليب جديدة لاستخدام عقاقير الهلوسة والاستجواب التي مورست في موقع سري في ألمانيا بهدف السيطرة على العقل، وأماطت اللثام عن طريقة المعاملة التي حظي بها أولئك الرجال لاحقًا؛ إذ عوملوا كالأبطال، وحظوا بقدر وافر من عبارات الثناء والإعجاب، لما قدَّموه من معرفة ومعلومات مهمة للمسؤولين في حكومتنا. كتبت جاكوبسن في هذا السياق: «يرى بعض المسؤولين أن

تصديقهم على مشروع (Paperclip) كان أشبه بالاختيار بين أهون الشَّرين؛ فلو لم تبادر أمريكا إلى استقدام هؤلاء العلماء لفعل السوفييت الشيوعيين بكل تأكيد، وقد أبدى عسكريون من مختلف الرتب إعجابهم واحترامهم لأولئك الرجال». هكذا يكون الحديث عن الحلفاء الغرباء!

كاميرون والشخصيات الرئيسة

كان بين الرموز البارزة في مشروع (MKUltra)، إضافة إلى سيدني غوتليب، رجل يُدعى دونالد إيوين كاميرون، وهو طبيب نفسي إسكتلندي، تورط مع الجانب الكندي في المشروع المعني، إثر دعوته عام 1943م إلى زيارة جامعة مكغيل في مونتريال، حيث أُنشئ معهد آلان التذكاري للطب النفسي بتمويل سخي من مؤسسة روكفيلر، بالتعاون مع مؤسسات أُخرى. كان كاميرون هذا يحظى بشهرة عظيمة وسمعة طيبة، لعمله في مجال الطب النفسي المرتبط بعلم الأحياء، فأصبح مفتونًا بفكرة التلاعب بالدماغ والسيطرة على الذاكرة، ثم صار رئيسًا لجامعة كبرى، وتمكَّن من إجراء تجارب فيما يُعرَف باسم الدافع النفسي الذي يرتكز أساسًا على تعريض أشخاص لغيبوبة محدثة بالعقاقير، أو هرمون الأنسولين مُددًا متفاوتةً، يُجبَرون خلالها على الاستماع إلى أشرطة مسجلة أعدَّها كاميرون والفنيون العاملون بإمرته، وتتضمن رسائل إيجابية هدفها غسيل برمجة العقل الحالية التي تشتمل على سجل أسود، ثم ترسيخ ذكريات جديدة فيها، بحيث تسجل على صفحة ناصعة البياض.

ربما كانت نوايا كاميرون طيبة، بيد أن التقنيات التي استخدمها اشتملت على علاج مكثَّف بالصدمات الكهربائية، وتجارب عقار الهلوسة التي أُجريت غالبًا من دون موافقة الأشخاص المعنيين، والتي وصفها المرضى والنّقاد - فيما بعدُ- بتجارب تقوم على التعذيب، وقد استحوذت هذه التجارب، ولا سيما تجربة الدافع النفسي **psychic driving**، على اهتمام عقيد في الجيش الأمريكي، فنبَّه كاميرون لماهية التقنيات التي تعتمد في عمليات غسيل المخ.

على صعيد آخر، بدأت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بتمويل تجارب كاميرون، بوصفها جزءًا من مشروع (MKUltra). ولأن إجراء هذه التجارب كان على الأراضي الأمريكية؛ فقد عُدَّت عملًا غير مشروع من الناحية القانونية، فكانت الأموال تُهرَّب سرًّا إلى معهد آلان التذكاري للطب النفسي عن طريق معهد كورنيل في نيويورك، وهذا ما أكَّدته الوثائق السرية لاحقًا.

فظهرت إثر ذلك كتب عدَّة تُسلِّط الضوء على الجانب المظلم من حياة كاميرون، مثل كتاب كولينز في غرفة النوم... قصة المخابرات المركزية الأمريكية مع تجارب غسيل المخ في كندا الذي نشر عام 1989م، والذي وثَّقت فيه الأهوال التي أذاقها كاميرون للناس، وقد عانى كثير منهم اضطرابات طفيفة، مثل: القلق، واكتئاب ما بعد الولادة.

ووفقًا لما أورده كولينز، فما إن انتهت تلك الدراسات السيئة السمعة حتى مُسحت ذاكرة كل منهم مسحًا، فنسوا كل شيء، حتى القدرة على التحكم في البول، وعجز بعضهم عن تذكُّر أطفالهم الذين من صُلبهم؛ لقد تعرَّضوا

جميعًا للتعذيب في محاولة لإزالة نمط السلوك والذكريات، واستبدال برمجة كاميرون الذاتية بذلك كله.

وفي عام 2007 م، نُشِر مقال في مجلة (Scotsman) يحمل عنوان حكاية **غسيل المخ الصادمة: وكالة المخابرات المركزية الأمريكية Stunning Tale of Brainwashing, the CIA، والباحث الإسكتلندي البريء an Unsuspecting Scots Researcher**، ويُسلِّط الضوء على طبيعة وظيفة كاميرون. وقد اشتمل المقال على بضع حقائق تُحسَب لمصلحته، أهمها: عدم علمه بتمويل بحثه من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (مع أن هذا لا يُبرِّر الطريقة الوحشية التي كان يمارسها مهما كانت الأسباب)، ونجاعة بعض الطرائق التي مارسها، مثل العلاج المكثَّف بالصدمات الكهربائية: إذ إنها نجحت - نوعًا ما - في علاج مدمني الكحول. وفي الوقت نفسه، أشار المقال إلى الجانب المظلم من حياة رجل مهووس بأسلوبه الخاص. وهو يستجوب واحدًا من مئات الضحايا الأبرياء الذين خضعوا لتجاربه في غرفة نومه الخاصة، فذاقوا أشد ويلات العذاب والاستغلال إبَّان الحرب الكورية.

أكَّدت ليزلي أورليكو - التي خضعت والدتها، فال، لتجارب وحشية، فأُعطِيت ست عشرة جرعة من عقار الهلوسة، إضافةً إلى تعرُّضها لصدمات كهربائية أدَّت إلى اضمحلال عقلها، حتى أصبح مثل عقل طفل صغير ما زال يحبو، ولم تتماثل للشفاء إلَّا بعد مغادرتها معهد آلان التذكاري للطب النفسي، وخضوعها لعلاج مستدام من اختصاصيي العلاج النفسي الآخرين- أكدت أن الناس لم يعلموا شيئًا عن حقيقة تجارب كاميرون

السرية إلّا عام 1977م، عندما كشفت جلسات استماع عقدها الكونغرس الأمريكي آنئذٍ عن حقيقة الرجل وأعماله.

وحسب ما جاء في المقال الآنف ذكره، فقد أكّدت أورليكو أن والدتها كانت تعتقد أن كاميرون كان إلهًا، وأنه لا يمكن أبدًا أن يرتكب خطأً أو يغترف ذنبًا. ثم جاء الباحثون ليؤكّدوا أن كاميرون كان يتلقى أموالًا من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لشراء مواد تستخدم في السيطرة على العقل... لا أحد يمكنه أبدًا أن يتخيل إلى أيّ مدى كان هذا الأمر صاعقًا ومحبطًا لوالدتي!

وبناءً على ما تقدّم، دفعت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عام 1988م سبع مئة وخمسين ألف دولار لعائلة فال، لتسوية القضية، بيد أن فال رأت في ذلك المبلغ مالًا قذرًا؛ إذ كانت تؤمن أن المخابرات المركزية الأمريكية لا تتحمل أيَّ مسؤولية عمَّا كان يحدث من أهوال في غرفة التعذيب التي كان الضحايا الأبرياء يعرفونها بغرفة النوم. أمَّا كاميرون فإنه حتمًا يتحمل مسؤولية ما لحق بالآخرين من دمار، في سعيه للسيطرة على عقولهم، في تجربة أكدت من خلال معاينة ضحاياها، قدرتها على تحويل العديد من أولئك الرجال والنساء إلى وحوش ضارية، أكثر من كونهم بشرًا. فهل يمكن أن تكون الرغبة الجامحة لفهم الإنسان أكثر أهمية من الإنسان نفسه؟ نعم، هكذا كان يفكّر القائمون على مشروع (MKUltra). غير عابئين بما يُخلّفه المشروع من جيش عرمرم من الضحايا المحطمين، وصراع عائلاتهم التي تكابد لكي تفهم الأسباب التي دفعت حكومتهم إلى فعل شيء مثل هذا.

صحيح أنه ينبغي لنا - أحيانًا- الحذر من العدو الذي يأتينا في عباءة صديق أكثر من حذرنا من غيره من الأعداء الذين يجاهروننا بعدائهم السافر.

ونختم بالقول إن الدكتور كاميرون كان قد عُيِّن رئيسًا للجمعية الأمريكية للطب النفسي عام 1953م، ثم أصبح لاحقًا أول رئيس للجمعية العالمية للطب النفسي.

خيانة أمة

كتبت كارول روتز، إحدى ضحايا كاميرون، كتابًا رائعًا وافيًا اشتمل على تفاصيل دقيقة عن تجربتها، بوصفها إحدى الناجيات من ضحايا تعذيب مشروع (MKUltra) الاستخباراتي، وقد حمل الكتاب عنوان **خيانة أمة A Nation Betrayed** قصة حقيقية تقشعر لها الأبدان عن تجارب الحرب العالمية الثانية السرية على أطفالنا وغيرهم من الأبرياء، ووثّقت فيه رحلتها الشخصية -بوصفها ضحية- منذ فجر طفولتها، إضافةً إلى سعيها لاحقًا إلى البحث عن الحقيقة، مستفيدةً مما وقع بين يديها من وثائق بموجب قانون حرية المعلومات، والبحوث المكثّفة التي تناولت الرجال الذين يقفون خلف هذه التجارب.

تتذكر روتز بمرارة شديدة اللحظات التي سلّمتها فيها جدّتها لوالدها إلى وكالة المخابرات المركزية عام 1952م، وهي ما تزال طفلة غضّة في المهاد لم تتجاوز الرابعة من عمرها، ثم خضوعها لتجارب وتدريبات سنوات

عدَّة، شـملت: التنويم المغناطيسي، والصدمات الكهربائية، وتناول العقاقير الطبية، والحرمان الحسـي، والصدمات النفسية. تقول روتز إن الهدف من ذلك كله هو: «إصابتي بانفصام الشـخصية، وإجباري على الامتثال لكل ما يُطلَب إليَّ، ثـم إيجاد شـخصيات متعـددة لتأدية مهام محدَّدة، فتسـتجيب كل شـخصية مختلفـة لمثيرات معينـة، عقب إخضاعي للتنويم المغناطيسـي، ثـم تكليفي بأداء عمل معين، ثم نسـيانه لاحقًـا»، وأضافت روتز قائلةً: «ومن تلك الأعمال إرضاء كبار المسـؤولين، والسماح لهم بالاعتداء على الضحايا، والتجسس، والاغتيـالات، وتحفيـز الضحايـا ومسـاعدتهم علـى اسـتغلال بعضهم بعضًا».

وإلـى جانـب هـذا كلـه، فقـد وقعت روتـز أيضًـا ضحيـة لبرامـج أُخرى، منهـا: برنامـج (Bluebird)، وبرنامـج (Artichoke). وقـد جـرى التحقـق مـن صحـة تجربتهـا بعـد مـرور أربع وثمانين سـنة عندما سُـمِح بنشـر مـا يزيد علـى (18000) صفحـة مـن الوثائـق السـرية، تحدثت فيها روتز عـن إيجاد شـخصيات مختلفة (بديلة)، وهو الأمر نفسـه الذي أكَّده عدد من الناجين مـن التعذيـب بسـبب مشـروع (MKUltra) الاسـتخباراتي، الذيـن اتخـذوا مـن شـبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت) وسـيلة لنشـر مـا بحوزتهم من معلومـات عـن هذه المشـروعات؛ إذ تسـتطيع الشـخصيات البديلـة عمل أيِّ شيء ترفضه الشخصية، وفي الوقت نفسه، تنساه لحظة عمله، فتصبح تلك الشخصيات أنموذجًا مثاليًّا للسمكري، والخياط، والجندي، والجاسوس.

(وفي اليوم التالي) تكتب روتز شـارحةً كيفية إيجاد الشـخصية البديلة: «وُضِعـت في صنـدوق شـاحنة بيضاء مـع حقيبتي الصغيرة. وبعـد أن وصلنا

إلـى مـكان ما في مدينة ديترويـت، تعرَّضت لصدمة كهربائية شـديدة؛ بغية فصـل عقلـي، وإيجاد شـخصية سـمانثا التي لا تشـعر بالألم مطلقًـا، والتي تسـيطر تلقائيًّـا علـى الجسـد، فتمسـح الذاكرة، وتخفي الشـعور بـالألم من نظام جسـدي»؛ فمثلًا الأطفال الذين يتعرَّضون لتجربة قاسـية بالصدمات الكهربائية، ويفتقرون إلى القدرة الجسدية والنفسية للتعامل معها، يصـابون بانفصـام الشـخصية، مـا يُسـهِّل مهمة المشـرفين على مشـروع (MKUltra) للتعامل مع براءتهم وعقولهم الغضَّة.

كتبـت روتـز أيضًـا عـن تجربتهـا مـع الدكتور كامـيرون عندمـا كانت في الثانية عشـرة من عمرها؛ إذ أُعطيت جرعة من عقار الكورار[1]، ثم وُضِعت في صنـدوق داخـل حظـيرة خلـف المستشـفى الـذي يحـوي مختـبرًا للعـلاج السـلوكي، ثم وُضِعت مجموعة من الأفاعي على الجزء العلوي من جسـدها، فأغمضـت عينيها بسـبب تناولها عقـار الكورار المخـدر، ولم تعد قادرة على الحركة، ثم أُسـمِعت شـريطًا مسـجلًا يحتوي على مادة مبرمجة مُعَدَّة وفق برنامج الدكتور كاميرون الشهير (الدافع النفسي)، تشتمل على رموز مثيرة للتدمـير الذاتـي، حسـب ما جـاء في إفادة روتز. ثـم اسـتطردت في الكتابة: «تعرَّضـت لهـذا لكي أظل عاجزة عن الإفصاح عن طبيعة هذه التجربة كلما فكرت في ذلك».

أمَّا فيما يتعلق بتغييرات البرمجة، فقد أكَّد جميع الضحايا الأبرياء الذين نجوا من التعذيب تعرُّضهم لأكثر من مستوى من البرمجة، وهذه أبرزها:

---

(1) الكورار: مـادة تستخلص مـن بعض النباتات الاسـتوائية، يسـتعملها هنـود أمريـكا الجنوبية لتسميم السهام، وتُستخدَم طبيًّا في إحداث الاسترخاء العضلي. المترجم.

- (ALPHA): برمجة عامة للسيطرة على الشخصية.
- (BETA): برنامج لإثارة الغريزة الجنسية، واستغلال الأطفال لإنتاج مواد إباحية (مثل: تصوير السلوك الجنسي في الكتب، والصور الفوتوغرافية، والأفلام، والاغتصاب، ...)، والقضاء على أيٍّ وازع أخلاقي لتسهيل ممارسة الجنس دونما أدنى رادع.
- (Delta): برنامج يُعنى بتجنيد خلايا نائمة مدربة على القتل، وفي هذا المستوى من البرامج، يتخلص أفراد الخلايا من مختلف أنواع الخوف، ويُدرَّبون على استخدام الأسلحة، وطرائق القتل، والتخلص من الجثث.
- (THETA): برنامج للتدمير النفسي، وهو يُستعمَل فقط للتخلص من الأشخاص الذين يتمتعون بمستوى عالٍ من القدرات النفسية.
- (OMEGA): برنامج يُعنى بتدمير الذات، وهو يُستعمَل للتخلص من خطر الأشخاص (الضحايا) الناجين الذين يستعيدون القدرة على التذكر، أو أولئك الذين يحاولون نشر ما يعرفونه من معلومات على الملأ.

تقول روتز إن هذه البرامج قد حوَّلت الأطفال إلى «محاربين يتحوَّلون يومًا ما إلى مرشحي منشوريا... جواسيس وقتلة مثاليين، غير آبهين بما يصدر إليهم من أوامر، يندمجون في المجتمع بسهولة، من دون أن يفصحوا عن أسمائهم، ويبقون مجهولين للجميع إلى حين استخدام رمز خاص لتنبيههم وإرسالهم مرة أُخرى لإنجاز مهمة ما».

وفي السياق نفسه، يروي ضحايا آخرون لمشروع (MKUltra) ممن نجوا من التعذيب حكايات مماثلة لطقوس الاعتداء والتعذيب، بما في ذلك الاعتداء الجنسي، والتحرش الجنسي بالأطفال الذي يشمل غالبًا أفراد عائلاتهم، الذين يتورط كثير منهم في ارتكاب جرائم التعذيب تلك، ولا يترددون لحظة في بيع أطفالهم إلى (السجن)، بصرف النظر عمًّا قد يتعرَّضون له من ممارسات دنيئة على أيدي مدربيهم، في حين يتحدث آخرون عن وجود علاقة بالسحر الأسود، ونزغ الشيطان، وممارسات خفية، ويرى فريق ثالث أنه ثمَّة علاقة ببعض الجمعيات والمنظمات السرية، مثل جمعية الماسونيين الأحرار، مُدَّعين أن معظم الرجال الذين يعتدون على الأطفال ينتمون إلى الماسونيين، فيما يؤكِّد آخرون تورط ساسة رفيعي المستوى وقادة عالميين، بمَن فيهم بعض الرؤساء السابقين، في شبكة الخداع، والاعتداء، والاستغلال، والتعذيب.

صحيح أننا نفتقر إلى وجود أيِّ أدلة مادية على كثير من تلك الادعاءات، بيد أن هذا لا ينفي صحة القصص المتشابهة التي رواها كثير ممن نجوا من التعذيب: إذ تؤكِّد الوثائق السرية حقيقة وجود برنامج (MKUltra)، و(Bluebird)، و(ArtichokeK) وحتى برنامج (Monarch)، وهي تؤكِّد جميعها استحالة مسح جميع تلك الفظائع والأهوال من الذاكرة: إذ نعلم يقينًا اليوم أنه ثمَّة سجناء في بلادنا وبلدان أُخرى عُذِّبوا، وما زالوا يُعذَّبون، ولا سيما أولئك الذين احتُجِزوا لمجرد شبهات بارتكاب أعمال إرهابية، إضافةً إلى تلك الصفحة السوداء المظلمة في تاريخ سجوننا، ودور الأيتام والملاجئ التي سُمِح فيها بإجراء أكثر التجارب فظاعةً وعدوانيةً واستغلالًا على أولئك الأشخاص الضعفاء الأبرياء الذين ليس لهم حول ولا قوة.

بحث غير أخلاقي يستهدف البشر في القرن العشرين، للدكتورة سارة ن. أرشيبالد

لا أحد ينكر اليوم أن القرن العشرين شهد ابتكارات عظيمة، ولا سيما في مجال العلوم عمومًا، والتقنية الطبية على وجه الخصوص؛ إذ طُوِّرت لقاحات للكثير من أمراض الطفولة التي كانت في الماضي أمراضًا فتاكةً قاتلةً، إضافةً إلى تطور فهم جسم الإنسان، والحد من الوفيات بفضل تدخل الاختصاصيين الطبيين.

وبالرغم من هذه الابتكارات العظيمة، فإنه ثمَّة جانب مظلم للبحوث غير الأخلاقية التي أُجريت في ثلاثة الأرباع الأُولى من القرن العشرين؛ إذ سلَّطت حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية الضوء على بعض القضايا البحثية على نطاق العالم، في أثناء محاكمات نورمبيرغ[1] ضمن دفاع النازيين عن بحوثهم البربرية الوحشية التي أُجريت على المحتجزين في معسكرات الاعتقال المكتظة، محاولين بكل ما أوتوا من قوة تأكيد حدوث الممارسات نفسها في مختلف أنحاء العالم، ومشيرين تحديدًا إلى ما يحدث في سجون الولايات المتحدة الأمريكية من استغلال للسجناء، وإخضاعهم للتجارب. وقد انتهى القضاة إلى الجزم بعدم احترام الجانب الأخلاقي في كلتا الحالتين، فحكموا على بعض المتهمين بالسجن مدة طويلة، وحكموا على الآخرين بالإعدام.

---

(1) نورمبيرغ: مدينة في ولاية بافاريا الألمانية، عدد سكانها (550000) نسمة. أمَّا محاكماتها الشهيرة فهي سلسلة من المحاكمات أُجريت في مدينة نورمبيرغ، بين عامي 1945م و 1946م، بُعَيد الحرب العالمية الثانية، للنظر في جرائم الحرب التي نُسِبت إلى زعماء ألمانيا النازية. وقد أدانت المحكمة التي تألَّفت من قضاة أمريكيين وسوفيت وبريطانيين وفرنسيين هؤلاء الزعماء، باستثناء ثلاثة منهم فقط، وحكمت عليهم بالموت، أو السجن مدة طويلة. المترجم.

وكان القضاة قد حدَّدوا عشرة خطوط أخلاقية عريضة، يتعين مراعاتها عند إجراء أيٍّ تجارب على البشر. وبيَّنوا فيها العناصر الأساسية التي تسمح بالمُضي قُدُمًا في إجراء هذه التجربة أو تلك، ومنها: قدرة التجارب على الحد من المخاطر. والحصول على موافقة الشخص المعني بعد إطلاعه على ماهية التجربة التي ستجرى له وطبيعة مخاطرها المحتملة. ولكن للأسف، لم يُقَر قانون نورمبيرغ في الحال، فاستمرت التجارب على المنوال نفسه. وفي عام 1964م، صيغ إعلان هلنسكي الذي تبنَّته جمعية الطبي العالمية، ولا سيما المجموعة التي أكَّدت الآتي: «لا بد من توافر معيارين أساسيين عند اختيار عناصر البحوث: وجود إجراءات نزيهة، والحصول على نتائج نزيهة أيضًا في نهاية المطاف».تجدر الإشارة إلى أن قانون نورمبيرغ وإعلان هلنسكي لم يُقنَّنا ضمن القانون الأمريكي. ما أفسح المجال واسعًا أمام الباحثين لإجراء تجارب من دون توفير أيِّ حماية لمَن تجرى عليهم من البشر. ومع ذلك، فإن الأمر لم يكن سرًّا، فعلم الناس بها، ما أدى إلى حدوث موجة احتجاجات عنيفة من الجمهور.

تعد دراسة توسكيجي لمرض الزُّهري[1] من أكثر التجارب شهرة، وهي دراسة أُجريت في المعاهد القومية للصحة بين عامي 1932م و 1972م، لمعرفة الآثار التي تترتب على عدم علاجه، وسط مجتمع فقير من الأفارقة

(1) الزُّهري: أحد أكثر الأمراض التناسلية خطورة، وهو ينتقل بطرائق مختلفة، أبرزها الاتصال الجنسي، وقد ينتقل من الأم إلى الجنين قبل الولادة، وله ثلاثة أطوار: الأول: يتميز بظهور قرحة صُلْبة في جزء من الجهاز التناسلي، أو الشفة، أو اللسان، أو الحنجرة، وغيرها. الثاني: وفيه تزول القرحة، وينتشر في الجسم طفح جلدي لا يلبث أن يخمد. الثالث: وفيه يهاجم الداء أجزاء أُخرى من الجسم، مثل الدماغ والحبل الشوكي، محدثًا مضاعفات خطيرة، مثل: الجنون، والشلل، وبعض أمراض القلب. المترجم.

الأمريكيين في ولاية ألاباما. وللأسف، لم يخطر المشاركون بنتيجة تشخيص المرض، ولم يُعالَج - في الوقت نفسه- المصابون به. حتى مع توافر علاجه في أربعينيات القرن الماضي، فتُرِك مئات الرجال من دون علاج يعانون مضاعفات المرض الذي كان ممكنًا معالجته بسهولة.

وفي المدة من عام 1955م إلى عام 1970م، أُجريت تجارب على التهاب الكبد في مدرسة ولاية ويلوبرووك (كانت تُستخدَم دارًا للأطفال من ذوي الإعاقة الذهنية) في جزيرة ستيتن بنيويورك. وقد مثَّل المرض مشكلة صحية خطيرة لأطفال المدرسة، فكان لا بد من اتخاذ تدابير صحية صارمة لمنع انتقال العدوى التي لم يكن يُعرَف الكثير عنها، ولا سيما وجود سلالتين للمرض: (أ) و (ب) منتشرتين بين أطفال المدرسة.

وفي أثناء إجراء هذه التجارب، أُعطي المقبولون الجدد من الأطفال مضادات حيوية، أملًا في مكافحة العدوى، ثم وُزِّعوا إلى مجموعتين، بحيث حُقِن أفراد المجموعة الأُولى بمصل المرض، وتُرِك أفراد المجموعة الثانية (الضابطة) من دون لقاح، ثم وُزِّعت على أولياء الأمور نماذج موافقة لتوقيعها، لكي يسمح لأطفالهم بالبقاء في المدرسة. وفي عام 1963م، أعدَّ المستشفى اليهودي للأمراض المزمنة دراسة تهدف إلى معرفة الأسباب التي تجعل الجسم لا يقوى على رفض خلايا السرطان، وقد تضمنت الدراسة حقن (22) مريضًا مُسِنًّا من المصابين بأمراض مزمنة موهنة للجسم - من دون موافقتهم- بخلايا سرطانية حيَّة تُسبِّب سرطان الكبد؛ لمراقبة طريقة انتقال المرض، وتعرُّف مدى استجابة الجسم للسرطان. ولحسن الطالع، فقد اتُّهِم هؤلاء الباحثين بالاحتيال، وهي جريمة كانت نادرة في

تلك الحقبة: بعد الحرب العالمية الثانية حتى إقرار القانون العام رقم: (46 CFR 45).

وبالرغم من صدور قانون نورمبيرغ وإعلان هلنسكي، فإن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد أجرت تجارب (قبل كتابة هذه المبادئ التوجيهية وبعدها) على السجناء، من دون تمييز أو مراعاة لما يمكن أن يتعرَّضوا له من مخاطر نتيجة التجارب. ومع ذلك، فثمَّة حالتان مشهورتان موثَّقتان، هما: الدراسات الخاصة بأثر الإشعاع في سجن ولايتي أوريغون وواشنطن، والدراسات البحثية الحيوية الطبية غير العلاجية التي أُجريت في سجن هولمزبيرغ بولاية فيلادلفيا (دوبر 2008). وبالمثل، استمر إجراء التجارب على سجناء في ولاية بنسلفانيا حتى سبعينيات القرن الماضي، دونما أدنى ضمانات لحماية السجناء. وفي الوقت نفسه، أُجريت تجارب عدَّة على أشخاص آخرين من دون التحقق من وضعهم السابق الذي يقضي بعدم تكرار التجارب على الشخص نفسه، وقد شملت التجارب تعرُّف إفرازات الجلد، والعقاقير، والتقنيات الطبية، وأُجريت تجارب أيضًا على أولئك المحكومين بعقوبة الإعدام. وفي مثل هذه الحالات، فإن السجين يُخيَّر بين التطوع لإجراء البحوث عليه، ثم تخفَّف العقوبة إلى السجن المؤبد، أو يؤجل تنفيذ حكم الإعدام.

وحدث ذات مرة أن عُرِّض أحد السجناء للإصابة بمرض الجذام بطرائق مختلفة، ثم نُقِل إلى مستعمرة المجذومين في هاواي: لمعرفة طريقة انتقال المرض وتطوره. وفي الوقت نفسه تطوع سجين آخر من المحكومين بالإعدام، للارتباط بفتاة في مقتبل العمر، تحتضر بسبب إصابتها بمرض

السـرطان، للسـماح لدمـه بالانتقـال إلـى جسـم الفتـاة [...] لتنقيتـه مـن السـرطان بطريقـة مـا... وقضت الفتـاة نحبهـا بالرغم من هـذه المحاولة. ونتيجـة لهذه التجـارب وغيرها، قـرّرت حكومة الولايات المتحـدة الأمريكية حمايـة السـجناء لافتقارهم إلى الاسـتقلال الذاتي. وللطرائـق المريبة التي كان الباحثون يتبعونها في استغلالهم من دون موافقتهم.

وفي عـام 1979م، صـدر تقريـر بيلمونت الـذي دعا إلى ضـرورة احترام الأشـخاص والإحسـان إليهم والعدل في معاملتهم، ثم وُسّـع نطاقه في أواخر السبعينيات ليشمل اللوائح الحالية (45 CFR 46، يُعرَف أيضًا باسم القاعدة العامة)، واستمرت الحال هكذا حتى مطلع الثمانينيات. وفي ضوء التجارب التي أُجريت هنا، إضافةً إلى تجارب أُخرى، قرّرت وزارة الصحة والخدمات الإنسـانية الأمريكيـة تصنيـف النسـاء الحوامـل (45 CRF 46، الملحـق B)، والسـجناء (45 CFR 46، الملحـق C)، والأطفـال (45 CRF 46، الملحـق D) إلـى مجموعـات سـكانية غير محصنة، قـد تتعرض للاسـتغلال، ولهذا لا بد من حمايتها.

تعمـل الدكتورة سـارة ن. أرشـيبالد اختصاصية بحـوث في مكتب بحوث حمايـة حقوق الإنسـانية في جامعة ماريلاند بليتمور التـي تُعرَف اختصـارًا بـ (UMB)، وتعمل أيضًـا أسـتاذًا مشـاركًا في شـعبة علم الاجتماع في الجامعة نفسـها التي تُعرَف اختصـارًا بـ (UMBC). وهي تبحث في أخلاقيات البحوث، ومختلف مجالات علم الجريمة، مُركّزةً على عقوبة الإعدام، وعدم المساواة الذي يكتنف نظام العدالة الجنائية، وقد ألّفت كتابًا نُشِر مطلع عام 2015م،

عنوانه عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة الأمريكية: هل هي إعدام للمساواة الاجتماعية؟

على صعيد آخر، تبنّت إحدى العائلات بيتر لويس وشقيقته كارول من ألمانيا في خمسينيات القرن الماضي، وهو اليوم أحد الناجين من مشروع (MKUltra) الاستخباراتي. يروي بيتر حكايته مع (امتلاك) الجيش الأمريكي له، ويتذكر - فيما بعد- كيف أن والدته (بالتبني) سمحت بإعطائه حبوبًا سبّبت له الهلوسة والكوابيس، ويرجح أن تكون هي نفسها حبوب الهلوسة المعروفة باسم عقار (LDS). وكثيرًا ما كان أطباء مستشفى والتر ريد يضعون في طعام بيتر وكارول مواد غريبة. وتعرّض بيتر أيضًا في طفولته لتجارب المواد المشعة التي اشتملت على تناولها في صورة مشروبات، ثم انتُزِعت عيّنات من عظامه لفحصها ومعرفة تأثير الإشعاع فيها، وحدث الشيء نفسه لأطفال الكشافة الآخرين الذين تعرَّف إليهم بيتر عام 1985م في والتر ريد، حيث كان هو والأطفال الآخرون يُعرَفون بأرقام لا بأسماء، أمّا شقيقته كارول فقضت بسبب سرطان المخ نتيجة تعرُّضها لتجارب الإشعاع قبل عشرين سنة من وفاتها؛ أي الوقت نفسه الذي خضعا فيه لتجارب مشروع (MKUlra) الاستخباراتي.

وفي المدة من عام 1945م إلى عام 1949م، أُعطيت مجموعة من النسوة الحوامل، في مستوصف الرعاية الأولية التابع لجامعة فاندربيلت، مادة اختبار في صورة مشروب، قيل لهن إنها مفيدة لأجنتهن. وقد اكتشفن بعد فوات الأوان أن تلك المادة كانت تحوي مواد مشعة تسبَّبت في إصابة أجنتهن بأورام خبيثة قاتلة.

وفي السياق نفسه، فقد خضع الأطفال المصنفون سريريًا بأنهم متخلفون عقليًّا لاختبار حبوب التغذية، وذلك في مركز الأطفال في لوريل بواشنطن العاصمة. إلى جانب استغلال طلبة الصف الثالث في إحدى المدارس الحكومية، بهدف اختبار آثار إشعاع الراديوم الأنفي في التجارب التي أُجريت بمستشفى جونز هوبكنز، بين عامي 1948م و 1954م.

لغز الأطباق الطائرة المجهولة

ذهب مشروع (MKUltra) بعيدًا من أجل تحقيق أهدافه، فاستغل حيلة الأطباق الطائرة: إذ يستعرض المؤلِّف والباحث نك ردفيرن في كتابه لقاءات حميمية قاتلة العلاقة بين أهداف مشروع (MKUltra) وتوقيت ظاهرة الأطباق الطائرة المجهولة، مشيرًا إلى بوسكو نيديلكوفيك: اليوغسلافي الذي وظفته الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية - تُعرَف اصطلاحًا بـ (AID)- في خمسينيات القرن الماضي، وهي المدة نفسها التي عمل فيها بوسكو في مشروعات ذات طبيعة غاية في السرية لمصلحة وزارة الدفاع. يستعرض ردفيرن هذا الأمر في كتابه قائلًا: «وفقًا لما جاء على لسان نيديلكوفيك، ثمَّة عناصر سرية من طبقة الموظفين شاركت في اختلاق متعمد لظاهرة الأطباق الطائرة المجهولة في ستينيات القرن الماضي، مستخدمةً طرائق مثيرة للجدل، تشبه إلى حد كبير تلك الأساليب التي تفتق عنها عقل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، في أثناء إدارة مشروعها الذي بدأ في خمسينيات القرن الماضي، وعُرِف بمشروع (MKUltra) الاستخباراتي: أي اعتماد أفكار متباينة لتغيير العقل، مقرونةً بعقاقير مُسبِّبة للهلوسة، استخدمت ضد الجماهير الأبرياء،

لإيهامهم أنهم شهدوا مقابلات خارج الغلاف الجوي، بعيدًا عن الأرض، في حين كانت الحقيقة شيئًا مختلفًا تمامًا عن كل هذا».

ويستطرد ردفيرين مؤكدًا أنه ثمَّة هدفان خفيان مزدوجان من الترويج لظاهرة الأطباق الطائرة المجهولة في أذهان الرجال والنساء: الأول: مدى النجاح الذي يمكن تحقيقه في حمل الدماغ على تصديق تعرُّضه لتجربة شيء ما لم يجربه مطلقًا. والهدف الثاني: كيفية اختلاق أحداث لمحاولة معرفة رد فعل العامة تجاه مصادفات حقيقية مع أشياء خارج الكرة الأرضية، ومعرفة إمكانية ظهور تلك الكيانات يومًا ما بصورة جماعية.

كشف نيديلكوفيك أنه ثمَّة خطط أُعِدَّت لاختلاق أحداث الأطباق الطائرة المجهولة في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية بين عامي 1964م و 1965م، وأفصح حتى عن المكان الذي اقتُرِح لاختلاقها، فذكر إكستر في همبشاير الجديدة بإنجلترا. وما يثير الاهتمام حقًّا أن رجلًا يُدعى نورمان موسكاريلو قام عام 1956م بشيء مماثل - نوعًا ما - لظاهرة الأطباق الطائرة في إكسترا. وبعد عام واحد، نشر الصحفي جون ج. فولر كتابًا عنوانه حادثة إكسترا. وتربط فولر هذا علاقات عدَّة بموضوع السيطرة على العقل، ومشروع (MKUltra)، وموت فرانك أولسون الذي أُشيع بدايةً أنه لقي حتفه منتحرًا، ثم اتضح لاحقًا أنه وقع ضحية لجريمة قتل متعمدة.

تجدر الإشارة إلى أن فولر قد جُنِّد لمشروع (MKUltra) عام 1975م، عندما التقى الدكتور كارلس أوزيز، حيث أُتيح له إلقاء نظرة على المشروع المعني، ويعتقد بعض أصحاب نظرية المؤامرة أن فولر هذا كان وراء حكاية

الأطبـاق الطائـرة المزعومة في منطقتي بيتي وبارني عـام 1961م، وأيضًا في همبشاير الجديدة... يا له من عالم صغير حقًا!

هل تُخرِّج جامعة هارفارد صانعي قنابل؟

لا شك أن مشروع (MKUltra) الاستخباراتي استفاد من خدمات عشرات المرافق والجامعات التي تتسم أعمالها بالسرية، بما فيها جامعة هافارد؛ فمنذ خريف عام 1959م حتى ربيع عام 1962م، خضع اثنان وعشرون طالبًا جامعيًّا في جامعة هارفارد لسلسة تجارب شملت الضغط والإجهاد المفرط، والإساءة العاطفية واللفظية، وتعديل السلوك. وقد أُجريت تلك التجارب بإشراف هنري موراي الذي كان يعمل أستاذًا في شعبة العلاقات الاجتماعية، ومديرًا سابقًا لعيادة هارفارد للأمراض النفسية. وعضوًا في مكتب الخدمات الإستراتيجية الذي عُرف اختصارًا بـ (OSS). شارك موراي في هذه الأثناء أيضًا في إجراء تجارب عسكرية لغسيل المخ، عرَّفها النقاد فيما بعدُ بأنها «تجارب غير أخلاقية، وغير قانونية».

أُجريت التجارب في موقع عُرِف باسم (الملحق) وهو منزل يقع قرب مبنى كلية الأحياء الجزيئية والخلوية، حيث كانت ترتكب فظائع ضد الطلبة الشباب، ومن هؤلاء طالب يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، يُدعى ثيودور جون كازنسكي. كان موراي مهتمًّا بقياس درجة رد فعل الأشخاص الذين يرزحون تحت الإجهاد، ويعانون شدَّة الضغط، بتعريضهم لاستجواب قاسٍ، وإساءات لفظية، عرَّفها موراي نفسه بالهجمات العنيفة المسيئة للشخصية، فضلًا عن الاعتداء على ذاتهم، والحط من أفكارهم، والإساءة إلى معتقداتهم المقدسة.

صار كازنسكي بعد ذلك معروفًا باسم صانع القنابل. ولكن، هل يمكن لتجربة موراي المسيئة أن تكون سببًا في إصابة الضحايا الأبرياء بالاضطراب العقلي، ثم الحقد على المجتمع، ودفعهم إلى الانتقام منه؟

وإثر نظرة فاحصة إلى تجارب جامعة هارفارد، كتب المراسل الصحفي ألتون شيس، في مقال حمل عنوان هارفارد وصناعة القنابل Harvard and the Making of the Unabomber، ونُشِر في مجلة أتلانتك، في عددها الصادر في يونيو عام 2000م: «إن مثل هذا الغموض والالتباس يدفع المرء إلى التساؤل: هل حُدِّد لهذه التجارب غرض لم يشأ موراي الإفصاح عنه؟ هل كان هدف مشروع التقييم متعدد المظاهر مساعدة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - إلى حد ما على الأقل- على تحديد أسلوبها في اختبار الضحايا الأبرياء أو تحطيم قدرتهم على الصمود في أثناء الاستجواب؟».

ليس ثمَّة دليل مباشر يؤكِّد وجود صلة بين السنوات التي قضاها مُفجِّر الجامعات والطائرات في مواجهة تلك التجارب والإساءات، وسلوكه لاحقًا، بيد أنه ربما تكون وسائل غسيل المخ التي طبَّقها موراي على نفسه وعلى زملائه من الطلبة الجامعيين، قد أدَّت إلى تغيير وجهة نظره تمامًا، بما في ذلك رغبته في التخلي عن مظاهر الحضارة، والتحوُّل إلى شخص منعزل عن بقية العالم المتحضر. كتب شيس في ذلك قائلًا: «اكتشفت أن كازنسكي لم يكن منعزلًا إلى حد التطرف كما أريد له أن يكون، إضافةً إلى أنه لم يكن مصابًا بأيِّ مرض عقلي سريريًّا، وإنما هو شخص مفكِّر وقاتل متهم. ولفهم العلاقات بين هاتين الحقيقتين، لا بد من الرجوع إلى الوقت الذي عاشه في جامعة هارفارد».

والحقيقة أن هذه الدراسات لا تمثّل سوى قطرة واحدة فقط من بحر الدراسات والاختبارات التي أُجريت على الناس، بمَن فيهم المصابون بأمراض عقلية وجسدية، والمعتقلون في السجون، والنساء الحوامل، والأيتام، والمعاقين، نيابةً عن الحكومة، والقطاع العسكري، وشركات الأدوية، والاتحادات والنقابات، وحتى الكيانات المستقلة ذات الأجندة الخاصة. فلماذا نطعن إذن في مصداقية الحكايات التي تُروى على لسان مَن يزعمون التعرُّض لأسوأ صنوف التعذيب الوحشي على أيدي رجال وكالة مخابراتنا المركزية، حتى مع وجود شاهد من أهلها؟

الدكتور ج. هـ. إستابروكس هو واحد من الأطباء الذين اعترفوا صراحة، على رؤوس الأشهاد، بإجراء تلك التجارب والمشاركة فيها. وقد تعرَّض في كتابيه تحضير الأرواح والتنويم المغناطيسي لتجربته الشخصية في تحويل الضحايا إلى شخصيات متعددة، وادَّعى تجنيد جواسيس وأفراد مخابرات عن طريق التنويم المغناطيسي، إضافةً إلى تحويل أفراد معينين إلى شخصيات معقَّدة. وذهب إستابروكس إلى أبعد من ذلك، فأجرى بالتعاون مع مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) ج. إدقار هوفر، تجارب على الأطفال تتعلق بمختلف استخدامات التنويم المغناطيسي في استجواب الأحداث الجانحين.

والعجيب الغريب أن إستابروكس يرى في إعداد جواسيس وقتلة محترفين عملًا أخلاقيًا اقتضته متطلبات الحرب، بيد أن الضحايا الأبرياء المتضررين لا يرون في هذا العمل أيَّ صلة بالأخلاق، لا من قريب ولا من بعيد. وقد قاده هذا السلوك المريب إلى العمل مع الوكالات الحكومية نفسها التي تسعى لإعداد محارب جسور من دون ذاكرة على شاكلة المرشح المنشوري.

فإذا كان هؤلاء الأشخاص الناجين من تجارب التحكم في العقل يقولون الحقيقة فعلًا، فما من شك أن الحقبة التي شهدت العمل في مشروع (MKUltra) تعد واحدة من أكثر العلامات قتامة في مسيرة تطور البشرية. فهل ما زال العمل بهذا المشروع مستمرًّا حتى اليوم باسم مختلف وقناع مستعار؟ لا سيما أن الحرب النفسية تعد اليوم أحد أشكال المعارك المقبولة أخلاقيًّا، وأن من حق الجميع تجربة العقاقير الجديدة التي تضخها شركات الأدوية العملاقة يوميًّا[1].

سوف تُصمَّم نماذج تعليمية يُكافَأ بها الفرد أو يُعاقَب بناءً على أدائه الشامل الذي يُعزَّز بمختلف الطرائق - إذا كان المرء على حق فإنه يُخبَر بماهية الهدف باستخدام الصدمات الكهربائية وغيرها، وتستخدم في حالات أُخرى العقاقير والخدع النفسية لتعديل السلوك. مع تركيز المجربين بصورة خاصة على حالات انفصال الهوية، والتقليل من شأن الشخصية الجديدة إلى المتعددة - فيما يُعرَف بالأوساط، فضلًا عن إجراء محاولة تشمل عددًا من حالات هذا النوع بوساطة التنويم المغناطيسي.

مشروع (Monarch): هل هو حقيقة أم خيال؟، لرون باتون

حفلت تسعينيات القرن الماضي بالتقارير المثيرة عن طقوس الاستغلال الشيطاني، وبرنامج وكالة المخابرات المركزية الأمريكية للسيطرة على العقل، الذي اشتمل على تعذيب الأطفال لإصابتهم باضطراب الشخصية المتعددة، أو ما يُعرَف اليوم باسم اضطراب انفصال الهوية، خاصة

(1) من وثيقة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية رقم (17395)، ص (18).

عنـد تعريض الضحايـا الصغار لتجارب مؤلمة باسـتمرار. مثـل: الصدمات الكهربائيـة، ومشـاهدة أعمـال عنـف مرعبـة تُرتكَب بحـق آخريـن. فعندئذٍ، ينفصـل العقـل إلى عقـول عدَّة. فتنشـأ شـخصيات بديلة عـدَّة، في محاولة للتغلب على الألم الحاد والصدمة العنيفة.

وفـوق هـذا وذاك، تُبرمَـج تلك العقـول البديلة عن طريـق تكليفها بأداء مهمـة ما، مثـل: ترويج المخدرات، والقتل، وتسـجيل الأشـرطة. وثمَّة طريقة أُخـرى لفحص هـذا الإيـذاء المعقَّـد، تتمثَّـل في النظـر إليه بوصفـه برنامج حاسوب معقَّدًا، إضافةً إلى إنشاء ملف (بديل) بتعريض الضحية لصدمات شـديدة متكـررة. ولتفعيـل الملف، لا بد من وجود رمز دخـول محدَّد، أو كلمة مرور معينة (إشارة، أو رمز).

عُـرِف هـذا المشـروع المزعـوم باسـم (Monarch)، وهـو يمثِّل أحـد فروع مشـروع وكالـة المخابـرات المركزيـة الأمريكيـة سـيئ السـمعة (MKUltra) الخاص بتعديل السـلوك الذي انطلق في خمسـينيات القرن الماضي واسـتمر حتى سبعينياته.

تجدر الإشارة إلى وجود مئة وتسعة وأربعين مشروعًا فرعيًّا مدرجة تحت مظلة مشـروع (MKUltra) الاسـتخباراتي. صحيح أن مشـروع (Monarch) لم يـرد لـه ذكـر في أيٍّ وثيقـة حكومية، بوصفه أحـد المشـروعات الفرعية، لكن ذلـك كان يُفهَـم مما ورد في روايات الضحايـا الأبرياء الناجين من العذاب، واختصاصيـي العلاج الطبيعي والمطّلعين علـى بواطن الأمور. وفي الحقيقة، فقد انبثق مشروع (Monarch) من مشروعات (MKUltra) البحثية، مثل عملية الخطيـب المفوَّه التي نُفِّـذت من أجل تأسيس خلايا نائمة مـن القتلة (على

غرار مرشـحي منشـوريا) يمكن تنشيطها بكلمة سر أو تعبير معين، إثر نوبة تالية لنوبات التنويم المغناطيسي.

من جانب آخر، أُجريت دراسـة عُرفت باسـم (Operation Often) بهدف تعزيـز فاعلية القوى الخفية. ويعتقد أنها أحد البرامج الخفية العديدة التي أُشـيعت لإخفـاء حقيقـة مشـروع (Monarch) الغـادر. وبالطبع، يـرى معظم المشـككين في هذا الشـأن مجرد وسـيلة لتعزيز الصدمة في نفس الضحية. رافضـين أيَّ اعتقـاد غـير عقـلاني يشـير إلـى حـدوث ظاهرة غـير طبيعية خارقة للعادة على أرض الواقع. يُذكَر أن برمجة مشـروع (Monarch) تُعرَف أيضًا باسـم متلازمة الدمية المتحركة، واسم التكييف الإمبراطوري، وأطلق عليهـا بعض اختصاصيـي العـلاج الطبيعـي اسـم تسلسـل الاسـتجابة نحو التنبيه المشروط.

يعـد مـارك فيليبس وكاثـي أوبرين التـي شـاركت في تأليف كتاب نشـوة إعـادة تكويـن أمريكا مـن أشـهر المروجين لمشـروع (Monarch) الذي اتسـم بالفكر الأحادي. وتحتوي هذه السـيرة الواهية على وصف دقيق لسـني والد أوبريـن الذي يُنسَـب إليـه تلقين ابنته (كاثـي) مبادئ مشـروع (Monarch). وبالتعـاون مـع المؤلِّـف مـارك فيليبس الـذي كان عميـلًا سـابقًا للمخابرات المركزيـة الأمريكية، والـذي يفترض أنه منقذهـا - بعد إزالته ما تعرَّضت له مـن برمجة لعقلها- تسـترت كاثي على مجموعة مـن جرائم التآمر الدنيئة، أهمهـا: الإكـراه علـى البغـاء (الـرق الأبيض بوصفـه نموذجًا رئاسـيًّا) مع أولئـك الذين يتبوؤن مناصب عليا في عالم السياسـة والمال والأعمال والمهام الخفية(مثـل ترويـج المخـدرات)، والتجسـس، وصنـاعة الموسـيقى الغربية،

وعلاقة اتحاد كرة القاعدة (البيسبول) الجوهرية بأنشطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية غير الشرعية. وعلى أيٍّ حال، فحتى اليوم لم يُحقَّق في تلك المزاعم من مصادر موثوقة.

وفي السياق نفسه، زعم شخصان آخران أن لديهما معلومات مهمة عن مشروع (Monarch)، وهما: فرتز سبرنقمير، وسسكو وييلر اللذان ألَّفا معًا كتابًا ضخمًا يحمل عنوانًا غريبًا هو صيغة الطبقة المستنيرة التي استُخدمت في اكتشاف مدى السيطرة على عقول الرقيق. ويبدو الكتاب للوهلة الأولى موسوعة في فن التحكم في العقل، مترعة بأساليب وتقنيات تفصيلية، استُخدمت في البرمجة التي ترتكز على الصدمة. وقد اضطلع فيه سبرنقمير (عُرِف أيضًا باسم فكتور سكووف) المجرم الذي اتُّهِم مرتين، ونصَّب نفسه قسيسًا، اضطلع بدور المنقذ ومعدل البرمجة الذي أنقذ ضحية مشروع (Monarch) المزعومة، وييلر التي عُرِفت أيضًا باسم ليندا أندرسون. وشأنهما شأن فيليبس وأوبرين، فإن كثيرًا من المعلومات التي نشراها كانت منطقية، بيد أن بقية المعلومات قامت على التنظير والظن، في أفضل حالاتها.

من جانبه، أفصح تيد غوندرسون، العميل السابق للمخابرات المركزية الأمريكية عن مزاعم لا تستند إلى دليل قاطع، فيما يتعلق بطقوس الاعتداءات الشيطانية، ومشروع (Monarch) السيئ الذكر: فبالغ في تجميل الحقائق، وذهب بعيدًا أكثر من سابقيه، فتحدث على الملأ، وظهر في برامج تلفازية عدَّة للحديث عن الموضوع نفسه. كان غوندرسون دائمًا حانقًا على مايكل أكينو، المقدَّم السابق في الجيش الذي كان متخصصًا في مجال

الحرب النفسية، ومؤسس معبد سيت (أحد فروع كنيسة الشيطان). كان أكينو هذا ينفي وجود أيٍّ دليل مادي على تشكيل عصبة شيطانية منظمة تختطف الأطفال، وتعذبهم، وتضحي بهم. وبالطبع، كان لا بد للمحصلة النهائية لهذا اللغط كله أن تجعل المراقب في حيرة من أمره. فهل كان القصد من هذا الجدل هو الاحتواء، أم أن الحقيقة تكمن في مكان ما في الوسط؟

كانت منظمة الذاكرة الخادعة التي ظهرت عام 1992م تعارض معارضة شديدة إجراءات العلاج النفسي التي تهدف إلى استرداد الذاكرة، وتقلل - في الوقت نفسه- من أهمية وجود ممارسات الاستغلال الجسدي الموجَّهة للأطفال. وكان القائمون على أمرها يتهمون أطباء الصحة العقلية بغرس ذاكرات جديدة عن طريق الإيحاء والتنويم المغناطيسي. وقد ضم مجلس إدارة المنظمة جولي ويست التي كانت تعمل طبيبة في مشروع (MKUltra)، والدكتور رالف أندرويقر. فهل كان هؤلاء جزءًا من السيطرة المدمرة للتشكيك في صحة مزاعم الناجين ومعاناتهم بسبب مشروعات السيطرة على العقل وما نجم عنها من استغلال؟ وعلى كلٍّ، فقد اتُّهِمت هذه المجموعة بالتضليل وتشويه الحقائق الأكاديمية والعلمية التي تتعلق بالذاكرة.

وفي السياق نفسه، لم يتوصل هارلان جيرارد (المخبر والناشط السياسي) إلى دليل على وجود مشروع (Monarch)، ولم يورد أيَّ ذكر له قبل عام 1990م. وبالمثل، فقد عجز المؤلِّف والمحقق الصحفي هـ. ب. ألبارلي عن العثور على أيٍّ دليل يؤكِّد وجود مشروع مثل هذا ضمن مظلة مشروع (MKUltra). وحتى في ظل الحقيقة التي تؤكِّد إثارة بعض الأشخاص معلومات مشكوك فيها عن مشروع السيطرة على العقل الشائن هذا، فإن

بعض الضحايا الأبرياء - على الجانب الآخر- ممن نجوا من التعذيب قدَّموا تفسيرات منطقية. وكتابات مقبولة عن برنامج السيطرة على العقل الذي يقوم أساسًا على الصدمة، شأنهم في ذلك شأن بعض اختصاصيي الطب النفسي والمحققين الصحفيين.

من جانبه، قدَّم الدكتور كوريدون هاموند (أستاذ علم النفس في جامعة يوتا) محاضرة مذهلة تحمل عنوان «استخدام التنويم المغناطيسي في علاج اضطراب تعدد الشخصية: إساءة استغلال الطقوس»، وذلك ضمن فعاليات المؤتمر السنوي الرابع للإقليم الشرقي، الذي عُقِد في الإسكندرية بولاية فيرجينيا، في الخامس والعشرين من يونيو عام 1992م. أكَّد هاموند في محاضرته شكوك عدد كبير من اختصاصيي الصحة العقلية الذين أفادوا بتعرُّض نسبة لا يستهان بها من مرضاهم للسيطرة على عقولهم بوساطة برامج منهجية مكثَّفة، وقد ألمح هاموند في محاضرته تلك إلى العلاقة بين النازية، والجيش، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية، فيما يخص بحوث السيطرة على العقل، والحرف الإغريقي، وبرمجة اللون، ولا سيما علاقة مشروع (Monarch) بما عُرِف باسم العملية المشروطة. وبالرغم من تراجع هاموند عن استخدام مصطلح مشروع (Monarch)، فإنه ظل متمسكًا بفرضية وجود تجارب محمومة للسيطرة على العقل.

أمَّا اختصاصية العلاج النفسي فاليري وولف التي تنتمي إلى مدينة أورليانز الجديدة، فقد قدَّمت في الخامس عشر من مارس عام 1995م اثنتين من مرضاها إلى اللجنة الرئاسية التي تُعنى بالبحث في آثار التجارب الإشعاعية على الإنسان، والتي تعقد اجتماعاتها في العاصمة واشنطن. كانت

شهادة المريضتين مذهلة، فقد اشتملت على وصف لبعض الأطباء الألمان، والتعذيب، وتعاطي المخدرات، والتعرُّض لصدمات كهربائية، والتنويم المغناطيسي، والتعرُّض لكم هائل من الإشعاع، وقد أفادت وولف ومريضتاها أنهن تمكَّن من استعادة الذاكرة إثر تعريضهن لمشروع المخابرات المركزية الأمريكية هذا، من دون نكوص أو تنويم مغناطيسي.

وأمَّا الطبيب النفسي ألين ب الذي يحظى بقدر وافر من التقدير و الاحترام في سان دييغو بكاليفورنيا، فقد كتب مقالات عدَّة عن العلاقة الحميمة بين مشروعات السيطرة على العقل وطقوس التعذيب والصدمة. وألَّف الدكتور كولن أ. روس، وهو طبيب نفسي أيضًا يحظى بشهرة واسعة، كتابًا مهمًّا عنوانه الطائر الأزرق... أطباء نفسيون يتعمدون تشكيل شخصيات متعددة، وهو يعد بحق عملًا فريدًا؛ إذ وصف فيه كولن التجارب غير الأخلاقية التي أُجريت بإشراف أطباء نفسيين مجردين من الضمير، بهدف مسح ذاكرة الضحايا الأبرياء، وإيجاد هويات جديدة لهم، وابتكار رموز جديدة في التنويم المغناطيسي، وزرع ذاكرات جديدة في عقولهم.

كتبت كاثلين سوليفان، إحدى ضحايا مشروع (MKUltra)، كتابًا في صُلْب الموضوع، عنوانه فك الأسر... حكاية أحد الناجين من مشروعات السيطرة على العقل، وقد تحدثت فيه عن تجاربها الشخصية، وما تعرَّضت له ممن سَمَّتها شبكة إجرامية ضمَّت أفراد مخابرات، وعناصر من الجيش، وأطباء، واختصاصيي صحة العقل المتعاقدين مع القوات المسلحة، ووكالة المخابرات المركزية، ومجرمي الطوائف الدينية من القادة والأعضاء، ومؤيدي الاعتداء على الأطفال، والإباحيين، ومتعاطي المخدرات، والنازيين.

تعيد كاثلين إلى الذاكرة في كتابها هذا حكاية برنامج محدَّد وُضِع في عقول شخصياتها البديلة، ويتعامل مع فراشة ملكية... حدث هذا قبيل معرفة العامة لمصطلح مشروع (Monarch).

كتبت كارول روتز؛ إحدى الناجين أيضًا من أهوال مشروع (MKUltra)، كتابًا حمل عنوان خيانة أمة... تجارب الحرب العالمية الثانية السرية على أطفالنا وغيرهم من الأبرياء، وقد تميَّز هذا الكتاب عن غيره مما أُلِّف في موضوعه، بسهولة تتبع أحداثه؛ لما اشتمل عليه من ذكر للوثائق التي حصلت عليها المؤلِّفة بموجب قانون حرية المعلومات، وفيه وصفت روتز تجربتها الشخصية وصفًا تقشعر له الأبدان؛ إذ تعرَّضت وهي طفلة غضَّة لم تتجاوز سن الرابعة للصعق بالصدمات الكهربائية، والحقن بالمخدرات، والتنويم المغناطيسي، والحرمان الحسي، والصدمة المرعبة.

يتضح من تأمل الأحداث الماضية أن عهد مشروع (Monarch) الذي ظهر في تسعينيات القرن الماضي، كان مزيجًا من الهستيريا والتضليل الإعلامي، وأنه يماثل الوصف المؤكد لما كانت ترتكبه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية من فظائع وأهوال بحق الأبرياء.

من الأسماء اللامعة التي تناولت هذا الموضوع بالمناقشة والتحليل رون باتون، وهو باحث متخصص في المؤامرات، وكاتب، ومؤلِّف، والمنتج التنفيذي للفيلم التلفازي «جنون العظمة» الذي يُعرَض على قناة (Tesla Wolf) الإعلامية. كان لباتون معرضًا في سان ديغو بكاليفورنيا عُرِف باسم برنامجه هذا، وكان يقدِّم برنامجًا عن جنون العظمة في الإذاعة، وقد

حَلَّ ضيفًا في العديد من البرامج الإذاعية والمدوَّنات الصوتية. وامتد نشاطه أيضًا ليشغل وظيفة المنتج التنفيذي لبرنامج «مؤامرة جنون العظمة». وهو برنامج يُسلِّط الضوء على بعض أكثر المتحدثين اطِّلاعًا في مجال المؤامرة وجنون العظمة. وإلى جانب هذا كله، فباتون هو ناشر مجلة (MKzine) المتخصصة في موضوعات السيطرة على العقل قسرًا، والتجارب البشرية، وغير ذلك من موضوعات الابتزاز والاستغلال الأُخرى.

وبالرغم من كشف النقاب عن عصر مشروع (MKUltra) وإسدال الستار عليه عقب جلسات الاجتماع التي عقدها مجلس الشيوخ في سبعينيات القرن الماضي، فإن معظم السياسيين من مُنظِّري المؤامرة يعتقدون أن تلك البرامج قد استمرت أيضًا طوال عقد تسعينيات القرن الماضي بأسماء مختلفة. سنتعرَّف في فصل لاحق كيف أن طرائق السيطرة على العقل تلك تبدو بدائية، مقارنةً بما يمكن أن تكون عليه الحال اليوم، في ظل هذه التقنية المتقدمة التي تقدِّم المساعدة الضرورية للسيطرة على أفكار الآخرين وسلوكاتهم، وفي الحقيقة وطبقًا لمعطيات الواقع، يعد تعريض شخص ما لصدمة داخل أحد المعامل ممارسةً تعود إلى عصر ما قبل التاريخ. ويمكن لنا اليوم إرسال صوت داخل العقول مباشرة، فنجعل الناس يفعلون أشياء لم يدر بخلدهم يومًا أنهم سيأتونها.

يشير الفصل التالي إلى أنه حتى الطرائق البسيطة جدًّا، وتلك المتناهية في البساطة، يمكنها العمل بكفاءة في عقل لم يكن أحد يتوقع مطلقًا أنه سيؤتى يومًا ما من هنا أو هناك، بصرف النظر عن براعة الجهة المؤثِّرة وقوتها.

الفصل الرابع

أدوات التحكم وتقنياته

«الأداة الأساسية للتلاعب بالحقيقة تعني التلاعب بالكلمات؛ فإن استطعت التحكم في معاني الكلمات، فإنك حتمًا تستطيع التحكم في الناس الذين يتعين عليهم استخدام هذه الكلمات».

فيليب ك. ديك

«إذا لم تستطع التحكم في عقلك، فثمَّة مَن يقوم بالأمر نيابةً عنك».

جون ألستون

«لا أعرف حقًّا ما الذي حدث تحديدًا؛ فكل ما أعرفه أنني كنت هناك، لقد أخبروني أنني قتلت كينيدي، صحيح أنني لا أتذكر ما الذي فعلته، بيد أني أعلم جيدًا أنني لم أكن أنا ذلك الشخص الذي أعرفه عن نفسي... لقد كنت شخصًا آخرَ».

سرحان سرحان

لكي تتحكم جيدًا في تصرفات شخص آخر وأفكاره: لا بد من امتلاك تقنية معينة وأدوات محدَّدة، ولا سيما إذا كانت هذه التقنية وتلك الأدوات فاعلة في تغيير الشخص المستهدف، واستبدال الشخص المطلوب به: قد

تكون تقنية التحكم في العقل خفية لا يشعر بها الشخص المستهدف الذي يُراد التحكم فيه، ومع هذا يحدث التلاعب في حالات كثيرة بطريقة مكشوفة، وحتى مشؤومة.

أورد عالم النفس جورج ك. سايمون في كتابه ثياب الحملان... كيفية فهم الأشخاص الذين يُراد التلاعب بهم والتعامل معهم ما نصه: «لا يمكن التلاعب بنجاح بشخص ما، إلّا إذا استطاع الشخص المتحكِّم أو المسيء أن:

1. يخفي نواياه وأهدافه العدوانية.
2. يدرك جيدًا نقاط الضعف النفسية لدى الشخص المُستهدَف، ويُعدِّل وسائله تبعًا لذلك.
3. يكون قاسيًا كما ينبغي، ولا يهتم لما قد يصيب الضحية من ضرر.
4. يعتمد طرائق عدوانية خفية، كأن تكون وسائل عدوانية سلبية».

فتحديد نقاط ضعف الضحية أمر مهم جدًّا للوصول إلى حالة التحكم الكامل، ولهذا نجد كثيرًا ممن يتحكمون في عقول الناس يملكون عينًا ثاقبة، تلتقط نقاط الضعف تلك مبكِّرًا، مُحقِّقةً لصاحبها أعظم فائدة بطرائق مختلفة.

الدعم

يعد الدعم إحدى أكثر الطرائق الذكية براعة لحمل الآخرين على فعل ما تريده منهم، معتمدًا الدعم وسيلةً وسلاحًا في الوقت نفسه، وهو نوعان: إيجابي، وسلبي.

الدعم الإيجابي

يشتمل هذا النوع من الدعم على استخدام المديح والإطراء، وعبارات الإعجاب والاعتناء، والعواطف الجياشة، والهدايا، والإفصاح عن الحب، وذلك لإيجاد إحساس بالإعجاب منقطع النظير لدى الضحية، وقد اعتمد النرجسيون والأطباء النفسيون هذا الأسلوب الذي عُرف باسم قنبلة الحب لبث الطمأنينة في نفس الضحية، ثم تهيئتها لما يمكن أن يكون - للأسف- سقوطًا وحشيًا قاسيًا مدويًا، مما كانت ترفل فيه من نعمة عظيمة، عندما يتم تحقيق المقصود.

يستخدم الدعم الإيجابي أيضًا في تدريب الكلاب والخيل؛ إذ إنه يحقق نتائج مذهلة، مقارنةً بأسلوب العقوبة. وحتى حين يُوظَّف هذا الدعم لمصلحة الفرد (مثل: مدح طفل صغير في المدرسة والثناء عليه، أو استخدام الإطراء في أثناء تدريب الرياضيين)، فإنه يُعزّز الثقة واحترام الذات لدى الأفراد، والعجيب الغريب أن نقيضه يُفضي إلى النتيجة المزدوجة نفسها؛ إذ قد يساعد الفرد المُستهدَف أو يضره في الوقت نفسه.

تستخدم الطوائف الدينية غالبًا الدعم الإيجابي، ولا سيما في المراحل المبكّرة من إقامة العلاقة بين قادة الطائفة وأتباعها (سنستعرض المزيد عن الطوائف الدينية في الفصل السابع). ويعد هذا الأسلوب أيضًا واحدًا من الطرائق الكثيرة المتَّبعَة لتجنيد أتباع لهذه المنظمة الدينية أو تلك -عن طريق إيهامهم أنهم صفوة الله المختارة، أو أنهم مميزون عن سائر البشر

عند الله - وهو أسلوب يُستعمَل لتكوين صورة إيجابية لا تترك مجالًا لسلوك أو مواقف سلبية.

وفي المقابل، فقد يفضي هذا الأسلوب - أحيانًا- إلى إيجاد إحساس بالحب المزيف والألفة الخادعة، اعتمادًا على الدوافع والمحفزات، فينقلب على الضحية لاحقًا، عندما يكشف السلوك الاستغلالي عن وجهه القبيح.

الدعم السلبي

يتعارض الدعم السلبي تعارضًا كاملًا مع الدعم الإيجابي؛ إذ يعتمد أساليب أُخرى، مثل العنف والانتقاد والتهميش، لتوجيه الضحية نحو تصر ف معين، وقد يتضمن أيضًا التوبيخ، والصراخ، والإهانة اللفظية، والعنف الجسدي، والعنف النفسي، وجعل الضحية تشعر بالذنب، لحملها على القيام بتصرفات محدَّدة سلفًا؛ فقد حدث - مثلًا- أن درَّبنا كلابًا عن طريق الدعم السلبي مدة طويلة. فحشرنا أنوفها في فضلاتها، وصفعناها على أنوفها أيضًا، في حال قيامها بعمل خطأ، فتبيَّن لنا بمرور الوقت، بما لا يدع مجالًا للشك، أن الدعم الإيجابي أفضل كثيرًا من نقيضه.

أمَّا بالنسبة إلى الإنسان، فالثابت أن العنف والتخويف واللغة الفجَّة، كلها وسائل فاعلة في الإهانة والإذلال، وتحقيق السيطرة المطلقة على الضحية، وقطعًا يشمل الدعم السلبي - في أقصى حالاته- التعذيب والإساءة إلى الشعائر الدينية. وسنناقش هذا الأمر بتفاصيل أوفى لاحقًا.

بيد أن ما يثير الاهتمام حقًّا يكمن في اعتماد أكثر الوسائل شرًّا: أي الأسلوبين معًا: الإيجابي والسلبي. علمًا بأن الدعم المتقطع يكون أكثر انحرافًا وتأثيرًا في إيجاد نوع من التنافر المعرفي لدى الضحايا الأبرياء، الذين لا يملكون سوى التسليم لِمَن يسيء إليهم. وبسبب اعتماده على الشك، والخوف، والقلق، والتوقعات، والأمل: فإن الدعم المتقطع يعزف على أكثر أوتار الحاجات العاطفية حساسية. التي تتوق إليها إنسانيتنا، فيُحوِّلها إلى أعنف الصدمات وأقبحها، ما قد يدفع الضحية إلى الجنون الفعلي أو الانتحار.

يمكن تصور الأمر على النحو الآتي: يعتمد المتحكم (أو المسيء) في البداية دائمًا على الدعم الإيجابي، لتحفز شهية الضحية إلى الحصول على المزيد، ثم يعمد إلى حجب هذا الدعم الإيجابي عن الضحية بصورة متقطعة، فتصاب بالقلق والارتباك، ما يزيد شهيتها للحصول على المزيد مما حصلت عليه في البداية بأيِّ وسيلة، وهنا تحين اللحظة المناسبة لكي تتقبل حتى الدعم السلبي، ما دام يخالطه دعم إيجابي. عندئذٍ يمكن للشخص المتحكم (أو المسيء) الشروع في تعذيب ضحيته فعليًّا، التي تتعطش الآن لما حظيت به من حب وعناية في البداية، ولهذا تكون مهيأة تمامًا لمزيد من الاستغلال وغياب الدعم الإيجابي، فسرعان ما تقنع بما تحصل عليه من نزر يسير جدًّا لا يكاد يذكر من الدعم الإيجابي، من المتحكم (أو المسيء) الذي أصبح الآن يسيطر عليها سيطرة تامة: جسديًّا وعاطفيًّا.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الدعم المتقطع قد يقود الضحية إلى الهواجس، فتضطر إلى فعل أيِّ شيء للحصول على أيِّ قدر من الدعم الإيجابي (مهما كان ضئيلًا) الذي غُمِرت به بدايةً. فيما يُعرَف في علم النفس باسم ترابط الصدمة.

يُذكَر أن أشكال التلاعب الخفي بالمشاعر تساعد على خضوع الضحية لسحر الصدمة؛ لأن الدمار يكون قد اكتمل على مستوى اللاوعي، فيكون الوقت قد تأخر كثيرًا حين يكتشف بعض الأبرياء الضحايا ما لحق بهم من ضرر التلاعب بعقولهم، ووقوعهم أسرى لأفراد مرضى مختلين، يصرون على التحكم فيهم واستغلالهم. ولا يُغيِّر هذا النوع من التلاعب سلوك الضحية فحسب، بل يُغيِّر أيضًا أفكارها ونظرتها إلى الحياة وحقيقتها الفعلية. ويسلبها بمرور الوقت إرادتها وقدرتها.

قد يعتقد بعض الأشخاص أن الأغبياء والضعفاء واليائسين هم وحدهم الذين يقعون ضحايا لهذا النوع من السيطرة. ولكن أسهل الضحايا سقوطًا في الحقيقة هم العاطفيون بصرف النظر عن درجة ذكائهم، ويبدو أن المسيطرين المسيئين يتسلَّطون على أصحاب القلوب المرهفة المفعمة بالعواطف التي تثق في الجميع، وهذا ما يُفسِّر سبب استخدام الأطفال في تجارب التحكم في العقل والاستغلال العقدي، فقد عُرِف عن الأفراد الذين يتميزون بحدَّة الذكاء رغبتهم الانضمام إلى الطوائف الدينية. صحيح أن الأمر لا يتعلق بحدَّة الذكاء فحسب، بل يتعلق أساسًا بمدى ثقة الضحايا بالآخرين والاهتمام بهم والانفتاح عليهم، ما يجعل منهم هدفًا محكمًا، وصيدًا ثمينًا للمستغلين؛ إذ يبحث المرضى النفسيون دائمًا -تمامًا كما يفعل النرجسيون- عن الأشخاص العاطفيين لاستغلالهم وإفسادهم. فكلا الفريقين أستاذ في التحكم في عقول الآخرين. وبالطبع فليس للأمر علاقة بالذكاء. وإنما له علاقة قوية بالأفراد الذين يثقون كثيرًا بالناس، ويهتمون بالآخرين، وينفتحون عليهم.

الإقناع القسري

يعمل الإقناع القسري وفقًا للمبدأ نفسه؛ إذ تُستخدَم أدوات مدمرة للسيطرة على العقل، وسلب المرء القدرة على التحكم في ذاته. ستيفن ألان حسن (المستشار المرخَّص والعضو السابق في كنيسة التوحيد الذي يدير اليوم مركز حرية العقل الذي يُعنى بالبحث في كيفية مساعدة الناس الذين هم بحاجة إلى إعادة برمجة، لكي يتحرروا من سيطرة الطوائف الدينية وتحكمها في مصيرهم) يقول واصفًا الإقناع القهري، والسيطرة على العقل، وغسيل المخ، في مقابلة مع الكاتب ليَّان ليدوم (يعمل طبيبًا أيضًا) عام 2007م: «التحكم في تدمير العقل ينزع منطقة التحكم من عقل المرء». ويمكن عمل ذلك بأربع تقنيات أساسية للتلاعب المنظَّم، ثم تغيير هوية الفرد وذاته، وتُعرَف هذه التقنيات اختصارًا بـ (BITE)، وتشمل القدرة على التصرف، والمعلومات، والأفكار والعواطف.

قد يشمل تعديل السلوك إخبار الفرد المعني بالطريقة التي يرتدي بها ملابسه، وكيف يتصرف، ويمارس عبادته، وينظر، ويأكل، وينام؛ فالفكرة الأساسية تكمن في أن تشمل السيطرة، بمرور الوقت، كل ما يتعلق بسلوكه، فيعتمد كليًّا على المتحكِّم فيه (المفسِد له)، ثم يفقد التحكم الذاتي بصورة كاملة.

أمَّا المعلومات التي تُقدَّم للضحية، فيُتحكَّم بها وفق رغبة المتحكِّم (المسيء)، لتغيير حقيقة الضحية ونظرتها إلى الحياة، في حين يُسيطَر على الأفكار والعواطف بقبضة من حديد. ويُمنَع الضحايا ألبتة من التفكير في شأن أنفسهم، ويُقابَل تعبيرهم عن عواطفهم بغضب عارم. هذا إذا لم

يعاقبوا عليه حالًا. يُذكَر أن الخوف والعار والتأنيب يسهم إسهامًا فاعلًا في تشكيل عقلية الفرد أو تغييرها، ولا سيما الخوف من الأذى الجسدي و(أو) الموت. وهنا يكمن السر الذي يجعل التعذيب وسيلة فاعلة جدًّا في انتزاع الاعتراف من الأفراد بالجرم، حتى لو كانوا بريئين. وإلى جانب هذا كله، يؤدي الحرمان من الطعام، والماء، والنوم، ووسائل الاتصال، والتعريض للضوء، أو لأشكال أُخرى من الحرمان الجسدي، إضافةً إلى التلاعب النفسي؛ يؤدي هذا كله إلى تحويل أقوى العتاة إلى مجرد عجينة طيِّعة يمكن تشكيلها حسب الطلب.

وعطفًا على الحديث عن تقنيات غسيل المخ، فإن ثمَّة طريقة أكثر بُطئًا، بيد أنها أكثر منهجية في تدمير عزيمة الضحية وذاتها من أسلوب التعذيب المباشر أو العنف الجسدي. فقد كتبت الدكتورة مارجريت سينجر (اختصاصية علم النفس الإكلينكي)، مناهضةُ السيطرة العقدية التي ركَّزت دراساتها على اعتماد غسيل المخ، والعقائد الدينية، والإقناع القهري في السيطرة على العقول: كتبت في مقال لشبكة (F.A.C.com)، عنوانه التقنيات القهرية للسيطرة على العقول: «أنظمة علم النفس القهرية هي برامج للتغيير السلوكي، تستخدم القوة النفسية بطريقة قهرية لتعليم فكر معين وإتباعه، أو معتقدات محدَّدة واعتناقها، أو أفكار، ومواقف، أو سلوك». وقد تضمن المقال قائمة من التقنيات التي تُستخدَم في تحقيق هذه التغييرات النفسية التي تفعل فعلها في الفرد والجماعة.

تعزيز قدرة التأثير بالإيحاء

يرتكز تعزيز قدرة التأثير بالإيحاء على الإفادة من الإيحاء السمعي والبصري والصوتي في زيادة التحفيز. ويعتمد أحيانًا وسائل أُخرى لتحقيق الغاية نفسها، مثل: التنويم المغناطيسي، والحرمان من النوم، والحد من الماء والطعام.

السيطرة على البيئة الاجتماعية والدعم

يعمد المتحكم (أو المسيء) إلى استخدام الحوافز والعقاب، بما في ذلك العزلة الاجتماعية، والحرمان من التواصل مع العائلة والأصدقاء، مما يضطر الضحية إلى الاعتماد عليه، أو على الطائفة الدينية التي تتحكم فيها.

حجب المعلومات المضادة

لا يسمح بوصول أيٍّ معلومات خارجية إلى أذن الضحية، إذا كانت تتعارض مع أهداف الجهة المسيطرة (المسيئة)، أو الطائفة الدينية المعنية.

إعادة تقييم التجارب السابقة للضحية

يضع المتحكم (أو المسيء) نَصْبَ عينيه تقويض أيٍّ وعي للفرد المعني بتجارب سابقة وتدميره، وطمس أيٍّ وجهة نظر علمية، وتشويش ماهية

حقيقة الهوية، والسيطرة على العواطف، وتدمير أيٍّ وسائل للدفاع عن النفس. وإحلال سيرة حياة جديدة وحقائق جديدة بدلًا من ذلك كله.

إضعاف القدرة

يُقصَد بذلك تعريض الضحايا من وقت إلى آخر لممارسات وضغوط هائلة، تدمِّر ثقتهم بأنفسهم، وتشل قدرتهم على الحكم على الأشياء.

الإثارة العاطفية السلبية

تقوم الإثارة العاطفية السلبية على استخدام وسائل عقاب غير جسدية، لتغيير العواطف والسلوك، بحيث تشمل العار، والإحساس بالذنب، والتوبيخ، والعزلة الاجتماعية.

التخويف

يلجأ المتحكم (أو المسيء) إلى بث الرعب في نفس الضحية بإصدار قرار يُهدِّد الجماعة، ويفضي إلى عقوبة معينة بحقها، إذا رفضت الضحية الخضوع لرأي المتحكم أو معتقداته... .

ويبدو جليًّا أنه كلما كانت هذه التقنيات المستخدمة قاسية وصارمة استسلمت الضحية بسرعة وسهولة، وبوجه عام يعاني الأبرياء الضحايا

حالات دائمة من الارتباك، والتشويش، والفوضى، واضطراب ما بعد الصدمة، حتى بعد ابتعادهم عن المتحكمين فيهم ومصادر الإساءة إليهم، ما يجعلهم يعانون أعراض نوبات حادة من الكآبة، والقلق، والخوف، والأرق، والأمراض الجسدية، والوهن العاطفي، وعدم القدرة على التركيز، وقائمة طويلة عريضة من الاضطرابات الأُخرى، والعجيب الغريب أن حالة السيطرة هذه تلازم الضحية حتى بعد ابتعادها عن مصادر التحكم فيها، ما يدفعها إلى الانتحار، أو الجنون، ولهذا فهي تحتاج إلى رعاية طبية نفسية خاصة، ما لم يتوافر الدعم اللازم والعناية الكافية في الوقت المناسب.

البلاغة والعقيدة

تعد البلاغة أو إتقان فن الخطابة، إضافة إلى العقيدة، أسرع وسائل السيطرة تأثيرًا وانتشارًا، ويمثّل اجتماعهما واحدًا من أخطر أنواع التطرف الديني، وهما يمثّلان أيضًا توأمًا خطيرًا لتحريف نهج أتباع الطوائف الدينية؛ سعيًا إلى انتزاع ولائهم المطلق، وتغيير عقيدتهم وهويتهم تغييرًا كاملًا، وإخضاعهم بصورة مطلقة لرغبة زعيم الطائفة المعنية أو زعمائها.

والبلاغة - كما هو معروف- فن استخدام الحجة والحديث لإقناع الآخرين بوجهة نظرنا ومعتقداتنا؛ فقد كان فلاسفة قدماء الإغريق يُدرِّسون البلاغة بوصفها وسيلة مساعدة للتواصل. تشمل ثلاثة أشكال للمناشدة؛ بغية تغيير معتقدات الشخص:

1. الشعارات: تشمل استخدام الحجة المنطقية، والحث، والاستقراء، والاستنباط.
2. الرثاء: يُقصَد به إيجاد رد فعل عاطفي لدى المستمعين.
3. روح الفرد: تعني محاولة إظهار صورة مؤثرة من الثقة والسلطة والجاذبية.

تجدر الإشارة إلى أن التوازن بين المنطق والثقة والعاطفة يساعد على مناقشة الخلافات بصدق وصراحة وانفتاح. بيد أنه - كما في كثير من الأشياء- ثمَّة جانب مظلم في الأمر؛ إذ توارت البلاغة (أو الخطابة)، وكادت تختفي بسبب السياسيين، ورجال الدين، وزعماء الطوائف الدينية المتعطشين لإقناع أتباعهم بمناصرة معتقدات معينة وسلوك محدَّد؛ لكي يسهل عليهم اتباع أفكارهم الطائفية التي يرى فيها هؤلاء القادة مبادئ أساسية تمثِّل الحق المبين، والنموذج المثالي الذي يسعون إلى فرضه عليهم؛ فالعقيدة هي الركيزة الأساسية لأيٍّ معتقد أو فكر، بل إنها تمثِّل بذرة الفكر نفسه. وفي الوقت الذي تعد فيه البلاغة واحدة من الأدوات الكثيرة التي تُستخدَم في فرض العقيدة على أولئك الذين يُراد لهم البقاء ضمن إطار النموذج المحدَّد، فإن للعقيدة المتطرفة مفهومًا سلبيًا لدى الكثيرين؛ بسبب ارتباطها بالسياسة والدين اللذين يُكرِهان أتباعهما على قبول فكرة معينة أو وجهة نظر محدَّدة، حتى لو لم تخدم مصلحتهم المفضَّلة. وعلى أيٍّ حال، يبقى موضوع السيطرة على العقل أسير مستخدميه، فإذا استطعت استخدام الوسائل الصحيحة لحشد الناس إلى كنيستك، أو التصويت لك - حتى لو ألحق بهم ذلك الضرر- فإنك تنجح فعلًا في السيطرة على عواطفهم وعقولهم.

وهكذا، يعمد الأشخاص الذين يتمتعون بحضور لافت وجاذبية واضحة، إلى الإفادة من البلاغة في دفع الآخرين إلى حالة من الاستسلام العاطفي الذي لا يقوم على منطق؛ بغية مساندة معتقداتهم. فقد كان أدولف هتلر مُعلِّمًا في استخدام الكلمات لإقناع الناس بتغيير معتقداتهم، فكانوا عقب كل نقاش أو خلاف يتبعون ما يطرحه من عقيدة، فلقي الملايين حتفهم نتيجة هذه التوليفة الفاعلة: البلاغة والعقيدة.

التشبث بالترابط/ متلازمة استوكهولم

أدى التحوُّل من التقنيات شديدة القسوة إلى تقنيات أُخرى أقل قسوة وعدوانية إلى نشر فوضى عارمة واضطراب شامل في تفكير الضحايا، ويمكن تشبيه هذا التبادل في التقنيات بتعرُّض زوج لآخر شديد الإساءة، لكنه يكون - أحيانًا- وقورًا محبًّا، علمًا بأن هذا الأسلوب يؤتي أُكله بصورة أفضل من الاستغلال الجسدي المستمر، فيشكر الأبرياء الضحايا لجلاديهم تلك اللحظات الطيبة، ويحرصون على العلاقة التي تربطهم بهم، فيما يُعرَف بمتلازمة استوكهولم.

بوجه عام، تتولد لدى أسرى الحروب والرهائن مشاعر إيجابية تجاه آسريهم، قد تبلغ حدَّ الولاء، في حال استُخدِمت تقنية متلازمة استوكهولم هذه؛ إذ يرى السجانون (المسيئون) أن غياب القسوة والاستغلال بعد وقت طويل من ممارسة التعذيب الجسدي والنفسي يعد نوعًا من العطف والكرم، وهو ما يفضي إلى ظهور عاطفة جياشة تربط الجلاد بالضحية،

وتجعل الثاني يرى في الأول منقذًا ومخلِّصًا، بيد أن للغرور أيضًا دورًا في هذه الظاهرة: فقد تطور الضحية هذه المتلازمة، إثر تعرُّضها للإساءة والتعذيب مدة طويلة، إلى وسيلة دفاع، وقد تُستعمَل أيضًا مقياسًا للتكيف في أثناء رحلة تطورنا عندما كان أسلافنا يُختَطفون، أو تُحتل أراضيهم، أو تجتاحهم قبائل محاربة، أو تدهمهم أمم غازية: فإذا ثار المنهزمون وحاربوا الغزاة، فربما قضوا جميعًا مع أُسرهم، ولهذا فإنهم يعمدون إلى إقامة نوع من الترابط (الاتفاق) مع العدو؛ لكي يحافظوا على حياتهم، ولو مدة قصيرة، وينتهي بهم الأمر غالبًا إلى الانضمام إلى جلاديهم، أو - على الأقل- تجنب الموت على أيديهم، بل قد يذهب الضحايا -أحيانًا- إلى أبعد من هذا، فيتبنون أهداف جلاديهم، ويتحوَّل ولاؤهم كله إلى معسكر الغزاة وخدمة مصالحهم.

ظهر مصطلح متلازمة استوكهولم إثر حادثة سرقة مصرف وقعت عام 1973م في نورما لمستروق في استوكهولم بالسويد، حيث احتُجِز موظفو المصرف رهائن في قبوه ستة أيام، وقد استمرت المواجهة في الوقت الذي كان فيه المعتدون يتفاوضون مع الشرطة. ولكن خلال الأزمة، أنشأ الموظفون علاقة عاطفية مع اللصوص المعتدين. حتى إنهم بدؤوا ينظرون إليهم نظرة مغايرة، مؤكدين حقهم في تصرفهم هذا ضد الحكومة السويدية. ليس هذا فحسب، بل دافعوا عمَّا أقدم عليه المعتدون بعد تحريرهم من محنتهم التي استمرت ستة أيام.

وقد حدث العكس تمامًا عندما تسلَّلت إلى نفس الخاطفين علاقة عاطفية ربطتهم برهائنهم، فيما عُرِف بمتلازمة ليما. جرت أحداث هذه الواقعة في

ليما بالبيرو عام 1996م، عندما احتجزت مجموعة عسكرية متمردة مئات الرهائن في حفل أقيم لتكريم السفير الياباني، ثم أطلق المتمردون سراح معظم الرهائن نتيجة تعاطفهم معهم.

قد يرى معظمنا أنه لن يتعرَّض لتجربة مثل تلك أبدًا. ولهذا لن يجد نفسه يومًا ما مضطرًّا إلى تجربة تلك العلاقة الغريبة، بيد أن أطباء علم النفس يؤكِّدون تلك العلاقة التي تنشأ عادة بين النرجسيين والمضطربين اجتماعيًّا لتشابههم، إضافةً إلى أنهم أكثر الفئات الاجتماعية خبرة في العلاقة بين الجلاد والضحية. وتبقى السيطرة على العقل جزءًا من ميلنا النفسي الذي نحرص كثيرًا على عدم الاعتراف به.

وفي السياق نفسه، بحث الكاتبان توم راث و د. دونالد و. كليفتون في كتابهما إلى أيِّ مدى سطلك ممتلئ؟ موضوع معاملة أسرى الحرب الأمريكيين خلال الحرب الكورية، متكئينِ على دراسة عالم النفس الأمريكي ورئيس أركان الجيش الرائد ويليام ي. مايار الذي بحث حالة أكثر من ألف أسير حرب أمريكي كانوا محتجزين في معسكر في كوريا الشمالية، مركِّزًا على أقسى الحالات النفسية حدَّة بينهم في زمن الحرب، فخلص إلى أن أولئك الأسرى لم يُعذَّبوا أو يتعرَّضوا إلى أيِّ استغلال جسدي على نحو يثير الانتباه، فضلًا عن توفير الطعام والشراب والمأوى لهم. فلم تكن ظروف احتجازهم قاسية إذن؛ إذ لم يكن حراسهم مسلحين، ولا توجد أسلاك شائكة تطوِّق معسكر احتجازهم.

أخذ ماير يسأل بعدما وقف على تلك المعلومات الإيجابية: لماذا ارتفعت نسبة الانتحار بين أولئك الأسرى إلى نحو 38%؟ لماذا اعترف نصف الذين قضوا أنهم - ببساطة شديدة- استسلموا؟ فقرَّر أن السبب هو اليأس الذي ملأ جوانحهم وسيطر على مختلف مناحي حياتهم، نتيجة لما تعرَّضوا له من أسوأ الإساءات النفسية التي قد تصيب الإنسان، فتحطَّمت روحهم، وفقدوا أيَّ طعم للحياة. بل إن هذا المفهوم لازَمَ حتى أولئك الذين أُنقِذوا فيما بعدُ. كان هدف الكوريين الشماليين هو حرمان الأسرى الدعم العاطفي الذي يأتي دائمًا من طريق التواصل بين الناس، ولهذا عمدوا إلى عزل أولئك الرجال عزلًا تامًّا، وحرموهم الدعم الإيجابي وحق النقد، ومنعوا عنهم رسائل أحبائهم التي تصلهم من وطنهم. وهكذا تمكَّنوا من تدميرهم تمامًا من الداخل، فافتقر الأسرى إلى أيِّ حافز للحياة، وخسروا ثقتهم بأنفسهم وبأحبائهم، بل تسلَّل اليأس إليهم حتى في ثقتهم بربهم ووطنهم. وخلاصة القول: لقد نجح الكوريون الشماليون في إحكام عزلة نفسية وعاطفية على أولئك الجنود، لم يسبق لها مثيل.

لا شك أن هذا النوع من غسيل المخ، والتحكم في العقل وتغيير السلوك، هو أمر مرعب حقًّا. وربما يتعرَّض كثير منَّا في وقت ما من الحياة لتجربة كهذه - نوعًا ما- عند تعامله مع النرجسيين والمضطربين عقليًّا، وحينئذٍ قد لا نعلم ما الذي أصابنا حتى يتسلَّل إلينا اليأس فيدمِّرنا. ومع هذا فثمَّة خبر سار: فما إن نعرف ماهية تلك التقنيات التي استُخدِمت للتلاعب بنا، حتى يمكننا فعل شيء حيالها، فنبطل مفعول تلك القوة المدمرة التي استهدفت أنفسنا وعقولنا وأرواحنا.

استغلال الشعائر ومؤشرات البرمجة والمحفزات

ربما يعد استغلال الشعائر والتعذيب أكثر الوسائل المرعبة الصادمة التي يستخدمها شخص ما للسيطرة على عقل آخر، وتوجيه سلوكه وفق مشيئته: فالسيطرة على العقل التي ترتكز على الاستغلال ترتبط دائمًا بالاعتداءات التي تطال الطقوس العقدية التي تشمل -أحيانًا- طقوسًا شيطانيةً وممارساتٍ قبيحةً للجمعيات السرية ضد الأطفال، مثل تقديمهم قرابين. يبدأ هذا الاستغلال الوحشي المستمر غالبًا من مرحلة الطفولة، وقد يرتبط ببرنامج حكومي محدَّد، وقد لا يكون كذلك مثلما رأينا في مشروع (MKUltra) الذي ناقشناه في الفصل السابق، بل قد يدَّعي بعض الضحايا المزعومين - أحيانًا- أن أسلافهم وذرياتهم تعرَّضوا لنوع من استغلال الأجيال الذي جاءهم متَّشحًا ثوب جمعية سرية، في حين يدَّعي ضحايا آخرون أن المعتدين كانوا من عناصر الجيش أو غيره من الجهات المتنفِّذة التي تتمتع بالقوة.

قد يكون الهدف الرئيس لهذا النوع من الاعتداء إيجاد جندي خارق، أو قاتل، أو جاسوس، بيد أنه يكون أحيانًا - ربما ببساطة شديدة- جزءًا من ممارسة شعائرية ليس لها صلة بأيِّ عنصر خارجي سوى حافز الأعضاء المشاركين في ممارسة الطقوس، وقد وصل الأمر ببعض الباحثين والدارسين إلى وصف هذه الظاهرة بالكونية؛ إذ دأب ضحايا كُثر من بلدان شتى على تقديم تقارير سرية تتحدث عن السيطرة على العقل بإشراف برامج حكومية، معظم ضحاياها دون سن الثامنة عشرة، تعرَّضوا لتلك التجربة رغمًا عنهم أو حتى بموافقتهم، بل إن الوالد أو الوصي قد يكون -أحيانًا-

أحـد المعتديـن، أو يعمـل معهـم، وهذا مـا دفع بعض الضحايـا الناجين إلى الاعتقـاد بوجـود علاقـة بـين جماعـات الجريمـة المنظَّمـة وهـذا التعذيـب الشعائري والاستغلال والاعتداء.

وفي المقابـل، أكَّد الناجون الكبار من اسـتغلال الطفولة الشـعائري أنهم هُدِّدوا بالقتل إذا هم أفصحوا عمَّا عانوه من اعتداء، حسب ما جاء في وثيقة (السيطرة على العقل عن طريق التعذيب بوصفه ظاهرة كونية) التي وثَّقت المعلومـات الأولية من سلسـلة عام 2007م التي عُرِفت باسـم (حصر حالات التعذيـب المفرط)، وأُشـير إليهـا اختصـارًا بـ (EAS)، وعرضها كاريكاتير في جلسـات المؤتمر العالمي الثالث عشـر عـن العنف والاعتـداء والصدمة الذي عُقِد عام 2008م، وفيما يأتي أهم نتائج الإحصاء التي عُرِضت على الملأ:

- طبقًا لأقوال (257) شـخصًـا اسـتجابوا وأدلوا بمعلومات عن التجارب السـرية للسيطرة على العقل التي أُجريت عليهم بهدف السيطرة على عقولهـم وهـم أطفال، أفـاد 69% منهم (أو 177 شـخصًا) أن جماعة تنتمي إلى طائفة تمارس طقوسًا شيطانيةً هي التي نفَّذت التجارب.
- أفـاد 93% مـن المهنيين الذيـن أجابوا عن الأسـئلة أنهم باشـروا حالة واحـدة - علـى الأقل- مـن الضحايا الناجـين، أكَّد صاحبهـا أنه هُدِّد بالموت إذا هو (أو هي) أفصح عمَّا تعرَّض له من اعتداء وتعذيب.
- أفـاد 67% مـن مجمـوع المهنيين الذيـن أجابوا عن السـؤال ذي الصلة (عددهـم 218 شـخصًا) أنهم عملوا مع ضحيـة واحدة - على الأقل- أكَّدت الاعتداء عليها بالصعقات الكهربائية.

- أفـاد 50% مـن النـاجـين البالغـين الذيـن أجابـوا عـن السـؤال المعنـي، بتعرُّضهم أيضًا للصعقات الكهربائية.
- والـى جانب هذا كله. فقد كشـفت الإحصائيات أن الجلادين غرسـوا ذكريـات جديـدة تُوافِق أهواءهم في عقول عدد كبير من الضحايا، في حين ثبَّتوا برامج جديدة لتحقيق الهدف نفسه في عقول الآخرين، وقد شمل ذلك:
- استخدام الدم في عمليات الاعتداء.
- التجويع.
- تحفيز الدماغ.
- الإكراه على تعاطي المخدرات.
- الحرمان الحسي.
- مشاهدة الحيوانات وهي تذبح وتقطع أوصالها.
- الحشر داخل أقفاص.
- تدوير الضحايا لكي تفقد الاتزان وتصاب بالتشويش.
- الانتهاكات الجسدية الجماعية.
- تعريض الضحايا للموجات الكهرومغناطيسية.
- تعريض الضحايا للإشعاع.
- الاختطاف الغامض.
- خلع أعضاء الجسد.
- حقن العين بقطرات مؤلمة.

وللأسف الشديد، فهذا غيض من فيض مما تختزنه ذاكرة الأشخاص الضحايا المزعومين. لقد كان ظهور اضطراب تعدد الشخصية (شخصيات متعددة/بديلة) من أهم نتائج تشخيص هذا الاستغلال الوحشي للضحايا؛ إذ تؤدي القسوة المفرطة إلى انشطار الشخصية إلى عدَّة شخصيات بديلة، فيما يُعرَف بآلية التوافق التي صُمِّمت خصيصًا لحماية الشخصية الأصلية، بالسماح لشخصيات أُخرى أن تدخلها لكي تتوافق مع الرعب والصدمة، وقد أمكن أيضًا برمجة الشخصيات البديلة لترتكب الجرائم، مثل القتل وغيره من الممارسات الإجرامية التي لن توافق الشخصية الأصلية على ارتكابها ألبتة، أو حتى تقدر عليها. يُذكَر أن كل شخصية بديلة تعمل بمعزل عن الشخصية الأصلية التي تُعرَف باسم الشخصية الأمامية، ولكنها مع ذلك قد تكون إحدى واجهاتها. ويرى كثير من الذين يعانون اضطراب تعدد الشخصية أن الشخصية الأمامية ليس لها مفتاح يدل على الشخصية البديلة التي حلَّت محلَّها.

ولا شك أن كثيرين ما زالوا يتذكرون فيلم سيبيل **Sybil** الذي أدَّت فيه الصغيرة سالي فيلد دور شيرلي (سيبيل) ماسون، تلك المرأة التي قضت معظم شبابها وهي تخضع للعلاج النفسي، على يد طبيبة تدعى كورنيليا (اضطلعت بدورها في الفيلم الممثلة جوانا وودورد)، في محاولة لتوحيد شخصياتها المتعددة (ست عشرة شخصية) التي نتجت بسبب الصدمات العاطفية، ودمجها في شخصية واحدة، وبالرغم من الجدل الذي دار حول معاناة ماسون من ازدواج الشخصية أو عدمها، فإن الاضطراب يبقى حقيقة لا مراء فيها، تجرَّع مُرَّها معظم ضحايا الاعتداء الشعائري الممنهج.

أمَّـا فيلـم في الجحيـم مـا عـدا واحـدًا Hell Minus One فتحكـي فيه آن جونسون ديفيد تجربتها المرعبة؛ إذ تعرَّضت لاستغلال وإيذاء جسدي وعقلي من والديها، استجابةً لشعائر شيطانية. وقد اكتسبت حكايتها أهمية خاصة بسبب اعتراف والديها بما حدث أمام قس المنطقة ومحققي مكتب النائب العـام في ولايـة يوتـا الذين توصلوا إلـى حقائق دامغة تؤكِّد حدوث اسـتغلال وحشـي، بعد ثلاث سـنوات من التحري، صرفوا خلالها مئتين وخمسين ألف دولار. وبالرغم من ذلك، لم يستطيعوا مواصلة المشوار حتى النهاية. وصدور الحكـم. بـدأت آن رحلة العـذاب عندما كانـت في ربيعها الثالث، واسـتمرت معاناتها حتى هربت من منزل والديها عندما بلغت سن السابعة عشرة، وقد تعرَّضـت خلال رحلتهـا تلك لمختلف صنـوف العذاب، من: تخديـر، وإيذاء، واعتـداء، وصبـغ بالدمـاء وتقديمهـا ضحيـة رمزيـة، وحتـى إكراههـا علـى إيذاء إخوتها الأبرياء، في أثناء أداء طقوس شـيطانية. فكتمت ذلك كله بين جوانحها حتى منتصف ربيعها الثلاثين، ليثور بركان تلك الذكريات المريرة في عقلها الباطن، ويؤكِّدها جلادوها أنفسهم؛ والداها!

كـم هـي مفجعـة حكاية آن تلك، بيـد أنها لم تكن هي الوحيـدة؛ إذ حكى كثيـرون ممـن نجـوا مـن الاسـتغلال حكاياتهـم، مثـل المؤلِّفـة جـين آدمـز، صاحبة كتاب اسـتغلال الطفولة والسـيوف المجردة، تقول: «لقد وثَّقت كثيرًا مـن حـالات الاعتـداء والاسـتغلال»، وكتبـت في مجلـة (MKzine)، في عددهـا الصـادر في شـتاء عـام 2004م، مسـتطردة في الموضـوع نفسـه: «لقد وجدنـا بعضنا بعضًا، لكي ننظِّم أنفسنا ونتعافى مما ألمَّ بنا»، ثم انبرت للدفاع عن الناجـين وحقهـم في التعافي، مناديـةً بتدريب متخصصـين، لتحديد حالات

الاعتـداء وفهمهـا وكل مـا يتصل بها من تبعـات واجهت أولئـك الذين عانوا كثيرًا هذا الأمر عندما تقدَّمت بهم الحياة.

أعدَّت آدمز بحوثها الخاصة بموضوع استغلال الطفولة، باحثةً عن ناجين مـن الضحايـا؛ لكـي تقف على قاسـم مشـترك يمكِّنها من معرفـة الصفات التي تميز مختلف حالات الاسـتغلال والاعتـداء، وكان من أبرز النتائج التي توصلـت إليها عدم إفصاح معظـم النـاجين من اعتداءات الطفولة عمَّا لحق بهـم مـن أذًى، إلَّا في مرحلـة متقدِّمة (بـين العقد الثالث والعقـد الرابع من العمـر)، حين تسـتيقظ تلك الذكريات الأليمـة في العقل الباطن فتطفو على السـطح، ويبلـغ الأمـر ذروتـه في المرحلة العمريـة التالية (بين العقـد الرابع والعقد الخامس). توصلت آدمز أيضًا إلى أن هذا الاستغلال والإيذاء الذي يتعرَّض لـه بعض الأبريـاء في الطفولة، يكـون في كثير من الحـالات جارحًا للكرامة، فيكبته العقل ولا يسـمح بالبوح به إلَّا بعد أن تكبر الضحية وتنضج شـخصيتها بالقـدر الذي يمكِّنها من مواجهة ما قـد يتمخض عن إفصاحها عن تلك التجارب من تبعات، ثم التعايش مع الوضع الجديد.

وللأسـف الشـديد، فـإن ضحايـا الاعتـداء الجسـدي والاغتصـاب هـم الملومـون في نهايـة المطـاف، وكـذا ضحايـا الطفولـة؛ إذ يلومهـم المجتمـع دائمًـا ويُحمِّلهـم تبعات ما يتعرَّضـون له من إيذاء واسـتغلال، واصفًا إياهم بالجنـون سـاعة، ومتهمًا إياهم أُخرى بالجشـع والبحث عن المـال والدعاية لتحقيق الشهرة، وغالبًا ما يوصف أولئك الضحايا بأنهم مصابون بمتلازمة الذاكرة الخطأ.

متلازمة الذاكرة الخطأ

يؤكِّد أطباء العلاج النفسي أن الأشخاص الذين يدَّعون التعرُّض لانتهاكات جسدية في طفولتهم، يعانون غالبًا صعوبات في استعادة التفاصيل الحقيقية لما حدث لهم من اعتداء؛ ذلك أن للعقل طريقته في تشكيل الذاكرة. بناءً على الإدراك والتوقعات والآمال والنظرة إلى العالم، وهي أشياء تتغير جميعها كلما تقدَّم الإنسان في العمر.

توصف متلازمة الذاكرة الخطأ بأنها الحالة التي تكون فيها هوية الشخص أو ذاته وعلاقاته الشخصية مرتكزةً على محور تجاربه المؤلمة التي قد لا تكون حدثت فعلًا. بيد أن الشخص المعني يكاد يجزم أن تلك التجارب المؤلمة قد حدثت له حقًّا. وما إن ترسخ التجربة حتى يرتبط بها العقل ارتباطًا وثيقًا، وبناءً عليها يملي على صاحبها حياته وهويته، وينبري لمقاومة كل تصحيح للخطأ.

هذه المتلازمة أو الحالة المثيرة للجدل (لا تعرف لدى اختصاصي الطب النفسي بحالة مرضية عقلية) يمكن أن تحدث في أثناء جلسات العلاج النفسي الحقيقية، حيث تزرع أفكار الضحية كما تزرع البذور بعيدًا في أعماق المخ. وهكذا تعمل محفِّزًا لذكريات غامضة مبهمة، مثلما زرعت فيه من المصدر المحتمل أو أُوحي إليه بها: فللعقل طريقة مدهشة في استعادة ما يريده من معلومات، والشائع أن كل مَن يدَّعي التعرُّض لاستغلال أو اعتداء في طفولته يُتَّهم بـ (اختلاق) الصدمة نتيجة مطالعته كتب المساعدة الشخصية، والبحث عن علاج نفسي، والاستماع إلى حكايات ضحايا

آخرين مزعومين ليماثلهم، مع غياب أيِّ برهان يؤكِّد حقيقة تعرُّضه لمثل تلك التجارب في ماضيه.

وبوجه عام، فإن الذاكرة تصدأ بسبب عامل الوقت، والمسافة، والاستهلاك، فيستحيل عليها، من دون وجود شهود أو دليل مادي حسي، تأكيد التعرُّض للاستغلال بالطريقة نفسها التي يصفها الضحايا البالغين. وبالطبع، لا يعني هذا أن أولئك الضحايا الناجين يكذبون أو يختلقون أشياء لم تحدث فعلًا؛ لأنهم في كثير من الحالات يوثِّقون الأدلة، بما فيها إقرار الجلادين نفسهم، والصور الفوتوغرافية، وأشرطة الفيديو، وشهود العيان، وغير ذلك. وعلى أيِّ حال، لا يمكن فهم الأمر هنا على غرار النظرة الأحادية: أبيض، أو أسود.

تعد محاكمة ماكمارتن التي جرت أحداثها في المرحلة السابقة لدخوله المدرسة واحدة من أشهر قضايا الادعاءات الإجرامية التي تضمنت متلازمة الذاكرة الخطأ؛ إذ شهدنا في ثمانينيات القرن الماضي حالة وصفها بعضهم بالذعر الشيطاني: حدث ذلك عندما طفحت الأخبار باتهامات لاعتداءات جنسية كان مسرحها تجمعات لممارسة طقوس شيطانية، اشتمل كثير منها على الأطفال. فقد اتُّهِمت عائلة ماكمارتن التي كانت تدير مؤسسة تعليمية لمرحلة ما قبل المدرسة الأولية في كاليفورنيا عام 1983م بممارسة (321) حالة اعتداء جنسي، جميع ضحاياها من الأطفال الذين يفترض أنها كانت ترعاهم. وبين عامي 1984م و 1987م، شُنَّت مجموعة من الاعتقالات شملت: فيرجينيا ماكمارتن، وبيكي ماكمارتن بيكي، وريي بيكي، وآن بيكي أخت ريي. والمعلمات: ميري آن جاكسون، وبيتي ريدر، وبابيت سبلتر. لكن

المحاكمات لم تسفر عن إدانات حقيقية. فأُسقطت التهم جميعها عام 1990م، لتصبح تلك أطول المحاكمات وأكثرها كلفة في تاريخ أمريكا.

وحتى اليوم، فثمَّة مَن يعتقد حدوث اعتداءات حقيقية. ولكن، لمَّا كان الضحايا أطفالًا، فإنه لا توجد أدلة دامغة تحدِّد مَن ارتكب هذه الجريمة أو تلك. وقد يُحجم بعض الأطفال في بعض الحالات عن الاعتراف بما حدث لهم من اعتداءات حتى عندما يكبرون. وبصرف النظر عمَّا إذا كان هؤلاء الأطفال قد تعرَّضوا لهذه التجارب أو لم يتعرَّضوا لها، ومع كل ما نسمعه يوميًّا من هذا السيل الجارف عن الاعتداءات، فإن مثل هذه التجارب لا تغيب عن مسامعنا فحسب، بل تتلاشى في دوَّامة الإعلام التي تصاحب تلك الادعاءات الشيطانية التي قد تلقي بظلالها على الرؤية، أو ربما أثَّرت في المحصلة النهائية بأكملها.

استجابات السيطرة والاستغلال

كان نيل بريك، محرر نشرة «أوقفوا السيطرة على العقل والاستغلال الشعائري اليوم»، يستضيف كل صيف مؤتمرًا في ولاية كونيكتيكت، عنوانه «الاستغلال الشعائري، والمنظمة السرية، ومؤتمر السيطرة على العقل». وكانت جلساته تُخصَّص للحديث عن السيطرة على العقل والاستغلال، واستعراض الحالات. وقد أكَّد كثير من المتحدثين تعرُّض الناجين من الضحايا لمثل تلك التجارب، فذكر بريك في ورقته التي قدَّمها في مايو عام 2003م، بعنوان: «كيف تؤثِّر المحفزات والبرمجة في السيطرة على العقل والإشاعات؟» كثيرًا من المحفزات التي تكون غالبًا فطرية، مثل الشعور

بالحرارة عندما نقترب من شعلة الفرن، فيسحب الواحد منًا يده بصورة لاإرادية بعيدًا عن الشعلة، فيما يُعرَف بالاستجابة الطبيعية غير المشروطة.

فثمَّة محفزات طبيعية وأُخرى غير طبيعية، وفي المقابل توجد استجابات مشروطة وأُخرى غير مشروطة: فبحسب تصنيف بافلوف[1]، فإن الجمع بين محفز شرطي وآخر غير شرطي يفضي إلى استجابة شرطية. من جهة أُخرى، أكَّد كثير من الضحايا الناجين من برامج السيطرة على العقل عن طريق التعذيب أو استغلال الشعائر والطقوس الدينية، تشابه التجارب التي تعرَّضوا لها: إذ تؤدي كلها إلى استجابات مشروطة لمختلف المحفزات، فأحيانًا يُعذَّب الضحية بالأسلوب نفسه بطريقة متكررة تستمر مُددًا عديدةً، لتسفر في النهاية عن ظهور شخصية بديلة تعطى رمزًا سريًّا خاصًّا، يُحدِّد الجلاد به وقت ظهورها، وقد يكون هذا الرمز كلمةً، أو جملةً، أو رائحةً معينةً، أو صوتًا، أو رقمًا يحفِّز تلك الشخصية البديلة للظهور. يقول بريك في ذلك: «يسري قانون القوة على قوة الصدمة وقوة المحفِّز»، ويضيف: «ربما يكون سهلًا على الرائحة القوية أن تتحد مع الصدمة القوية، مما يكسب الشرط قوة، وتتحد الشخصية البديلة مع المحفِّز بسهولة كلما كانا قريبين من بعضهما».

لا شك أن مجرد التفكير في إمكانية تعرُّضنا لتقنيات بافلوف هذه قد يكون أمرًا مرعبًا. ويفعل أصحاب شركات الدعاية والإعلان الشيء نفسه

---

(1) بافلوف: بافلوف إيفان بيتروفيتش، عالم نفسي روسي. وُلِد عام 1849م، وتوفي عام 1936م، اهتم بدراسة الفعل المنعكس الشرطي، وحصل عام 1904م على جائزة نوبل في علم النفس والطب. المترجم.

لجذب انتباهنا لمنتجاتهم. سنستعرض المزيد عن هذا الأمر لاحقًا، ولكن تذكّر أن أدوات السيطرة على العقل لم تُدَّخر لكي تُستخدَم دائمًا في البرامج السرية وبرامج المؤامرة؛ إذ يمكن أن يحدث هذا لأيٍّ شخص في أيٍّ وقت. ويسترسل بريك قائلًا: «تشبه تقنيات الإشاعات تقنيات البرمجة في أوجه عدَّة، حتى إنه يمكننا القول إن شخصًا ما قد بُرمِجت شخصيته عندما تثار إشاعات عنه، فهكذا يعمل الجمع بين الصوت والصورة في التلفاز: يجعل التأثير في الأشخاص من السهولة بمكان».

لا شك أن الناجين من ضحايا الاستغلال الشعائري قد تعرَّضوا لأسوأ الأدوات والتقنيات، ومع هذا يبقى السبب الأهم هو تعرُّض كثير منهم لتلك التجارب في مرحلة الطفولة المبكِّرة، واشتمالها على أقسى أنواع العذاب الجسدي والعقلي، وحتى في حال حصول ضحايا الاستغلال الشعائري على مساعدة عندما يكبرون، تظل حالة اضطراب ما بعد الصدمة شائعة لدى كثير منهم، بسبب مشاعر الخجل والخوف من مجابهة ما حدث لهم، ولا سيما أنه يحدث أحيانًا من أشخاص يعرفونهم ويثقون فيهم. ومع أننا كلنا مبرمجون لانتهاج سلوك معين لكي ننال استحسان الآخرين، فإن ضحايا الاستغلال الشعائري ينهجون سلوكًا معينًا يكون غالبًا من دون وعيهم وضد رغباتهم، ويستجيبون أحيانًا من أقصى أعماق اللاوعي لمثيرات ومحفزات قد لا يكونون حتى مدركين لها، أو يتذكرونها عندما تتقدَّم بهم الحياة.

على صعيد آخر، اقترح بريك وسائل تساعد الضحايا على تخليص أنفسهم من قبضة برامج السيطرة على العقل، وقد نشرها في مقال عنوانه

«تقنيات النجاة» في مجلة (MKZine)، في عددها الصادر في شتاء عام 2004م، وهذه أهمها:

- قلّل ساعات الجلوس أمام التلفاز قدر الإمكان، أو امتنع عن مشاهدته ألبتة: لأن مشاهدته تعرِّضك لسيل من الموجات الدماغية التي تجعلك عُرضة للبرمجة من دون وعي للأمر.
- احذر الإدمان: فالتخلص منه يمثّل دعامة أساسية للضحايا الناجين، ويحول دون انزلاق الحياة في دوامة الصدمة.
- ابحث عن خلاص روحي، ولكن تأكَّد أولًا أنك حُرٌّ تمامًا من أيّ سيطرة طائفية، ثم ابحث عن نظام روحي يمثّل حصانة لك.
- تأمَّل حقيقة نظامنا السياسي أو أنظمتنا السياسية، وانتبه لِمَن يمارسون الفساد، والعلاقة بين الإعلام والحكومة، واستقل بحرية تفكيرك، بعيدًا عن تأثير الحكومة أو سيطرتها.
- لا تستسلم مطلقًا مهما كانت التحديات، فربما تطلب الأمر عقودًا للتعافي من السيطرة على العقل؛ إذ إن حرية العقل لا تتحقق إلّا بالعمل الجاد المتصل. أسمع صوتك، وأفصح عن رأيك، وارفض قبول أيّ تسوية إذا كانت تعني تعرُّض طفل أو شخص آخر للاستغلال أو غسيل المخ.

من جانب آخر، كتبت كاثلين سوليفان عن تجاربها الحقيقية المباشرة التي عاشتها بعدما تعرَّضت لمحاولات السيطرة على العقل، وما عانته من صدمة بسبب الاستغلال الشعائري، بوصفها واحدة من ضحايا مشروع (MKUltra) على أيدي أفراد أسرتها، والمنظمات الشيطانية على شبكة

المعلومات العنكبوتية (الإنترنت)، والسحرة والمشعوذين والدجالين، ورجال الجيش، ووكالة المخابرات المركزية، وأعضاء الجمعيات السرية، مثل المنظمة الماسونية. وقد ناقشت في كتابها التحرر من الأغلال: قصة أحد الناجين من ضحايا السيطرة على العقل كيف يمكن للناجين أن يتعافوا من آثار ما حدث لهم من استغلال وبرمجة عقلية وتغيير في شخصياتهم، وكيف يمكن للمجتمع دعمهم ومساعدتهم عن طريق فتح قلبه وعقله لهم.

رحبوا بهم في الوطن، لكاثلين سوليفان

تعد (نافذة جوهاري) أحد النماذج المفضَّلة التي اتبعتها لاستعادة عافيتي مما عانيته بسبب تجارب السيطرة على العقل والاستغلال الشعائري، وهو نموذج ابتكره أساسًا جوزيف لوفت وهاري إنجهام عام 1955م، ورسماه على ورقة، وكان يبدو كنافذة مقسمة إلى أربعة أجزاء، تمثِّل أربعة أنواع من الوعي بالذات. وفيما يأتي وصف لأجزاء النافذة الأربعة:

- المنطقة المفتوحة (الربع الأعلى الأيسر): تمثِّل أجزاء أنفسنا التي هي محل اهتمامنا نحن والآخرين أيضًا.
- المنطقة المعتمة (الربع الأعلى الأيمن): تمثِّل أجزاء أنفسنا التي يُعنى بها الآخرون ويهتمون بها، من دون أن تحظى باهتمامنا نحن.
- المنطقة المخفية (الربع الأسفل الأيسر): تمثِّل أجزاء أنفسنا التي نعيها جيدًا، من دون أن تحظى بوعي الآخرين.

• المنطقة المجهولة (الربع الأسفل الأيمن): تمثّل أجزاء أنفسنا التي نجهلها نحن، ويجهلها الآخرون.

يُذكَر أن مهارة المجرمين الأذكياء في تحديد منطقة المجتمع العمياء وقدرتهم على تغييرها، تعد واحدة من أهم الأسباب التي تمكّنهم من إخفاء جرائمهم بنجاح؛ إذ يعرفون – أحيانًا – أفضل مما نفعل بكثير، ويدركون الذي يمكننا أن نسمح للآخرين بمعرفته، وذلك الذي لا نرغب أن يطلع عليه أحد.

فمناطقنا الاجتماعية العمياء هي المكان الذي يعمل فيه المجرمون دائمًا فرادى وجماعات. فهم محقون تمامًا في اعتقادهم بجهلنا لتلك المناطق التي لن تعرفها حتى قلة قليلة بيننا. إلّا بعد تسليط ضوء ساطع عليها من محقق، أو باحث، أو أحد الضحايا الناجين.

وفي المقابل، فإن لكلٍّ منّا مناطق شخصية عمياء، ويتطلب الأمر غالبًا قدرًا كبيرًا من القوة والشجاعة والتحليل من أيّ شخص كان، لكي يجرؤ على كشف الستار عن منطقته العمياء القاتمة في حياته، ويتطلب الأمر أيضًا شجاعة أكثر مما تقدَّم، من معظم ضحايا سيطرة العقل الناجين، لكشف الستار عن حياتهم؛ لأن معظمهم أُكرِه أو هُدِّد لاجتراح خطايا لا تُغتفَر، وارتكاب جرائم مروعة، يدركون جيدًا أنه يتعين عليهم كتمانها في مناطقهم العمياء الخاصة.

ولمّا كان معظم الضحايا الناجين من التعذيب والاستغلال يحملون جروحًا غائرة في أعماقهم، وندوبًا من مجابهة هذا الشر الإنساني المتطرف، فإنهم يحتاجون دائمًا إلى دعم حقيقي ومساعدة أكيدة من المجتمع لكي

يتعافوا ويستعيدوا صحتهم. وللأسف الشديد، فإن معظم الضحايا الناجين ينتكسون - على الأقل- في بداية الأمر بسبب ذلك الدعم: خشية أن يكتشف داعموهم تلك الكارثة المخفية في أعماقهم، ثم يرفضونهم في نهاية المطاف.

لا شك أن معظم ضحايا السيطرة على العقل التي تعتمد الصدمة واجهوا قدرًا هائلًا من الألم والخيانة وغيرهما، لكنهم صمدوا: لأنهم أدركوا بغريزتهم الطريقة اللازمة لتكييف عقولهم وقلوبهم وأجسادهم، لكي يحموا أنفسهم، ويبقوا أحياء، وأدركوا بالطريقة نفسها أنهم سوف يلقون حتفهم لا محالة، إذا هم أقبلوا على الحياة، وفتحوا قلوبهم للحب، واحترسوا مما يجري في محيطهم.

وهم أدركوا جيدًا أنهم إذا أقبلوا على الحياة بقلب منفتح وصدر منشرح وعين حذرة، حتى لو لم يستجب لهم أحد، فإن هذا يؤكّد - ببساطة شديدة- ما علّمهم إيّاه جلادوهم: إنهم أشرار، وبضاعة تالفة، وطاعون، وليسوا جديرين بالحياة في مجتمع نظامي، ولا يملكون من القوة غير الحب والقبول.

ولسوء الطالع، فثمّة فئة محدودة جدًّا من أفراد المجتمع لديها الاستعداد لفتح قلوبها للضحايا الناجين. فتنصت لما تعرّضوا له من عذاب ومعاناة على أيدي أطباء نفس يمثّلون خطرًا حقيقيًّا، بسبب ما يكتنف تاريخ الصدمة التي تعرّضوا لها من عنف، وتطرف، ومواقف محرجة.

أمّا الضحايا الذين لا يُصدّق المجتمع ما تعرّضوا له من معاناة، فقد تتولد لديهم ردود أفعال طبيعية لرفض ذاتهم، فربما لم يفهموا بعدُ أن الرفض هو وسيلة الاستماع أو القراءة لحماية العقل والقلب من تلك

المعلومات التي قد تصدع يقينهم في أن العالم ما زال مكانًا آمنًا. فقد أسرَّت إليَّ أعداد هائلة من ضحايا السيطرة على العقل -منذ بضع سنين فقط- بعودتها إلى جلاديها مرة أُخرى بعد أن تركوها - مدة ما على الأقل- لأن المجتمع الخارجي لم يُصدِّق ما تعرَّضت له من صنوف التعذيب والابتزاز، فعندئذٍ قرَّر عدد من الضحايا بملء إرادتهم العودة إلى جلاديهم؛ لأنهم يعرفون - على الأقل- نوع الألم الذي ينتظرهم، من اعتداء جسدي وحشي، وإساءات نفسية، وغير هذا الكثير من العذاب؛ لقد عرفوا كيف يتأقلمون مع هذا النوع من الألم المدمر.

أجل... يمكنهم احتمال كل هذا الكمِّ من العذاب، بيد أنهم لا يطيقون صدود أولئك القريبين منهم، الذين فتحوا لهم دائمًا قلوبهم وعقولهم بكل صدق في ثقة تامة، وأطلعوهم حتى على تفاصيل حياتهم الشخصية الخاصة، بل أدق تفاصيل التفاصيل في حياتهم.

هكذا كانت الحال في السابق. أمَّا اليوم فتحظى أعداد كبيرة من ضحايا السيطرة على العقل بتأييد الدول المتقدمة ودعمها، التي يزداد وعيها واهتمامها يومًا بعد آخر، بوجود مثل تلك الممارسات الوحشية، ما يعني حصول المزيد من الضحايا على مساعدات مستمرة، ودعم للمقاومة والتعافي، وصولًا إلى مرحلة الشفاء الكامل.

ومع هذا، تبقى بعض الحقائق غائبة، ولم يُفصح عنها بعدُ؛ فما زال ضحايا كُثر يحفظون تلك المعلومات في أمان داخل مناطق مخفية، بعيدًا عن وعيهم؛ إذ ما زالوا يخشون رفض المجتمع لهم، إذا هم أفشوا تلك

الأسرار. إنه لأمر مؤسف حقًا؛ لأنهم لم يشعروا بالأمان الكافي لكي يكشفوا لنا عن تلك القدرات والمهارات التي استطاعوا تطويرها في قاع نار الجحيم المستعرة التي أوقدها الإنسان. إضافةً إلى ما يمكن أن يقدّموه لنا من هدايا قيّمة.

فهداياهم الفريدة متوافرة اليوم للجميع، إذا نحن تحلّينا بالشجاعة اللازمة، ففتحنا لهم القلوب وقبلناهم، وكل ما علينا فعله أن نعمل جميعًا، فنجلس إليهم بقلب منفتح وصدر منشرح، ونسمع لهم، ونشاركهم بقية ما لديهم من حكايات، وهكذا نكون قد أرسلنا إليهم الإشارة الصحيحة المطلوبة التي طالما انتظرها كثير منهم، بل قد يكون بعضهم انتظرها لعقود، وفي المقابل فإنهم سيفسحون لنا المجال لكي نشاركهم هداياهم الرائعة تلك. وكلي أمل أن يكون هذا الكتاب خير معين لنا، لكي نرسل إليهم تلك الإشارة الصادقة القوية الصريحة؛ فقد حان الوقت لنؤكد لهم أن مجتمعنا المعاصر قوي وشجاع وشديد الاهتمام بهم، لقد حان الوقت لكي نواجه مناطقنا العمياء تلك ونقبلها، ونكشف الحجاب عن القمقم لنتيح المعلومات للجميع، ونؤيد تلك الأسرار التي تغلي في صدر اللاجئين المحرومين. أجل، لقد حان الوقت لنرحب بهم في الوطن.

التنويم المغناطيسي

يعد التنويم المغناطيسي من أكثر الوسائل شيوعًا للسيطرة على العقل والسلوك. صحيح أن أصل اللفظة الإنجليزية يعود إلى اللغة الإغريقية،

ويعني النوم. بيد أن التنويم المغناطيسي لا يعني النوم بمعناه الاصطلاحي مطلقًا، إذن فهو حالة وعي تتميز بالقدرة على التركز الشديد على الذاكرة أو على حدث ماضٍ... حالة من النوم الكاذب - إن شئت- يكون فيها الإنسان في الحقيقة مستيقظًا، لكنه يعيش حالة ذهنية مختلفة عن حالة الإدراك الطبيعي، ولا يعني هذا أنه يكون مثل الإنسان الآلي، وإنما يسهل التأثير فيه بالإيحاء. وبعيدًا عن حالات التنويم المغناطيسي التي يراد بها الاستعراض، نجد أن التنويم المغناطيسي الحقيقي هو وسيلة بارعة للتأثير في عقل الإنسان، من دون تعريضه مباشرة لغسيل المخ أو الاستغلال.

عندما يحفَّز الإنسان إلى النوم عن طريق التنويم المغناطيسي، فإن هذا يحدث عادة في العلاج الطبيعي؛ رغبة في التخلص من الرُّهاب، أو الإقلاع عن التدخين أو أيِّ عادة صحية سيئة، ويكون العقل مدركًا لمحيطه، ومُسيطَرًا عليه، وفي الوقت نفسه يكون مستعدًّا لتقبل كل ما يوحى إليه به، وقادرًا على استعادة المعلومات بوضوح وتفاصيل أوفى بكثير مما يستطيع فعله في لحظة اليقظة العادية. في عام 2005م، قدَّمت جمعية الطب النفسي للتنويم المغناطيسي تعريفًا جديدًا للتنويم المغناطيسي، ورد في الفقرة الثلاثين من قانون الجمعية الأمريكية للطب النفسي، هذا نصه: «يشتمل التنويم المغناطيسي على مقدمة للإجراءات التي يُبلَّغ المرء خلالها بعمل إيحاءات لتجارب تخيلية؛ فالتأثير الذي يحث على النوم يعد مقدمة للإيحاء لاستعمال الخيال، وربما يشتمل على تطوير أوسع للمقدمة. تستخدم إجراءات التنويم في تشجيع الاستجابة للإيحاءات وتطويرها. والشخص الذي يتولى عمليه التنويم هو الذي يقود المرء المعني لكي يستجيب للإيحاءات في التجربة الوهمية، وبدائل الإدراك، والإحساس، والعاطفة،

والتفكير أو السلوك. ويمكن للأفراد أيضًا أن يتعلموا تنويم أنفسهم وحدهم من دون تدخل شخص آخر، فيما يُعرَف بتطبيق إجراءات التنويم المغناطيسي الذاتي، فإذا استجاب المرء للإيحاءات فهذا يعني أن التنويم قد تم فعلًا، ويرى كثيرون أن استجابات التنويم وتجاربه تتميز بحدوث حالة التنويم، وفي الوقت الذي لا يرى فيه بعضهم أيَّ ضرورة لاستخدام مصطلح التنويم المغناطيسي جزءًا من حالة التأثير الذي يحفِّز إلى النوم، يرى آخرون العكس».

من ناحية أُخرى، ارتبط استخدام التنويم المغناطيسي بتجارب مشروع (MKUltra) لإيجاد شخصيات بديلة قادرة على ممارسة القتل، وارتكاب جرائم، وغير ذلك من الأنشطة التي لا تكون ظاهرة للشخصية الأمامية الحقيقية، وتَظهر تلك الممارسات فقط عندما يخضع المرء لتنويم مغناطيسي. تجدر الإشارة إلى أن الطوائف الدينية المتطرفة تُتَّهم باستخدام لغة التنويم المغناطيسي لتجنيد الأتباع، والإفادة من التأثير في الإيحاء الذي يجعل أكثر الأتباع ذكاءً يهبون حياتهم وأموالهم لزعيم الطائفة الدينية.

يقول الدكتور كوريدون حامود، عالم النفس والأستاذ والمؤلِّف، في بحثه الطوائف الدينية، والاستغلال الشعائري، والسيطرة على العقل: دور الطوائف الدينية في الاستغلال الشعائري والسيطرة على العقل: «الطريقة التي يجنِّد بها المرشح المنشوري تفضي إلى تقسيم العقل، ويحقق هذا بعض غايات مجتمع المخابرات، فإذا كنت تبحث عن تجنيد قاتل فهذا يعني أنك تقسِّم العقل». وكان حامود قد أشار إلى أن سرحان سرحان الذي اغتال

روبرت ف. كينيدي قد أُصيب بفقد الذاكرة، حسب ما أكَّد اختصاصي الطب النفسي الدكتور بيرنارد دايموند المعيَّن من المحكمة الذي عاين حالته، ومع هذا فقد استطاع سرحان أن يتذكر، تحت تأثير التنويم المغناطيسي، أنه قتل كينيدي، بل استطاع تذكر التفاصيل كلها المتعلقة بالحادثة. أمَّا عندما يتعلق الأمر بالأطفال فإنهم، بحسب حامود: «يبدؤون بعمل برمجة أساسية للأطفال في سن الثانية والثانية والنصف، بعد عزلهم تمامًا عن طريق الاستغلال مثل الاستغلال الجسدي، وطرائق أُخرى مثل وضع أصابعهم بين كماشة شرك الفئران، ثم مخاطبة الآباء بالقول: «لن تدخلوا حتى يكف الأطفال عن البكاء، فعندئذٍ فقط تستطيعون الدخول وتحرير أصابعهم من الشرك». بعد ذلك يتدرجون إلى مستويات أعلى تظهر في سن السادسة أو السادسة والنصف، ويستمرون معهم خلال سنوات المراهقة، ويزيدون الجرعة من وقت إلى آخر كلما تقدَّم بهم العمر».

فبهذا النوع من برمجة التنويم في بواكير الحياة تُبرمَج عقول الأبرياء الضحايا بصورة كاملة عندما يكبرون، وقد يفقدون عقولهم الحقيقية في هذه الأثناء: إذ تستخدم المحفزات لتشجيع الشخصيات البديلة على تنفيذ عمليات القتل، أو ارتكاب الجرائم أو الاعتداءات الجسدية في أثناء أداء الشعائر الدينية، وقد لا تعلم الشخصية الأمامية (الحقيقية) أيَّ شيء عن هذه الممارسات: فاستخدام التنويم المغناطيسي مع الاستغلال جنبًا إلى جنب يمثِّل الوصفة الفضلى لتحطيم الإنسان وتحويله إلى ماكينة طائعة مذعنة، ممزقة الجسد والعقل والروح، ومبرمجة لخدمة أهداف الآخرين، بصرف النظر عن خبثها وما تحويه من شر.

في عام 1968م، كتب هـ. د. بيرنس، الذي ألَّف كتبًا عديدةً عن التنويم المغناطيسي، في أحد كتبه التنويم المغناطيسي شارحًا الكيفية التي تُدمَّر بها الشخصية رويدًا رويدًا: «نقطة البداية لإيجاد شخصية مزدوجة خانعة، على مهل، هي بالطبع الشخصية العادية التي تتحكم في وعيها، ولا وعيها». وبعد العثور عليها تأتي الخطوة التالية، ممثَّلةً بإزاحة الرغبة في الإدراك وإحلالها برغبة الشخص الذي يخضعها للتنويم المغناطيسي، وقد يتطلب تحقيق هذا الهدف إخضاع الضحية لحالة تنويم مغناطيسي عميقة جدًّا.

تؤكِّد البرامج العديدة التي أفصحت عنها ضحايا الاستغلال الشعائري والسيطرة على العقل أن الشخصيات الحقيقية للضحايا تكون غائبة تمامًا. وحتى إذا وُجدت أحيانًا فإنها تكون مدفونة تحت ركام هائل من البرامج، فيصعب الوصول إليها، وفي بعض الحالات يتم إخفاء الشخصية الحقيقية إلى الأبد لأهداف معينة، مما يُسهِّل كثيرًا مهمة الحفاظ على القاتل المبرمج، والحيلولة دون استعادة إدراكه حتى لا يخل بتوازن القوى بوشاية هنا أو هناك.

هكذا يكون الربط بين القتلة وبرمجة التنويم المغناطيسي. فابحث عن ساذج، ثم برمج عقله ليقتل شخصية اجتماعية مهمة، اصنع منه شخصية بديلة قوية، بحيث تعجز شخصيته الأصلية عن معرفة الحقيقة، إلَّا بتأثير التنويم المغناطيسي، وبذا تكون قد حصلت على القاتل والجندي والجاسوس المطلوب. ربما لهذا السبب توصل الدكتور إدوارد سايمون - كالاس رئيس قسم الطب النفسي في سجن سان كونتن عام 1969م، عند الكشف على سرحان سرحان، قاتل الرئيس الأمريكي كينيدي، مع زميله الدكتور ديفيد ج. شميت رئيس قسم الطب النفسي في السجن؛ توصلا إلى أن سرحان لا

يعاني الانفصام أو الذهان، وإنما أُخضِع لتنويم مغناطيسي بصورة مثالية، غاية في الدقة والإحكام. وفي الحقيقة، وطبقًا لإفادة المحكمة، فقد اقتنع سيمسون - كاليز أن سرحان تعرَّض لبرمجة لكي يقتل كينيدي، مؤكدًا أنه: «تعرَّض لـ.... من السهولة بمكان إلقاء المسؤولية عليه لأنه عربي. لقد بُرمِج ليكون موجودًا هناك».

عرفنا في الفصل السابق كيف أجرت حكومتنا والجيش- بالتعاون مع النازيين، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وفي أثناء الحرب الباردة- تجارب التنويم المغناطيسي والسيطرة على العقل لتحقيق أهداف عدَّة، أهمها تجنيد القتلة. وفي هذا السياق، وثَّقت كارلا إميري في كتابها **سري، لا تخبر أحدًا: موسوعة التنويم المغناطيسي** **Secret, Don't Tell: The Encyclopedia of Hypnotism** عمليات التنويم المغناطيسي خلال مسيرة السيطرة على العقل، ولا سيما تلك التي تضمنتها مختلف برامج وكالة المخابرات المركزية، بما فيها مشروع (MKUltra)، فقد وثَّقته توثيقًا دقيقًا شاملًا، مسلِّطة الضوء على أهداف هذه البرامج. وذكرت منها على سبيل المثال: تدريب ذاكرة التنويم الذي يشبه ما يُعرَف بعملية تقوية الذاكرة التي تستخدم التنويم المغناطيسي في تعزيز قدرة الذاكرة الحالية وتجويد كفاءتها، وقد كانت الحكومة والجيش يستخدمان هذا النوع من تقوية الذاكرة الذي لاحظته إميري لتحقيق هدفين محدَّدين، هما:

1. تجنيد جواسيس يحملون رسائل من دون إدراكهم لما يفعلون.
2. استخدام الأشخاص آلةً للتسجيل، حيث لا توجد آلات تسجيل ميكانيكية، أو يحظر استخدامها.

ففـي مشـروع (Bluebird) مثلًا، كان الهـدف إجهاض أيٍّ نوع من المقاومة والسيطرة العكسية، وقد تم عمل ذلك كله على نحوٍ يجعل العنصر (الضحية) نفسه يجهل تمامًا التغيير الذي أصاب شخصيته الحقيقية. وتلخص مذكرة وكالـة المخابـرات المركزية هـذا الأمر (الدفاع ضد اسـتجوابات السـوفييت الطبيـة والتجسـس علـى التقنيـات الحديثـة) بالقـول: «يسـاعد التنـويم المغنـاطيسـي علـى تزويد السـجين أو أيٍّ شـخـص آخـر بالمعلومـات المطلوبة، ليُكلَّـف بنـاءً على ذلك بأداء مهمة محدَّدة، ثم يُجرَّد من تلك المعلومات كلها عند عودته بعد انتهاء المهمة، من دون أن يعرف شيئًا أو يحتفظ بأيٍّ معلومة منها». فيا لهم من جنود صغار رائعين!

متلازمة إطلاق النار

ظل اسـتخدام التنويم المغنـاطيسـي مرتبطًا بمشروعات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، التي تشـمل السـيطرة على العقل، كما أشرنا في الفصل الثالث؛ لذا قد يتساءل النـاس عمَّا إذا كانت الأحداث المأساوية التي نشهدها اليوم، مثل: القتل، وإطلاق النـار العشـوائي في المدارس، وانتشـار الجريمة على نحو غير مسبوق، والانتحار، كلها نتيجة لذلك النوع من البرمجة: فكلنا يـدرك أنـه يمكن لأيٍّ شـخص أن يغرس في عقل شـخص آخـر فكرة ما عن طريق التأثير المغنـاطيسـي، ونعلم أيضًا أن النـاس قد يفقدون وزنًا، ويقلعون عـن التدخـين وغيره من العـادات السـيئة، أو يفقدون الشـعور بالألم في أثنـاء العمليات العلاجية نتيجة الإيحاء الذي يسـبِّبه التنويم المغنـاطيسي، والحالة البديلة للعقل الحقيقي التي تظهر بفعل تأثيره.

ولكن، هل يعني هذا أن مآسي العالم اليوم هي بسبب شخص بُرمِجت شخصيته بفعل قوًى شريرة بارعة في وسائل السيطرة على العقل؟ هل يمكن لهؤلاء القتلة أن يخضعوا لبرمجة عقلية تؤدي إلى ظهور سلوك جماعي محدَّد أو رد فعل جماعي؟ يقول الدكتور كولن روس، اختصاصي الطب النفسي، في كثير من كتبه: «تستغل كثير من مشروعات الطوائف الدينية ومختلف الحكومات والجيش، السيطرة على العقل والصدمة لتفريق الناس وشق صفوفهم، ثم تغيير شخصياتهم لأداء أعمال ما كان لهم أن يضطلعوا بها في الحالة الطبيعية، فينفذون رغبة الذين برمجوا عقولهم، بما في ذلك القتل والمجازر الجماعية».

يشير أصحاب نظرية المؤامرة إلى سلوك القتلة والحشاشين الغريب، بما في ذلك اعترافاتهم لرجال الشرطة، وسلوكهم في المحكمة، وتحديقهم في المجهول، ومظهرهم الشاذ. لنستعرض -مثلًا- حادثة إطلاق النار في مدرسة ساندي هووك بولاية كونكتيكت:

في الرابع عشر من شهر ديسمبر عام 2012م، أطلق صبي يُدعى آدم لانزا النار على والدته، فأرداها قتيلة، ثم ذهب إلى مدرسة ساندي هووك الابتدائية في نيوتون بولاية كونكتيكت، وأطلق النار عشوائيًا، فقتل عشرين تلميذًا وستة مُعلِّمين، ثم انتحر بإطلاق النار على نفسه. وبعد أن تناقلت وسائل الإعلام حكايته، اتضح أنه في ربيعه العشرين، وكشف تاريخه المرضي عن معاناته حالات اضطراب عقلي وحسي في طفولته، ومتلازمة الشعائر الدينية في سن المراهقة، إضافةً إلى معاناته حالات اضطراب واكتئاب مفرطة؛ إذ كان يتناول دواءً للاكتئاب يُعرَف باسم سيليكسا، لكنه

لم يستمر في تناوله، فاعتقد والده بيتر لانزا أن ابنه ربما يعاني انفصامًا في الشخصية. زاعمًا أنه كان يضع أشرطة سوداء لاصقة على نوافذ غرفته، رافضًا السماح لأيٍّ شخص بدخولها، وكان تواصله مع والدته في السنوات الأخيرة عن طريق الرسائل الإلكترونية فقط. ولوحظ أنه ابتعد عن والده وأخيه خلال المدة التي سبقت إطلاق النار، وكانت تنتابه الهواجس كثيرًا بخصوص إطلاق النار العشوائي، وترك نقدًا لاذعًا للنساء على شاشة حاسوبه قبل أن يقضي، وكانت والدته نانسي تحتفظ بأسلحة نارية في دارها، وبالطبع فإن الإصابة بأمراض عقلية وتوافر الأسلحة يعنيان أن ثمَّة أخبارًا سيئةً قادمة.

ولكن، هل كان حقًّا يخضع لسيطرة على العقل؟ لا، لا توجد في الحقيقة شواهد تؤكِّد هذا، وفي المقابل لا توجد شواهد تؤكِّد العكس، ولكن يرى بعض مناصري نظرية المؤامرة أن هوس آدم بإطلاق النار العشوائي، إضافةً إلى ما تقدَّم من أخبار عنه، كلها شواهد على إخضاعه لبرمجة السيطرة على العقل التي جرى تنشيطها لإيجاد ما يُعرَف بالعلامات الكاذبة، أو إحداث الصدمة التي تحرك قطاعات معينة من الشعب لخدمة أهداف الحكومة.

لم يكن ذلك كله أكثر من حقل تجارب غير مقصود لتحقيق أهداف تفضي في النهاية إلى نشر الذعر وزرع بذور الاختلاف والشقاق بين الجماهير، مما يرسل (مؤامرات كاذبة) وفيروسات أخبار مضللة خلال شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت) و(اليوتيوب) وغيرهما من وسائل التواصل الاجتماعي؛ بغية تقسيم الناس إلى أحزاب وجماعات، وتكريس التعصب الطائفي، وزيادة مبيعات الأسلحة أو الحد منها، بحسب وجهة

نظر الجهة المعنية. فكل أولئك القتلة والحشاشين هم أدوات تُستخدَم ضدنا نحن الشعوب، لتغيير شخصياتنا، وتعديل سلوكاتنا وفق المطلوب. أم أنهم - يا تُرى - مجرد عمال بندق يحملون سلاحًا فحسب.

يكمن الفشل في أن مهمة معظم هؤلاء القتلة والحشاشين تفضي بهم إلى الموت، ولهذا لا يمكن استجوابهم في ضوء الحقيقة. ومَن يفلت منهم من الموت تخلص به الحياة إلى السجون أو مؤسسات الصحة النفسية، حيث يقضي بقية أيامه ملطخًا بسمعة ما ارتكبه من أفعال، ولن يُصدِّقه أحد حتى لو حاول استغفال بعض السذج باستثناء قلة قليلة من المجتمع، تشاركه الصفات نفسها.



مسرح القرن السادس عشر في أورورا بكولورادو الذي شهد إطلاق النار عام 2012م. حقوق التصوير محفوظة لـ (آلقر)، والصورة متوافرة للنشر والتداول بحسب رخصة التوثيق المجاني، بموجب (GNU).

ثمَّة حالة أُخرى تبدو أكثر تأثيرًا، مثَّلها جيمس هولمز، ابن الرابعة والعشرين، القاتل الذي أطلق النار في مسرح القرن السادس عشر في أورورا

بكولورادو، في العشرين من يوليو عام 2012م، فقتل اثني عشر شخصًا، وأصاب سبعين آخرين.

كان هولمز يرتدي ملابس واقية من الرصاص، تشتمل على قناع واقٍ من الغازات السامة، وسترة عازلة، وكان مدججًا بالسلاح حتى أخمص قدمه عندما صعد المسرح، مجسِّدًا صعود نجم فارس العصور الوسطى، فأطلق غازات مسيلة للدموع، ثم أطلق على المشاهدين وابلًا من الرصاص من أسلحة نارية مختلفة، بما فيها البندقية، والرشاش، وسلاح جلوك 22 اليدوي. اعتُقِل هولمز بعد ذلك خلف المسرح من دون إبداء أيِّ مقاومة، ويقال إن شعره كان مصبوغًا بصبغة حمراء اللون، وكان يسمي نفسه الجوكر، على الهيئة التي رآه فيها الجميع في محكمة سنتنيال بكولورادو. ويبدو أنه قام بالعمل وحده بعدما فخَّخ شقته. كان العالم يراقب ما حدث في فزع، في حين كانت الأحداث تنشر في وسائل الإعلام كلها. وسرعان ما بدأت نظرية المؤامرة تطفو على السطح.

وحسب ما ذكرت وين مادسين الصحفية التي تكتب لصحيفة أخبار القائمة السوداء، فقد حصل هولمز على منحة من المعهد الوطني للصحة العصبية التابع لمعسكر أنشوتز الطبي بجامعة كولورادو في دينفر. ونال شهادة البكالوريوس في العلوم، متخصصًا في علم الأعصاب، من جامعة كاليفورنيا. ومن المفارقات العجيبة ما أُشيع عن تقديم هولمز -قبيل المجزرة- محاضرة في المعسكر عن (الأساس الحيوي لعلم النفس واضطرابات الأعصاب) الذي أُخلي تمامًا إثر حبس هولمز في السجن بعد عملية إطلاق النار. ومعسكر أنشوتز هذا هو موقع كان تابعًا لمركز الجيش

الأمريكي الطبي في فتزسيمونز، وسُمّي تيمُّنًا بفيليب أنشوتز، وهو مسيحي متعصب، وأحد الروّاد الكبار في صناعة النفط والسكك الحديدية، وصاحب صحيفتي الممتحن، والمعيار الأسبوعي.



لوحة زيتية لهولمز من مجموعة (Lone Nut) بريشة روبرت برستون، استُخدِمت بإذن صاحب الحقوق.

عمل هولمز في سن الثامنة عشرة باحثًا داخليًا في معهد (SALK) بجولا في كاليفورنيا، وهو معهد يهتم بالبحث في مشروعات تطوير الدفاع لمصلحة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، إضافةً إلى مجموعة من طرائق البحث الجامعية التي تحول دون شعور أفراد القوات المقاتلة بالتعب والإجهاد في أثناء المعارك، وذلك باستخدام مادة الفلافينول التي توجد في الشوكولاتة الدكناء لخصائصها المانعة للأكسدة، وشركة (مارس) للشوكولاتة.

يعد مشروع البحث هذا جزءًا من تطوير مشروعات الدفاع في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (جنود من أجل أداء مثالي)؛ بغية إيجاد عقول تعمل كالآلة للتدخل في ساحات المعارك، بحسب مادسن. تجدر الإشارة إلى أن والد جيمس هولمز، الدكتور روبرت هولمز، كان منغمسًا أيضًا حتى أذنيه في عمل له علاقة بالشبكة العصبية، يسمح للماكينة بتفسير ما تتلقاه من تحفيز، وتترجمه حرفيًا، ثم تفكِّر كما لو أنها إنسان بكامل عقله. ويعتقد أن للدكتور روبرت هولمز علاقات أوسع من هذا؛ إذ كانت له مشاركات وإسهامات في مجال البحث في علم الأعصاب والدفاع أدلى بها في أثناء تعاونه مع وكالات مخابرات حكومية.

ولكن، هل تعد هذه العلاقات مؤشرًا لارتباط هولمز بجماعات نافذة شريرة وخضوعه لها؟ هل يعد عمله في مجال المخ والأعصاب مؤشرًا أيضًا لما يمكن أن يكون قد تعرَّض له من تحفيز لكي يطلق النار على جمهور المسرح؟ هل هذه العلاقات غير طبيعية؟ هل يمكن أن تؤكِّد ما يُثار من شكوك أم أنها مجرد اختلافات عادية يمكن ملاحظتها على أيِّ شخص آخر إذا أنعمنا النظر؟

وعودًا إلى قصة آدم لانزا، مطلق النار في ساندي هووك، فغالبًا ما تكون تلك الأحداث المأساوية علامات كاذبة لترسيخ استجابة محدَّدة من الجمهور عن طريق وسائل الإعلام، إذا كان ذلك حافزًا يمهد للسيطرة على السلاح وضبطه، أو صرف انتباه الجمهور عن وضع ما، لا ترغب الحكومة إطلاع العامة عليه. فهل تعد زيادة وتيرة إطلاق النار العشوائي على هذه الشاكلة مؤشرًا لحدوث شيء أكبر أم أن الأمر لا يعدو مجرد تغطية إعلامية موسَّعة لمثل هذه الأحداث؟ على أيٍّ حال، فإن لانزا لم يكن غريبًا عن طاحونة نظرية المؤامرة؛ إذ كان والده بيتر لانزا نائب رئيس أفضل شركات خدمات تمويل الطاقة.

وبحسب نظرية المؤامرة، فقد كان بيتر يعرف معلومات عن فضيحة معدل الفائدة الذي اتفقت عليه مصارف لندن الرئيسة، التي تورطت فيها مصارف عدَّة ضخَّمت معدلات الفائدة، أو خفَّضتها بطريقة خادعة: لكي تستفيد من التجارة، أو تعطي انطباعًا بأنها تتمتع بوضع مالي سليم -خلافًا للواقع- يجعلها أهلًا للحصول على تسهيلات ائتمانية من مصارف أُخرى. وكان يُفترض أن يدلي بيتر لانزا بشهادته أمام لجنة المصارف في مجلس الشيوخ، ولكن لم يَجْرِ الإعداد لأمر كهذا، فأخذ بيتر يشيع الخبر بين أهالي نيويورك قائلًا: «لقد أدركت بعد فوات الأوان أن آدم ربما سبَّب لي فاجعة قد تودي بحياتي إذا وجدت السانحة الملائمة. لم أكن أشك في هذا لدقيقة واحدة؛ فقد كانت كل واحدة من الرصاصات الأربع التي أطلقها على نانسي موجَّهة لكل واحد منَّا: الأُولى لنانسي، والثانية له هو، والثالثة لأخيه ريَّان، والرابعة لي أنا». فهل يمكن لخطايا الأب المزعومة أن تكون هي المسؤولة عن السلوك الغريب لآدم؟ إنه لاستنتاج جد خطير إذا كان الأمر كذلك، ولكن على أيٍّ حال، تبقى نظرية المؤامرة حاضرة دائمًا.

مستقبل السيطرة على العقل

كتب نيكولاس ويست مقالًا في صحيفة (Activist Post) حمل عنوان «سبع وسائل تُستخدَم مستقبلًا للسيطرة على العقل»، وقد استعرض فيه بعض الطرائق التي يمكن أن تستخدمها مجموعة محدودة مميزة للتلاعب بنا مستقبلًا، والتي يعتمد معظمها غالبًا على تقنية الغد للهيمنة والسيطرة والاحتواء. يقول ويست في ذلك: «سوف تعتمد سياسة برمجة العقل مستقبلًا على البرمجة الرقمية المباشرة». وفيما يأتي الوسائل السبع التي حذَّر ويست من استخدامها مستقبلًا للسيطرة على العقل:

1. المراقبة والأدوات: يرى ويست أن المراقبة والهواجس والأدوات تمثّل وسائل يمكن بوساطتها السيطرة على الجمهور. مشيرًا إلى ألعاب التلفاز والفيديو لما لها من تأثير شديد في رؤيتنا لعالم اليوم، ومشيرًا أيضًا إلى شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت)، وأجهزة الهاتف، والأجهزة اللوحية، وغيرها الكثير؛ إذ تعد حقًّا أدوات فاعلة لإحداث تغيير مباشر على حياتنا. وها نحن اليوم نشهد التحام العقل بالحاسوب، وتأثير الثاني في الأول الذي نعيشه في كل بيت.
2. سيطرة العقل على الإنسان الآلي والطائرات: تؤكّد البحوث التي تُعنى بالسيطرة على العقل ما يحدث اليوم من مزاوجة بين الإنسان والماكينة. فهل سنشهد مستقبلًا طائرات يمكن التحكم في طريقة تفكيرها؟

3. التلاعب المغناطيسي: انظر الفصل الثامن لتقف على الوسائل العديدة التي أثّرت في بيئتنا، فأثرت ثم في طريقة تفكيرنا وأفعالنا وسلوكاتنا.

4. الطعام والشراب: هل يمكن أن يُسيطَر علينا بما يصل جسدنا عن طريق طعامنا وشرابنا ودوائنا وغير ذلك من الوسائل؟

5. الهندسة الوراثية وهندسة الأعصاب: أفاد مهندس تقنية الأعصاب إيد بويدين من معهد ماساتشوستس للتقنية أنه: «إذا أخذنا في الحسبان فكرة أن عقلنا متخلخل في دماغنا، ثم أصبحت الأولوية لفهم الكيفية التي نهندس بها المخ لعمل الأفضل، فربما نفعل ذلك لعمل الأسوأ أيضًا».

6. علم الأعصاب[1]: يمثّل العقل البشري آخر ما انتهى إليه العلم والبحث، ولهذا تعد السيطرة عليه الكأس المقدسة للبحوث. وللأسف الشديد، فإنه يمكن استغلال هذا الأمر للشر كما يمكن استغلاله للخير.

7. التحميل المباشر والاختراق: لم تعد قرصنة العقل مادة لكتب قصص الخيال العلمي فحسب، بل أصبحنا اليوم أنظمة حاسوبية بشرية، وهو الأمر نفسه الذي حذّرنا منه راي كورزويل مؤلّف كتاب الخصوصية على الأبواب، ومدير قسم الهندسة في جوجل، يقول: «سوف يطور البشر وسائل تساعدهم على صنع أجزاء جديدة من أجسادهم، سواء عن طريق علم الأحياء كان ذلك أم غيره». واليوم، صرنا قاب قوسين أو أدنى مما كتبه كورزويل في كتابه هذا.

(1) علم الأعصاب: علم يُعنى بدراسة تركيب الأعصاب والأنسجة العصبية وكيميائها الحيوية وبيولوجيتها الجزيئية، ولا سيما ما يتصل بالسلوك والتعلم. المترجم.

السيطرة عن بُعْد

تخيَّل أن ثورًا هائجًا هجم عليك فجأة بكل قوته ليطرحك أرضًا. فضغطت على زر جهاز لاسلكي صغير لتكبح جماح الثور الهائج. فهل يمكن لهذا الأمر أن يحدث؟ حسنًا، هذا ما حدث حقًا. فشكرًا للدكتور جوز ديلجادو أستاذ العلوم في كلية الطب بجامعة ييل الذي أشرف عام 2013م، على تجربة تؤكِّد ذلك في كوردوفا بإسبانيا؛ فقد أثبت عن طريقها إمكانية السيطرة على الثور الهائج بجهاز التحكم عن بُعْد؛ إذ تمكَّن ديلجادو من تثبيت أقطاب معدنية في مخ الثور تستجيب لتحفيز السيطرة عن بُعْد، فتغير سلوك الثور وأفعاله تغييرًا كاملًا.

ظل ديلجادو يعمل على هذه التجربة للسيطرة على السلوك عن بُعْد خمسة عشر عامًا، حتى تمكَّن أخيرًا من تطوير تقنية جعلته يؤمن أن العلوم قد بلغت نقطة تحوُّل مهمة. فكتب مقال «مصارع الثيران يوقف ثورًا بجهاز لاسلكي في دراسة تهدف إلى تعديل سلوك الحيوان» الذي نُشِر في نيويورك تايمز، في شهر يوليو عام 2014م. يقول في هذا المقال: «ترتبط هذه الوظائف تقليديًّا بالعقل، مثل: الصداقة، والسعادة، والتعبير اللفظي الذي يمكن تحفيزه وتعديله وكبحه بالتحفيز المباشر للمخ». وبالرغم من أن العلماء درجوا على تعديل ما يصل المخ عن طريق التحفيز الكهربائي منذ القرن التاسع عشر، فإن هذا البحث الجديد الشجاع يوحي أننا ربما نصبح نحن أيضًا - في يوم ما - خاضعين للسيطرة عن طريق التحفيز المباشر. تجدر الإشارة إلى أن هذا البحث لم يكن قاصرًا فقط على الحيوانات مثلما أكَّد ديلجادو نفسه الذي أجرى تجارب في هذا الشأن على الإنسان، بدأها

أساسًا في أثناء محاولاته علاج بعض أنواع الصرع. حيث يعمل تحفيز مختلف مناطق المخ على إثارة القلق والعاطفة. وحتى تعزيز قدرة المرضى على التواصل اللفظي.

ولكن، يبقى سؤال مهم لا بد أن يُطرح هنا: مَن الذي يمكنه السيطرة على أجهزة التحكم؟

الفصل الخامس

علاقة الطائفة: استخدام السيطرة على العقل في الطوائف الدينية

«وسائل التجنيد التي تقوم على حقن الضحايا بكيمياء العقل طوال مدة الحبس تجعل الطائفة الدينية أكثر خطورة مما هي عليه الآن».

كيث هانسون

«إن ما تراه وتعتقده هو كل ما يلزمك لكي تؤمن به وتصدقه؛ فإذا كنت ترى في صديقًا لك فسأكون صديقك، وإذا كنت ترى في والدًا لك فسأكون والدك، ولأمثالك ممن فقدوا الوالد، وإذا كنت ترى في المنقذ المخلّص فسأكون منقذك ومخلّصك».

جيم جونز، معبد البشر

«تنتشر أفكار الطوائف الدينية ومعتقداتها بوساطة شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت) بسرعة مذهلة، وفجأة قد تجد طائفة ما مكوّنة من اثني عشر عضوًا فقط تجمعهم قضايا شخصية مهمة، وصيغة تحظى بقبول منقطع النظير، فيتضاعف عدد أتباعها تباعًا».

تيم بيرنرز- لي

- جونز: لطفًا. بحق الإله. دعنا نمضِ قُدُمًا في هذا: لقد عشنا وأحببنا كما لم يعش أحد غيرنا ويحب، وأخذنا حظنا من المتعة في هذا العالم أكثر مما يمكن أن نحظى به مستقبلًا. هيَّا نفعلها. دعنا نضع حدًّا لهذا العذاب. (تصفيق) إنه لأمر صعب جدًّا أن تستمر في العمل بهذه الطريقة الاعتيادية (الروتينية) يوميًّا لكي تموت ببطء، فأنت تموت منذ طفولتك حتى غزا الشيب رأسك، ليس هذا عدلًا، وإني على يقين أنهم سوف يدفعون ثمن ذلك. أجل... سوف يدفعون ثمن ذلك، هذا انتحار ثوري متطرف. لم يكن انتحارًا لتدمير الذات: لذا سيدفعون ثمن هذا كله: لقد أرغمونا على هذا، وقطعًا إنهم سيدفعون ثمنه. وأتركهم لهذا المصير. (أصوات تعلو) مَن يريد أن يمضي مع طفله فليفعل، أحسب أن هذا أمرًا إنسانيًّا؛ حتى أنا أريد أن أذهب. وأريد أن أراكم أنتم أيضًا تذهبون. يمكنهم أخذي وفعل ما يريدون مهما كانت رغباتهم. أريد أن أراكم تذهبون. لا أريد رؤيتكم تسيرون في هذا الجحيم بعد اليوم. كفى كفى. نحن نحاول جاهدين. أقترح على الجميع أن يرتاحوا؛ فأفضل شيء يمكنكم فعله أن تريحوا أعصابكم، وعندئذٍ لن تكون لديكم أيٌّ مشكلة، لن تكون لديكم أيٌّ مشكلة مع هذا، إذا أنتم أرحتم أعصابكم.

الاقتباس التالي مأخوذ من (شريط الانتحار المسجَّل) لخطبة زعيم طائفة معبد البشر الأخيرة جيمس وارن (جيم جونز) التي ألقاها أمام أتباعه في الثامن عشر من نوفمبر عام 1978م، بعيدًا وسط غابات غيانا. فقد استطاع جونز إقناع أكثر من تسع مئة شخص من أتباعه المخلصين بوضع حدٌّ لحياتهم وحياة أطفالهم الصغار. في أكبر ظاهرة انتحار جماعي وأشهرها في التاريخ على الإطلاق. وبالرغم من أن معبد البشر أُسِّس عام 1955م، ناشدًا تحقيق أهداف إيجابية؛ مثل: تكوين الأسرة ورعايتها

وحراستها وتحقيق أمنها واستقرارها، وتوحيد جهود الأفراد للعمل يدًا واحدةً من أجل مساعدة الفقراء والمساكين واحتواء الجميع، فإنه تحوَّل خلال العقدين الأخيرين إلى طائفة دينية، يديرها رجل استولى حبه على لُبِّ أتباعه الذين عرفوه، والذين قادهم سوء حظهم لكي يدفعوا أرواحهم ويضحوا بحياتهم قربانًا من أجله.

أفاد جونز من أسلوب المزاوجة بين فن الخطابة والتبرئة الإلهية من الإثم، الذي يعد المرء بفضله صالحًا وجديرًا بأن ينعم بالخلاص، لتبرير قتل عضو مجلس الشيوخ الأمريكي ليو ريَّان والطاقم الإعلامي المرافق له من شركة الإذاعة الوطنية، بإطلاق النار عليهم في أثناء محاولتهم مغادرة غيانا، إثر استجواب الطائفة الدينية فيما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان. وقد أحسن جونز استغلال شعور الاستقامة والولاء والوفاء والإخلاص، عندما سأل أتباعه الذين ظلوا معه في المعسكر لكي يموتوا بكرامة، فقد سبق أن وهب أولئك الأتباع أموالهم ووقتهم وطاقتهم وقدراتهم كلها لهذا الرجل الذي سمَّى نفسه رسولًا في تلك الخطبة الأخيرة. واليوم، يريدهم أن يضحوا بحياتهم إظهارًا لصدق الولاء، والاتحاد ضد الأعداء الخارجيين الذين يفكِّرون في تدمير المجتمع الذي أسسوه وسط الغابة.

قدَّم أكثر من تسع مئة شخص -كما أسلفنا- من أولئك الأتباع حياتهم من أجل زعيمهم، الرجل الذي تقمَّصه جنون العظمة والأنانية حتى أخمص قدميه، الرجل الذي لا يرى أيَّ ذنب أو إثم في أن يطلب إلى الآباء ذبح أبنائهم الذين من أصلابهم، واصفًا هذا الفعل الشنيع بالانتحار الثوري احتجاجًا على أوضاع العالم غير الإنسانية.

لا أدري إذا كان ثمَّة عمل غير إنساني في هذا العالم أكثر من تحريض الآباء على ذبح أطفالهم بأيديهم. صحيح أننا نستطيع (أنا وأنت) أن نطرح مثل هذا السؤال. أمَّا أولئك الخانعون الذين هم أسرى طائفة دينية ما: جسديًّا، أو عاطفيًّا، أو الحالتين معًا، فلن يجرؤوا على طرح مثل هذا السؤال، بل لن يراودهم حتى مجرد التفكير فيه؛ فقد تبلَّد الحس العام في عقل أتباع الطوائف الدينية، واختفى، وأُفرغ من محتواه. ثم أُعيدت برمجته بوساطة زعيم الطائفة أو زعمائها، مستغلين استعداد أولئك الأتباع للطاعة والإذعان.

- جونز: «إنني، بكل احترام وتقدير، أموت بقدر من حفظ الكرامة. فضع حدًّا لحياتك بكرامة. لا تغادر الدنيا مكروبًا بدموع تبلِّل خديك. فليس ثمَّة شيء مؤلم في الموت؛ فهو كما وصفه ماك لا يعدو سوى انتقال من طائرة إلى أُخرى في رحلة ما. لا تكن هكذا، لا تكن متخلِّفًا؛ فهذا لا يليق بالطريقة التي ينبغي أن يغادر بها الاشتراكيون أو الشيوعيون الدنيا. فكلنا ملاقٍ حتفه لا محالة؛ لذا ينبغي أن نموت بشيء من الكرامة. أجل... ينبغي أن نموت بشيء من الكرامة. اليوم لدينا خيار، ولكن غدًا لن يكون لدينا أيُّ خيار آخر. هل تعتقد أنهم سيسمحون بحدوث هذا؛ يسمحون لنا أن نغادر الحياة هكذا؟! لا بد أنك واهم إذا فكرت بهذه الطريقة. اسمعوا يا أطفال: الموت مجرد شيء يجلب لكم الراحة. آه... يا الله». (يصرخ الأطفال).

أمي، أمي، أمي، أمي، أمي، رجاءً. أمي، رجاءً، رجاءً، رجاءً. لا لا تفعلي هذا، لا تفعلي هذا. ضعي حدًّا لحياتك مع أطفالك، ولكن لا تفعلي هذا.

المرأة الرابعة عشرة: نحن نفعل هذا كله من أجلكم.

- جونز: «لقد تحررتن أخيرًا. اكبتن اكبتن عواطفكن، ولا تظهرنها. أيُّها الأطفال، لن يكون الأمر مؤذيًا إذا أنتم هدأتم. (أصوات موسيقى وبكاء) تقول: لم يحدث شيء مثل هذا من قبلُ مطلقًا؟ بل كل قبيلة على مَرِّ التاريخ كانت تفعل هذا. نعم، كل قبيلة في تاريخنا التليد تعرَّضت للفناء. فكل قبائل الهنود في الأمازون تفعل هذا الآن؛ إذ يرفضون الإتيان للعالم بأيِّ أطفال، فيقتلون كل طفل يولد؛ لأنهم لا يريدون أن يعيشوا في عالم كهذا. فاصبروا اصبروا. الموت هو... لقد أخبرتكم، لا يزعجني ما تسمعونه من صراخ، لا تزعجني دموع المكروبين مهما بلغت أعدادهم؛ فالموت أفضل مليون مرة من عشرة أيام حياة كهذه. لو كنت تدري ما ينتظرك هناك، لو كنت تدري ما ينتظرك هناك، لسعدت كثيرًا بترجلك عن الحياة هذه الليلة».

وأنت تطالع خطبة جونز الأخيرة (الانتحار الثوري) التي ينادي فيها بالعمل، لا بد أنك تشعر بالغثيان من أولئك الذين يشعرون بالضعف والتهميش بسبب انتمائهم إلى طائفة دينية، ولكن المدهش أن العقل لا يقدِّم الكثير لأولئك الذين يقضون بتجرع السم أو تناول خليط من حلوى الجيلو والسيانيد[1]. وبالطبع، يدرك زعماء الطائفة الدينية أن أفضل العقول التي يجب السيطرة عليها هي تلك التي يتمتع أصحابها بقدرة هائلة على الاندماج الوجداني، والحنان، والشفقة، وصدق العزيمة. ولهذا السبب تسعى الطوائف الدينية دائمًا -مثلما فعل جونز- إلى عزل أتباعها وإبقائهم بعيدًا عن بقية أفراد المجتمع. فحينئذٍ، يمكنك أن تؤكِّد لأتباعك -بسهولة- مدى خصوصيتهم وأهميتهم، لتلعب على وتر وجدانهم، وتستغل عاطفتهم،

(1) السيانيد: مركب أبيض متبلر سام ذو رائحة كرائحة اللوز المر، يُستخدَم في صنع مبيدات الحشرات، وصقل سطوح الفلزات، واستخلاص الذهب والفضة من بعض المواد الخام. المترجم.

فتستولي بعدئذٍ على أموالهم، وتسيطر على وقتهم، بعيدًا عن عيون المتطفلين الذين ربما يحاولون كشف الحقيقة لهم، وإعادتهم إلى رشدهم.

سيطرة الطائفة

توصف الطوائف الدينية غالبًا بالغدر، والخبث، والمكر، وسرعة الانتشار، والإفساد، وبث الرعب والخطر. وبالرغم من ذلك ينتمي كثير من الناس إلى طوائف دينية حتى من دون أن يعرفوها. وتعريف الطائفة الدينية بسيط جدًا، وفقًا لقاموس ميريام- ويبستر: «جماعة دينية محدودة العدد، ليست جزءًا من دين واسع القبول والانتشار. وذات معتقدات يراها كثير من الناس أنها متطرفة وخطيرة».

ثمَّة مفاهيم عديدة لمعنى الطائفة، نوجز أهمها فيما يأتي:

1. نظام خاص لممارسة العبادة الدينية، استنادًا إلى شعائرها الخاصة وطقوسها التي يحدّدها مذهبها.
2. تأكيد قيم التبجيل والمهابة والوقار لشخص ما. أو فكر ما، أو شيء ما، خاصة كما يتم تأكيده بوساطة المعجبين.
3. مصدر العبادة والورع.
4. جماعة من الناس يجمعهم تبجيل شخص ما؛ مهابة شيء ما، أو فكر ما... .

5. الطائفة اجتماعيًّا هي مجموعة من الأشخاص يجمعهم فكر ديني ومنظومة من الطقوس والشعائر الدينية التي تدور حول رموزهم المقدسين.
6. عقيدة أو فرقة يراها بعض الأشخاص منحرفة، أو غير تقليدية، أو متطرفة. يعيش أتباعها غالبًا بمنأى عن المجتمع التقليدي، بتوجيه من زعيمهم الساحر.
7. أتباع عقيدة ما، أو نِحْلَة دينية ما.

ليس شرطًا أن تكون الطائفة دينية بطبيعتها؛ إذ يكفي فقط أن تكون أيُّ جماعةٍ شاذةً، فتعبد شخصًا أو شيئًا ما. تتشعب وجهة نظر المنظمات الدينية كثيرًا بشأن تحديد معنًى واضح للطائفة، وتكاد تتفق جميعًا على أن الأمر كله يتعلق بعبادة زعيم معين وتبجيله، وإخلاص المناصرين في اتباع الطقوس والشعائر. وهكذا، فقد تكون الطائفة جماعة من الناس تعبد السلاحف مثلًا، بيد أن الذي يجعل هذه الجماعات شديدة الخطورة هو طريقة عملها، وبحثها عن مشايعين، وأسلوبها في تجنيدهم وكسب ولائهم، والأهم من هذا كله سيطرتها على أتباعها.

تعمل الجماعات والمنظمات الدينية على تحقيق تلك الغايات كلها عن طريق السيطرة على العقل وتعديل السلوك على نحوٍ ذكي بارع لضمان ولاء المشايعين، وجعلهم في قبضة الزعيم ورهن إشارته، ولهذا يعرِّض المرتدون أنفسهم لخطر داهم، ليس جسديًّا فحسب، بل نفسيًّا أيضًا، فيعانون مدة طويلة اضطرابات ما بعد الصدمة، مما يضطرهم إلى إعادة برمجة

عقولهم من آثار تلك الأساليب المكثّفة التي استُخدِمت ضدهم لضمان طاعتهم وإذعانهم، واستمرار نفعهم للطائفة وزعيمها أو زعمائها.

وكما هي الحال بالنسبة إلى جيم جونز، فإن معظم زعماء هذه الطوائف يتصفون بالجاذبية والموهبة والقدرة الفائقة على سحر عقول الناس والتأثير فيها وإقناعهم بما يريدون، ويتأتى لهم ذلك عن طريق ما يمتازون به من إجادةٍ للغة، ومعرفةٍ بالبلاغة التي تأسر ألباب الأشخاص الذين يشعرون بالعزلة، والضياع، والوحدة، وعدم رغبة الآخرين فيهم، وأنهم مختلفون عن بقية أفراد المجتمع. ويفترس زعماء الطوائف الدينية ضحاياهم غالبًا عن طريق التظاهر بالكرم، والعطاء، والاهتمام، والعاطفة، والاحتواء، تمامًا كما يفعل مضطربو العقل والأنانيون. وليس للذكاء أيُّ دور هنا؛ إذ سقط كثير من الرجال الأذكياء، وحتى النساء الذكيات، ضحايا لطُعْم الطائفة الدينية ولغزها المبهم الذي جعل هذا (أو تلك) يشعر بالأهمية، والخصوصية، والقوة.

الفكري مقابل الشخصي

ثمَّة نوعان من الطوائف، أحدهما يدور حول سحر شخصية قائد معين يجمع أتباعه حوله كالحواريين، ثم يخبرهم بالأنظمة والقوانين التي يتعين عليهم اتباعها، وإلَّا رمى بهم بعيدًا لمخالفتهم التعاليم. ويعد ديفيد كوريش، وشارلز مانسون، وجيم جونز أبرز القادة لهذا النوع من الطوائف. صحيح أنهم نشروا فكرًا محدَّدًا أو مذهبًا معينًا، بيد أن قدرتهم على جذب الانتباه والإقناع كانت هي الرباط الوثيق الذي يشدُّ سائر أعضاء الطائفة بعضهم

إلى بعض، والذي يحافظ على وحدتها وتماسكها من التمزق والتشتت. فإذا مات هؤلاء الزعماء أو غيَّروا آراءهم، فقد تنهار الطائفة ويتفرق أنصارها. وتأسيسًا على ذلك، يمكن النظر إلى هتلر بوصفه زعيم طائفة دينية، مثل سائر زعماء مختلف الطوائف الدينية: فيهم الجيد والسيئ والقبيح. وتجدر الإشارة إلى أن فن الخطابة، ولغة الجسد. وسحر الشخصية هي أهم مقوِّمات الزعامة المطلوبة لكسب ودِّ الآخرين. وجعلهم يضحون بحياتهم من أجلك وأجل رسالتك. ويدرك معظم زعماء الطوائف الدينية المثيرين هذه الحقيقة الأساسية.

من جهة أُخرى، تولي الطوائف الفكرية المذهب الذي يتشاطر كثيرون الإيمان بأفكاره اهتمامًا خاصًا، مثل جمعية كوكلوكس التي تُصنَّف من الطوائف التي تُركِّز على سيادة العرق الأبيض: فالقيادة لا تعني العبادة بل المعتقدات: إذ يُنتظر أن يتبنى الأتباع تلك المعتقدات، ثم يتصرفون بناءً عليها، وقد يصل بهم الأمر إلى ارتكاب الجرائم والقتل.

هل تذكرون بيتي هيرست؛ وريثة صحيفة فورشن التي اختطفتها منظمة جيش تحرير سيمبيونيز عام 1974م؟ فبوصفها نموذجًا تقليديًّا لمتلازمة استوكهولم، انضمت هيرست - فيما بعدُ - إلى مختطفيها، فأصبحت واحدة منهم، ودعمتهم، ووصل بها الأمر إلى ارتكاب جرائم باسم ثورتهم، بالرغم من تعرُّضها للاستغلال والتعذيب وغسيل المخ على أيدي مختطفيها، وقد أفادت في وقت لاحق في مقابلة مع لاري كينغ، في برنامجه الشهير، بعدم وجود أدنى فكرة لديها عن تعرُّضها لغسيل المخ.

وفي السياق نفسه، أكَّدت هيرست التي وثَّقت تجاربها في كتابها كل سرٍّ صغير الذي أصدرته عام 1983م أن مختطفيها عصبوا عينيها، وقيدوها، وحجزوها في مكان مغلق دامس، وعذَّبوها، ثم أخضعوها لبرنامج (تلقين وإعادة تأهيل)، وأذلوها بسبب تربيتها في أسرة ثرية جلبت لها العار وأبعدتها عن أسرتها الأصلية. وكان دونالد (الخامس) دوفريز (زعيم جيش تحرير سيمبيونيز) يستجوبها باستمرار، فيذكِّرها كل مرة بعنصرية أمريكا ومجتمعها الشيطاني، واصفًا والدها بخنزير الدولة الاتحادية الدكتاتورية، وبالرغم من هذا التلقين، فقد كان يُظهِر لها أحيانًا الكرم، فيُقدِّم لها الطعام والشراب، ثم يعود ليحرمها مرة أُخرى، منتهجًا الأسلوب التقليدي في ترسيخ العلاقة بين الجلاد والضحية في أثناء الأسر.

ومما يؤكِّد سلب المنظمة لفكر هيرست وإرادتها قولها للاري كنغ: «لقد كنت معهم معظم الوقت، كان عقلي يملي عليَّ كل ما يطلبونه مني بدقة... لم تكن لي أيُّ إرادة حرة». ولم تكن هيرست تعتمد على جلاديها من أجل البقاء فحسب، بل من أجل الحصول على وعد بالتوازن العاطفي أيضًا، حتى لو كان في صورة فتات من التعزيز الإيجابي. وأخيرًا، اعتنقت وجهة نظرهم فيما يتعلق برؤيتهم للعالم، وأصبحت واحدة من محاربيهم من أجل الحرية، فاقتحمت معهم المصارف في طول البلاد وعرضها، مرتديةً زيًّا أسودَ... لقد سقطت هيرست ضحية بلاغة الزعماء وفصاحتهم: الزعماء أصحاب الرسالة، تلك الرسالة التي قبلتها، وآمنت بها، وجعلتها قضيتها الأساسية، بالرغم مما تعرَّضت له من استغلال وتعذيب وسلوك وحشي، أجبرها على التنازل عمَّا تؤمن به لمصلحة تلك الجماعة التي لم تسمع عنها قطُّ قبل أن تتغير حياتها على أيدي أفرادها.

السَّينتولوجيا[1]

تعد السَّينتولوجيا المثال النموذجي للطائفة التي تُركِّز على الزعيم الفرد من جهة. وعلى الفكر أو مجموعة المعتقدات من جهة أُخرى. نشأت هذه الحركة في مطلع خمسينيات القرن الماضي، مستمدةً مبادئها من تعاليم أحد كُتَّاب الخيال العلمي الذي تحوَّل إلى مُعلِّم روحي. وقد استندت تلك التعاليم إلى نظام هوبارد الذي ظهر مبكِّرًا، والذي يُعرَّف بأنه «نظام للسيطرة على العقل عن طريق التخلص من الخوف، ومما يشتمل عليه من ذاكرة»، إضافةً إلى كتابه: العقل... العلم الحديث للصحة العقلية الذي نشره عام 1950م. ثم مضى هوبارد إلى أبعد من هذا، فأسَّس كنيسة السَّينتولوجيا ووحَّدها في كامدن بنيوجيرسي لتتحوَّل إلى عقيدة. وها هي اليوم قد أصبحت ظاهرة عالمية تمثِّل جسرًا بين الفلسفات الشرقية والغربية، وتعد أول تطبيق حقيقي عرفه الإنسان للمنهج العلمي المتعلق بالإجابة عن الأسئلة الروحية، حسب ما ورد في موقعها الإلكتروني.

بيد أن العديد من النقاد ساوى بين الطائفة الدينية والمنظمة الإرهابية، إثر ما تردَّد من ادعاءات عن استخدام الأُولى تقنيات غسيل المخ والتعذيب النفسي، وحتى خداع أتباعها، الذين من بينهم ممثلون مشهورون ونجوم لامعون، يؤمنون إيمانًا خالصًا بتقنية (الاستماع) -أو يتذكرون بكامل وعيهم الأحداث المزعجة إلى أن تُمسَح من الذاكرة والوعي- التي أثبتت

(1) السَّينتولوجيا: حركة دينية علمية ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية، في خمسينيات القرن الماضي، وهي تدَّعي القدرة على تحرير الإنسان من متاعبه الشخصية، وتعزيز قدراته الذاتية، وشفائه من أمراض الجسم والعقل جميعها، وتُعرَف أيضًا باسم العلمولوجيا. المترجم.

نجاحًا منقطع النظير. وفي الوقت نفسه، يتحدث أولئك الذين انسلخوا من الطائفة عن تقنيات القبضة الحديدية التي تمارَس على المشايعين، ولا سيما الذين يبدون رغبة في المغادرة. وقطعًا، فهذا ليس سلوك (كنيسة) بل سلوك (طائفة)، كما هي حال المنظمات الدينية الضلالية الزائفة كلها.

ففي شهر سبتمبر من عام 2014م، أجرت مراسلة جريدة (Daily Mail) الإلكترونية البريطانية لورا كولنس مقابلة مع كارين دو لا كارير، وهي سيدة في ربيعها الثالث والثلاثين، وزوجة رئيس إحدى الطوائف الدينية التي تنتمي إلى مذهب السَّينتولوجيا، وواحدة من أعضائها البارزين قبل انسلاخها عنها. وقد أفادت كارين أنها لمَّا سألت عمَّا رأته من سلوك سيئ في دهاليز تلك المنظمة السرية السيئة السمعة، صُبَّ عليها جحيم لا يطاق من العذاب؛ إذ أُجبِرت على الجري حول عمود مدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة لثلاثة أشهر، والسجن في مكان ضيق كجحر الضبع، وكشط الدهان (البوية) عن عمود معدني حتى لا يبقى له أيُّ أثر، فضلًا عن أَخْذِ ابنها بعيدًا عنها، وحرمانها الاستحمام وتبديل ثيابها. وقد أُعيد إليها طفلها لاحقًا بعد تركها المنظمة، ليقضي بعد مدة وجيزة بسبب إصابته بالتهاب رئوي. ورأت كارين أن امتناع المنظمة عن تقديم أيِّ رعاية طبية لائقة لابنها، غير ما كانت تقدِّمه له، كان السبب الرئيس لوفاته يافعًا في بداية حياته.

ويبقى الشاهد في قصتها هذا الدجل والخداع الذي كانت تشاهده من خيانة للعهود والمواثيق، وخرق للقوانين، وجمع للمال من الأتباع لتمويل الأنشطة، والعذاب الشديد الذي كان يُصَب على رأس كل مَن يتساءل أو يعترض على ما كان يحدث من مخالفات وانتهاكات واستغلال وابتزاز.

بيد أن دهشتها كانت لا توصف عندما اكتشفت إثر مغادرتها حظيرة تلك المنظمة أن المنظمات جميعًا، ولا سيما تلك التي تتكئ على خلفية دينية، لا تسمح لأعضائها بطرح مثل تلك الأسئلة، أو الاعتراض، أو حتى التذمر والامتعاض مما يرونه من سلوك مشين داخل أروقتها. فكتبت كارين مؤكدة: «السَّينتولوجيا تشبه السونامي المدمر[1]، يأتيك مندفعًا بقوة هائلة، وعندما ينحسر عنك، يترك كل شيء خلفه محطَّمًا. وكذلك تفعل مثل تلك المنظمات: إذ تحطم الناس، وتقودهم إلى الفقر والإفلاس، وتذهب، بأحلامهم وآمالهم أدراج الرياح، فتبيعهم الوهم والخيبة والخذلان والخسران». فهي سعيدة إذن لأنها استطاعت النجاة بجلدها، عكس أتباع معبد الشعب الذين قادهم زعيمهم جيم جونز إلى حتفهم، كما تقدَّم.

وثمَّة حكاية أُخرى مرعبة تقشعر لها الأبدان، حدثت لأحد أتباع السَّينتولوجيا أيضًا، نُشرت في صحيفة (Tampa Bay Times)، في شهر مارس عام 2014م، وحملت عنوان «أحد رجال الدين يُكرِه امرأة على الاختيار بين ابنها أو ابنتها»، بوصفها جزءًا من دراسة مستمرة تُعرَف بالسَّينتولوجيا من الداخل، بحسب رواية المراسلة جو جايلدز، في مقابلة لها مع سارة جولدبيرج التي كانت سابقًا أحد أعضاء الكنيسة، فذاقت مُرَّ العذاب على أيدي رئيسها بسبب رفضها (الانفصال) عن ابنها، نيك الذي تفتحت عيناه في السَّينتولوجيا، لكنه عقد فيما بعدُ حلفًا مع أحد مخبري الكنيسة، في حين بقيت ابنتها مخلصة للكنيسة، فأُجبرت جولدبيرج على التخلي عن ابنها أو مغادرة الكنيسة وترك ابنتها خلفها.

(1) السونامي: موجة بحرية هائلة، تحدث بسبب تحركات أرضية أو براكين. المترجم.

تقول المراسلة جو جايلدز إنه ثمَّة عواقب وخيمة تتربص بكل مَن يرفض الانفصال عن أعضاء عائلة الدجالين أو الذين لا ينتمون إلى السَّينتولوجيا، وتُعرِّفهم الكنيسة اصطلاحًا بالأشخاص القمعيين؛ فأنصار السَّينتولوجيا يحاولون دمج الآخرين في مجتمعهم الذي يُحكمون السيطرة عليه؛ لخدمة الأتباع، ورعاية مصالحهم، ولهذا لا يعني الانفصال عزلًا اجتماعيًّا وشيكًا فحسب، بل يعني أيضًا خطرًا ماليًّا؛ فالتهديد خلاص. ويؤمن أتباع السَّينتولوجيا بأن الإصغاء الجيد هو الطريق إلى الخلود، وتمنع الكنسية الأشخاص القمعيين من الاستفادة من خدماتها، وتحول دون حدوث مشكلات مالية محتملة، لكن هذا النوع من الانفصال ليس حكرًا على السَّينتولوجيا وحدها.

سبع علامات وحكاية بيثاني

كتب بوز هيرينغتون لصحيفة أتلانتيك الإلكترونية مقالًا مرعبًا عنوانه **سبع علامات تؤكِّد أنك تنتمي إلى طائفة دينية ما The Seven Signs You're in a Cult**، وهو يلقي نظرة خاطفة على الوسائل التي تجعل العقل خاضعًا لأفكار الآخرين ومعتقداتهم؛ إذ أفصح هيرينغتون عن حكايته الخاصة التي عاشها شخصيًّا، بوصفه عضوًا سابقًا في مجموعة صلوات دينية، تنتسب إلى بيت الصلاة العالمي، عندما اكتشف بعد فوات الأوان أنه أصبح عضوًا في مجموعة دينية. أجل، بعد فوات الأوان؛ لأن تلك الطائفة كانت مسؤولة عن انتحار أفضل أصدقائه، باثي ليدلين، صديق الدراسة الذي أمضى معه وقتًا في الصلاة ضمن تلك المجموعة في معسكر جنوب شرقي جامعة تكساس، التي كانت تستند إلى تعليمات بيت الصلاة العالمي،

الذي حدَّد مؤسِّسه قائمة تشمل الوسائل التي تحدِّد الفرق بين المنظمة الدينية والطائفة، وهي:

1. عدم قبول النقد.
2. عزل الأتباع، ومعاقبة المنسلخين.
3. تأكيد عقيدة خاصة بمعزل عن الكتاب المقدس.
4. البحث عن ولاء للزعماء لا يستحقونه.
5. إهانة الأسرة، والسعي إلى تفريق شملها.
6. تجاوز تعليمات الكتاب المقدس في معاملة الآخرين، مثل: العفة، وحق التملك.
7. الانفصال عن الكنيسة.

وبالرغم من هذا كله، فقد أصبحت مجموعة الصلاة تلك، بمرور الوقت، تخضع لقيادة تيلر ديتون (أحد زملاء الدراسة) وتوجيهه، وهي تبدو تحديدًا - كما تقدَّم لاحقًا- طائفة، بالرغم من أنها تستمد تعاليمها من الكنيسة البروتستانتية المتطرفة. وباقتفاء أثر تيلر ديتون الذي ادَّعى هيرينغتون أنه كان ينوي إشعال (ثورة روحية) في المعسكر، نجد أنه دهش كثيرًا من كاتب المقال في البداية، وشعر أنه ينتمي إلى عالم خيالي: «كنت وحيدًا، ضجرًا، أشعر برغبة عارمة في خوض تجربة مثيرة قبل مغادرة المدرسة: حل لغز أو مشكلة غامضة، وخوض معركة، وتحقيق شيء خيالي، مثل أبطال الروايات التي قرأتها». كان حافز ديتون يشبه المغامرة: «كنت دائمًا أتخيل حياتي في صورة قصة من فصول عدَّة، واليوم منحني تيلر الفرصة ليكون أحد فصولها».

ولكن لسوء الطالع، انتهت هذه القصة بانتحار بيثاني الذي كان أحد أعضاء مجموعة الصلاة المتماسكة تلك، وفُصِل هيرينغتون من المجموعة إثر اتهامه بأنه صاحب قلب شرير. إضافةً إلى أشياء أُخرى، وعُزِل، ومُنِع الأعضاء الآخرون من التحدث إليه (تقنية تعذيب أُخرى تعتمد أسلوب السيطرة على العقل). ويعد إبعاد هيرينغتون أسلوبًا تقليديًّا لتعديل السلوك. بيد أنه عاد إلى المجموعة مرة أُخرى، مع أنه كان يرى جيدًا في أثناء عودته علامات الاستغلال وسلوك الطائفة من أجل الزعامة، مؤكدًا كبت الإشارات والإيماءات جميعها، مهما كانت بسيطة وبريئة، وعَدَّها دليلًا على تأثير المجموعة الشيطاني، التي يدَّعي زعيمها تيلر ديتون بصفاقة أن الله كلَّمه ووجَّهه.

في تلك الأثناء، حدث تآلف بين بيثاني وتيلر، فانضما إلى المجموعة. أمَّا هيرينغتون فقد فُصِل مرة أُخرى من مجموعة الصلاة، فأُبعِد عن المجموعة، وحُرِم أفضلَ أصدقائه بيثاني، ليُبلَّغ لاحقًا خبر وفاته، ثم خبر الاستجواب الذي كشف قيام أحد أعضاء المجموعة، ويُدعى ميكا، بقتله بناءً على طلب تيلر. إذن، فالأمر ليس انتحارًا.

أمَّا واقعة الموت التي حدثت في جونزتاون، فربما لم تكن هي أيضًا انتحارًا، بل اغتيالًا على أيدي مبدع في تعديل السلوك باستخدام اللغة، والعاطفة، وادعاءات لاهوتية، واعتماد تقنيات أُخرى للتأثير في المشايعين لاتباع دعوته. وبصرف النظر عمَّا ارتكبه تيلر ديتون الذي قتل شخصًا واحدًا، أو جونز الذي حرَّض على ارتكاب مجزرة راح ضحيتها تسع مئة شخص، تبقى القدرة على سحر الآخرين وخداعهم وتضليلهم هي الغاية

المنشودة من هذا كله: فما إن ينجح الجلاد في سحر الضحية وفتنتها، حتى يصبح سهلًا جدًّا استغلالها عاطفيًا وجسديًا. بل يصير الأمر مقبولًا بين الأعضاء الذين يكرّسون حياتهم لقضية جد مهمة، بقيادة زعيم يؤمنون به.

ناقشنا في الفصل السابق أهم ثلاثة تأثيرات لفن الخطابة، وهي:

1. الشعارات: تشمل استخدام الحجة المنطقية، والحث. والاستقراء، والاستنباط.
2. الرثاء: يُقصَد به إيجاد رد فعل عاطفي لدى المستمعين.
3. روح الفرد: تعني محاولة إظهار صورة مؤثرة من الثقة والسلطة والجاذبية.

ويَجمع أكثر زعماء الطوائف الدينية تأثيرًا بين هذه العوامل عند مخاطبة أتباعهم، وقد يكتفون باعتماد واحد منها، أو يعزلون المشايعين باصطحابهم إلى وسط الغابة، أو يكتفون بعزل الأفراد الذين لا يلتزمون بالقوانين لمعاقبتهم. ويطبق هذا الأسلوب أيضًا في الكنائس، وليس في الطوائف وحدها. وتروى حكايات كثيرة عن أناس أُبعدوا فنُبِذوا إثر محاولتهم الانسلاخ من الكنيسة البروتستانتية أو الأساسية.

من جانب آخر، أكّد كثير من أتباع الطوائف السابقين استمرار الاستغلال العاطفي والجسدي أسلوبًا لتحطيم إرادة الأفراد، ثم تحقيق الطاعة والخنوع، من دون أن تجد الطائفة نفسها مضطرة دائمًا إلى الوصول إلى هذا الحد، وقد يكفي أحيانًا أن تتحدث إلى أتباعك بطريقة تجعلهم يعتقدون أنهم مهمون، أو أنهم أصحاب حظوة مميزة لديك من دون سائر

الأتباع؛ لكي يطيعوا أمرك. وإذا أُضيف إلى هذا كله العامل الأساسي الذي يتمثَّل في ضرورة مراعاة مصلحة الأعضاء والزعماء، نكون قد حصلنا على البذرة الأساسية لتحقيق عاصفة عارمة.

لخَّص المؤلِّف جاكوب نيبرس في كتابه أطع أباك: بلاغة جيم جونز المفرطة في الإقناع تلك العاصفة العارمة بقوله: «لا تُقاس قوة الحركة بما تتبناه من فكر، أو بما يعترض طريقها من معارضة، وإنما تُقاس بعدد الأتباع الذين يؤيدونها». صحيح أنه لن تقوم لأيِّ طائفة قائمة إذا لم يكن لها أتباع مستعدون للتضحية بأموالهم وأنفسهم من أجل خدمة فكر زعيمها. ثم يستطرد نيبرس قائلًا: «يعد مفهوم اكتساب القوة عن طريق حشد عدد هائل من الأتباع أهم ما يفسِّر تعطش جونز الدائم لتجنيد مزيد من المشايعين؛ فكلما جنَّد أتباعًا أكثر استطاع إظهار قوة أعظم وتأثير أكبر، وهو ما يفسِّر أيضًا رغبة جونز الجامحة في جذب الأتباع وتوطيد العلاقة معهم، وقد استطاع بما يمتلكه من قدرة على الإفادة من مواهبه الشخصية وقدرات أتباعه الفردية أن يصبح زعيمًا مُحنَّكًا أهلًا لتحقيق هذه الغاية».

فعن طريق عزل المشايعين، يستطيع الزعيم استخدام فن الخطابة بسهولة لإقناعهم بالسبب الذي جعلهم يتبعونه، وقد استفاد جونز أيضًا من معرفته بعلم اللاهوت، مُدَّعيًا القدرة على شفاء المرضى، وخدمته للإله. والحقيقة أن جونز ليس هو وحده مَن ادَّعى ذلك؛ إذ عمد إليه كثير من زعماء الطوائف في العالم، مستغلين رغبة ملايين الناس في الشفاء، والحصول على الخدمة المطلوبة، واستعدادهم لطاعة القيادة التي تُمَنِّيهم بتحقيق رغباتهم، حتى لو كانت تقودهم إلى حتفهم.

أمَّا العامل الأخير الذي أشار إليه جونز للتغلب على اعتراضات الأتباع والحيلولة دون نكوصهم، فتمثَّل في الإفادة من تلك القدرة المؤثِّرة عن طريق إحكام عزل الأتباع، وإضفاء قدر من الأهمية على كل واحد منهم، على نحوٍ يعزلهم جميعًا عن الشيطان في العالم الخارجي، وهو ما يؤكِّد براعته في ابتكار الحيل لتعزيز مكانته في نفوس الأتباع وإقناعهم بقدرته على القيادة، إضافةً إلى موهبته في فن الخطابة، وتحكمه في قدرة أتباعه بعزل بعضهم عن بعض، لإبقائهم بعيدين عن تأثيرات العالم الخارجي المحتملة التي ربما تيقظهم من غفلتهم وتعيدهم إلى رشدهم وجادة الحق من جديد. وليس ثمَّة شك أن كثيرًا من أتباع الطائفة يطورون تلك العلاقة الحميمة، أو ما يُعرَف بمتلازمة استوكهولم مع زعمائهم، بصرف النظر عمَّا تعرَّضوا له من استغلال واعتداء، فيُوقِّرون أولئك الزعماء الذين خدعوهم ويُبجِّلونهم، لما أشعروهم به من انتماء واهتمام حين أهملهم الآخرون. ولهذا ربما ضحوا بكل شيء من أجلهم، بما في ذلك مساكنهم، وأُسرهم، وأموالهم، فأصبحوا ظهيرًا لزعمائهم لما يجدونه من حب في أنفسهم تجاههم إلى أن توقظهم حادثة ما، أو يُحدِث مصدر خارجي ما ثقبًا في هالة الوهم والخداع التي يعيشونها.

ديناميكية المجموعة

قد تبدو الطوائف الدينية بمنأى عن بعضها بعضًا، بيد أنها -حقيقةً- تعمل ضمن إطار ديناميكية المجموعة من أجل تحقيق هدف مشترك. فثمَّة تصرفات محدَّدة تؤكِّد هذا الأمر، وهي تشمل تحديد المهمة، واتخاذ القرار، والتماسك، والاتحاد، والتواصل، وقد أصبحت هذه التصرفات

شبيهة بالشعائر نوعًا ما، حيث يعتمد أداؤها على المجموعة كلها؛ أي الطائفة الدينية، وبوجه عام فإن عضو الطائفة يتخلى عن هويته الأساسية لكي يصبح جزءًا من ديناميكية المجموعة، فيميل معها حيث تميل، حتى لو عارض ذلك ما يؤمن به من قيم ومُثل.

والواقع أن مخالفة الخط العام للمجموعة لا تعني عقابًا صارمًا من القيادة فحسب، بل من الأعضاء أيضًا الذين يرون في أيِّ سلوك أو تفكير خارج الصندوق خطرًا محتملًا يُهدِّد طائفتهم الهشَّة التي ينتمون إليها. علمًا بأنه لا يخالف الخط العام للمجموعة إلَّا مَن أدرك الحقيقة وعرف أنها بعيدة كل البُعْد عن أهداف المجموعة الشريرة نفسها.

ولا شك أن الأعضاء سيطردون كل مَن يحاول شق صف المجموعة، ويعذِّبونه، وربما يؤذونه؛ لذا يحرص القائمون على أمر المجموعة على معالجة النزاعات بسرعة ولطف، وقد ينطوي الأمر على تهديد صريح لطرفي النزاع؛ إذ لا بد من حفظ الأمن والاستقرار، أو قُلْ، مكانة الزعيم بأيِّ ثمن، مهما غلا.

في عام 1972م، ابتكر إيرفينغ جانيس عالم النفس الاجتماعي ومؤلِّف كتاب ضحايا التفكير الجماعي مصطلح (التفكير الجماعي) ليشرح ما يحدث عندما تتخذ جماعة ما قرارات، استجابةً لضغوط أفرادها ومقاصدها، ما يؤدي غالبًا إلى تدهور عقلي، ووضع المصداقية على المحك، إضافةً إلى اختلال ميزان الحكم الأخلاقي على الآخرين. فالتفكير الجماعي دائمًا يتجاهل البدائل والخيارات، ويرسِّخ الممارسات غير العقلانية التي تحط من قدر المجموعات الأُخرى. يقول جانيس: «تكون الجماعة عُرضة

للسقوط، ولا سيما إذا تشابهت خلفية أفرادها الذهنية، وعُزِلت عن الأفكار الخارجية، وغابت أيٌّ قوانين واضحة لاتخاذ القرار».

ثم يعود جانيس ليُقرِّر وجود ثمانية أعراض للتفكير الجماعي، هي:

1. الوهم المتأصل: يؤدي هذا النوع من الوهم إلى ظهور تفاؤل مفرط يشجع على القيام بمخاطر حقيقية.
2. التبرير الجماعي: يُقصَد به تجاهل النصح والتحذيرات، وعدم تقييم الافتراضات كما ينبغي.
3. الاعتقاد في الخُلق الأصيل: يعتقد الأعضاء جازمين بعدالة قضيتهم، فيتجاهلون النتائج الأخلاقية التي قد تترتب على قراراتهم.
4. النظريات النمطية خارج نطاق المجموعة: تحرِّض رؤية الأعداء السلبية على الاستجابة للدخول في صراعات غير ضرورية.
5. الضغط المباشر على المعارضين: يتعرَّض الأعضاء إلى ضغوط شديدة لكي لا يعبِّروا عن أيِّ انتقادات تخالف رؤى المجموعة.
6. الرقابة الذاتية: يُقصَد بها وجوب عدم الإفصاح عن الشكوك والانحرافات الفكرية التي تخالف التناغم السائد بين أفراد المجموعة.
7. وهم الإجماع: تعد وجهة نظر المجموعة وأحكامها إجماعًا نافذًا.
8. الرقابة الذاتية: يتعين على الأعضاء حماية المجموعة والزعيم من المعلومات التي تسبِّب مشكلات، أو تضر بتماسك المجموعة، ووجهة نظرها، وقراراتها.

يشار إلى أن الطوائف تستخدم أسلوب التفكير الجماعي تمامًا مثلما تفعل الجماعات الدينية والسياسية. وفي الحقيقة، فإن كثيرًا من الحشود تُحدِث غوغاء إذا ضمَّت أفرادًا من أصحاب العقول المتشابهة في طريقة تفكيرها، ومثل هذا الأمر يمثّل أحيانًا خطرًا ولا شك.

وبالطبع، فإن رغبة الشخص الذي يُغرَّر به للانضمام إلى طائفة ما، أو حتى ذلك الذي ينضم إليها بمحض إرادته، في الذهاب وحيدًا لتحقيق غايته: تفوق في أن يكون شخصًا مشهورًا في العالم.

الغرباء وأبواب السماء

تصدَّرت فرقة أبواب السماء الدينية الألفية عناوين الصحف الرئيسة في شهر مارس عام 1997م، عندما اكتشفت الشرطة في رانشو سانتا أف إي-كاليفورنيا وجود (39) جثة لأعضاء جماعة دينية يديرها رجل يُدعى مارشال أبيلوايت، وامرأة تُدعى بوني نيتلز، ويُعرَفان أيضًا باسم بو وبيب ودو و تي على التوالي؛ كانت فرقة أبواب السماء الدينية هذه أساسًا مجموعة أشخاص يعتقدون أنهم سيركبون متن سفينة أم سيارة، تقودهم إلى مذنب هالي- بوب إذا هم ضحوا بحياتهم بصورة جماعية. وبالفعل، فقد أقدموا على ذلك العمل بغية مغادرة الأرض، بحسب قول زعيمهم مارشال أبيلوايت، بعد تناول عقار الفينوبربيتال[1] ومزجه بصلصة التفاح، وغسله بمشروب روسي مسْكِر، ثم وضع أكياس بلاستيكية على رؤوسهم بغية خنق أنفسهم.

(1) الفينوبربيتال: هو دواء مهدئ ومنوم ومضاد للاختلاج، استُخْدِمَ منذ أكثر من 70 عامًا. المترجم.

عُثِر على الموتى مستلقين على أَسِرَّة النوم وهم في حال لطيف نظيف مرتب، في الشقة التي كانوا يسكنونها، والتي تبلغ مساحتها (9200) قدم مربع. وكانت وجوههم والأجزاء العلوية من أجسادهم مغطاة بقطعة قماش أرجوانية اللون، ووُجِد في جيب كلٍّ منهم ورقة نقدية من فئة خمسة الدولارات وثلاثة أرباع الدولار عليها رسم. والمثير للاهتمام حقًّا أنهم كانوا جميعًا يرتدون ملابس جديدة (بناطيل سوداء وقمصان) تحمل علامة (Nikes) التجارية. ووُجِد في معصم كل واحد منهم طوق مكتوب عليه (فريق بوابة السماء).

قد يبدو الأمر مسرحية هزلية في نظر أولئك الذين ليس لديهم علم بهذا الحدث: إذ كيف لمجموعة من الأشخاص تتراوح أعمارهم بين السادسة والعشرين والثانية والسبعين، ويعتقدون بأشياء معينة، أن يُزهقوا أرواحهم فقط للوفاء بوعد قطعوه على أنفسهم بالسفر إلى الفضاء. وتبيَّن لاحقًا وجود (39) شخصًا يعتقدون اعتقادًا جازمًا بهذا الوعد، ويرغبون أن يصبحوا جزءًا من شيء أعظم بكثير من الحياة على الأرض التي يرون أنها على وشك أن تخضع لإعادة تدوير. إضافةً إلى شخصين آخرين لم يكونا حاضرين وقت الحادثة، فلحقا بالمجموعة بالطريقة نفسها. مما سبَّب صدمةً شديدةً، وحزنًا دفينًا لا يوصف لأولئك الذين تركوهم خلفهم. والذين لم يكن بوسعهم فَهْم شخصيتي أبيلوايت ونيتلز الساحرتين الجاذبتين (قضيا نحبهما عام 1985م).

وللأسف الشديد، فإن هذه المعتقدات (أوقات النهاية) تطغى على كثير من الطوائف الدينية. حتى إنها تدفع بعض أعضائها إلى الإيمان بأشياء

تبـدو لنـا نحـن البعيدين عنها هزليـة مفرطة في الغرابـة. والعجيب الغريب أن أعضـاء فرقـة أبـواب السـماء هذه لم يكونـوا أغبياء، وإنما كانـوا حقيقةً متعلمـين. وبارعـين جـدًّا في علـوم الحاسـوب والتقنيـة، حتى إنهـم كانوا في نظر جيرانهم أشخاصًا أسوياء كرماء. كما تصفهم المؤلِّفة المشاركة ماري، وسـائر أفراد منطقتهم الذين كانوا سعداء ومحظوظين بالتفاعل معهم قبل أن يلقوا حتفهم بتلك الطريقة المأساوية.

وحتمًا، فثمَّة شيء ما دفعهم جميعًا إلى المخاطرة بحياتهم: شيء حملهم على الاعتقاد بالحكايات التي رواها شخصان؛ حكايات عن الغرباء، ومذنب للخلاص والحياة على الكواكب الأُخرى.

عاش أبيلوايت زعيم تلك الطائفـة الدينية المقدام حيـاة طبيعية جدًّا، إلـى أن التقـى نيتلز عـام 1972م، فتبـادلا الحديث حول بعض الموضوعات، مثـل: التصـوف، ومفاهيـم القـوة الخارقـة للطبيعـة (الميتافيزيقيـا)، بيـد أنهمـا - بطريقـة مـا- أصبحـا متأكديـنِ من اختيارهما رسـولينِ مقدسـينِ من الإله. وبدأ نطاق هذا الاعتقاد يتسـع كلما أوغلا في السـفر تجاه شـمال غربي المحيط الهادي لحشـد الأتباع. وإثر وفاة نيتلز علم أبيلوايت باقتراب زمـن وصـول مذنب هالي- بـوب، فوضع فـورًا خطة للقيام برحلـة، انطلاقًا مـن كوكـب الأرض بصحبـة أتباعـه. ومـع أن شـخصًا واحـدًا قـد نجـا من حادثـة الانتحـار الجماعي تلك، فإنـه لم تتوافر معلومات كافيـة عن التقنية التي اسـتخدمها أبيلوايت لإقناع أشـخاص أذكياء مثل أولئك بمغادرة كوكب الأرض، والانطلاق نحو كوكب آخر. بيد أن المعلقين يشيرون إلى أن أبيلوايت أفـاد مـن مواهبه الآسـرة، وقـوة شـخصيته السـاحرة، وبلاغتـه الرصينة،

واعتقاده الراسخ أنه كان يمثّل شخصية مقدسة مرسلة من الإله لقيادة الأتباع، إضافةً إلى استخدامه الأرواح، أو أسلوب العزل بعيدًا عن المجتمع، فكان يحيل أتباعه إلى مجموعة من البدو بطريقة معينة؛ لكي يظلوا متشبثين بمعتقداتهم الأساسية، بعيدين عن الاعتقاد بأيٍّ فكر في العالم الخارجي يتصل بكتاب الوحي، لوضع نهاية مميزة للعالم. تلك هي الفكرة التي كان أبيلوايت يُسِرُّها لأتباعه فقط.

وتأسيسًا على ذلك، تعيَّن على الأتباع طاعة قائدهم طاعة عمياء، وسُمِح لهم بالتواصل -ضمن نطاق محدود جدًّا- مع المصادر الخارجية، واتباع مختلف السبل التي تحول دون أيِّ اختراق أمني من الأطراف المعادية. وبالرغم من هذا كله، فإن أبيلوايت لم يُصنَّف بالزعيم الديكتاتوري؛ فقد كان أتباعه يرون فيه والدًا لهم، مما حفَّزهم إلى الخضوع واتباع توجيهاته وإرشاداته الأخلاقية. كان الأتباع يعيشون حياة تتَّسم بالسرية في أماكن مختلفة (المعسكرات غالبًا)، ويخضعون للتدريب في مخيمات خاصة؛ بغية إعدادهم للمستوى القادم من الوجود. وكان يسمح لهم بزيارة عائلاتهم في أيام خاصة محدَّدة، مثل يوم الأم. وقد أدى هذا الجمع بين السيطرة والحرية إلى تهوُّر الأتباع الذين آمنوا بالمفاهيم الغريبة التي احتضنتها المجموعة.

وبوجه عام، لا ينبغي لتقنيات الطائفة الدينية القسرية للسيطرة على العقل أن تكون مباشرة، أو متسمة بالقسوة والنزوع إلى السيطرة. كن كريمًا معهم على نحوٍ يجعلك تسيطر على حياتهم. ولكن، لا تنسَ أن تُبقي عينك مفتوحة على اتساعها عليهم، وعلى أموالهم، وأحسِن توظيف الحيلة. قد تذهب بعض الطوائف بعيدًا في الكرم، فتسمح بحرية التعبير، ما دام الأمر

في نطـاق محـدَّد مقبـول من القيـادة. ولا بأس مـن إضافة بعض العبارات البسـيطة، مثل تلك التي تتعلق بالترويع، والبيئة القسـرية، مع التركيز على مبـدأ (نحن ضد، هم) وضد تفكيرهم، ما يجعل الأتباع يسـقطون في الفخ، من دون أن يدركوا أنهم سبق أن سقطوا فيه منذ الوهلة الأُولى.

وحسـب مـا أكَّدت مارجريـت سـنغر: المتخصصـة في علم النفس التي عُرِفـت بعدائهـا السـافر للطوائـف الدينيـة، فـإن أفضل طريقـة للتحكم في سلوك الآخرين هي جعلهم يشعرون بالذنب والخوف، وقد أشارت سنغر إلى أنـواع عدَّة من المشـاعر القهرية بالذنب، مثل: الشـعور بالذنب تجاه الهوية، والأسرة، والماضي، والأفكار، والمشاعر: إذ يعد الشعور بالذنب والخجل أداة فاعلـة لـدى الطوائـف الدينيـة التي تعزف علـى وتر الذنـوب والخطايا التي يقترفها الشخص، والوعد بالغفران والخلاص منها. فما إن يُبَث الرعب في نفس الفرد المعني بما ينتظره من عقوبة من زعيم الطائفة الدينية في الدنيا، ثـم مـن الله في الآخرة، حتى يُسـيطَر عليه سـيطرة كاملة. طمئـن الأعضاء أنهم سـوف يجنِّبون أنفسهم العقاب إذا هم أطاعوا، وإلَّا فلينتظروا الأسوأ: إحكام السيطرة عليهم إلى الأبد.

تجـدر الإشـارة هنا إلـى أن تلك السـيطرة تحدث دائمًـا بطرائق خفية: إذ ترى سـنغر أن الإكراه الذي يتم بخطوات محدودة تدريجية، يشـل حركة الضحيـة، التـي هي في هذه الحالـة أحد أتباع الطائفـة الدينية، ويحول دون إدراكهـا لمـا اعتراها من تغيـير، أو حتى التغيير الذي أصـاب المحيطين بها، إلَّا بعـد فـوات الأوان، هذا إن اسـتطاعت إدراك ذلـك. إن تعريض الفرد في المجموعة لأسلوب الإكراه بطريقة طبيعية متواصلة يجعله أكثر ميلًا للتكيف

مـع التغـيرات الخفية. ولا سـيما أن الأعضاء الآخرين جميعًـا يتكيفون معها بالطريقـة نفسـها. وفي نهايـة المطـاف، يـؤدي سـلوك العضو المسـيطَر عليه إلـى الشـعور برغبـة جامحـة في الاعتمـاد علـى الآخرين، مـا يدفـع أعضاء الطائفة الدينية إلى الالتزام بالمسار، وإظهار فروض الطاعة. وما إن تُحكَم السـيطرة علـى العضـو المعنـي، حتـى ينسـى تمامًا أنـه كان يوم ما شـخصًا سـويًّا مسـتقلًّا حـر الإرادة، وعندئذٍ يسـتغل زعمـاء الطائفـة الدينية رغبته الأساسية في إظهار الاحترام للسلطة، والرغبة في العيش ضمن مجتمع آمن مسالم، فيسلبونه ماله، ويستغلون عاطفته، بل يصل بهم الأمر إلى استغلاله جسديًا، من دون أدنى مقاومة تُذْكَر، إذا كان ثمَّة مقاومة أصلًا.

من جانبه، كان روبرت ج. ليفتون اختصاصي الطب النفسي يهتم بالعنف السياسـي، وبالآثار النفسـية التـي تُخلِّفها الحرب، فألَّف عـام 1961م كتاب إصـلاح الفكر الشـمولي، وأورد فيه العلامات الثمـاني التي تدل على إحكام الطائفة الدينية سيطرتها التامة على أتباعها، والتي أوجزها فيما يأتي:

1. التحكـم في الوسـط المحيـط والبيئة: يعـد التحكم في الوسـط المحيط والبيئة أهم الوسـائل التي تلجأ إليها الطوائف الدينية للسـيطرة على أتباعهـا. ويكـون ذلـك بعزلهـم، وإبعادهـم عـن أيِّ مصـادر خارجية للأخبـار والمعلومـات التـي قـد تتيـح لهم تعـرُّف وجهات نظـر مغايرة أو معتقـدات أُخـرى، غـير تلـك التي حدَّدتهـا الطائفة التـي يتبعونها. فبحرمـان الأتبـاع الاطلاعَ على الأخبـار، ومن تصفُّـح مختلف مواقع التواصـل الاجتماعـي في الإنترنت، تكون الطائفـة الدينية قد نجحت في عـزل الأتبـاع تمامًا عـن العالم، ووجَّهت جُـلَّ تركيزهم واهتمامهم لخدمة مصـالحها ومصـالح زعمائها.

2. التلاعب بالفكر الصوفي الباطني: تستغل الطوائف الدينية حقيقة وجود السيطرة الإلهية لإجبار أتباعها على الطاعة العمياء، وتخويفهم من عقاب الله في حال مخالفتهم الأوامر والتعليمات والتوجيهات والإرشادات؛ فإن هم أطاعوا حصلوا على الجزاء الأوفى من الله في الفردوس الأعلى. وبوجه عام، تشجع الطوائف الدينية أتباعها على ممارسة بعض العبادات، مثل: الصوم، وإنشاد الأوراد، وحرمان النوم، لترسيخ الإحساس الصوفي المتميز الذي يجعل الأتباع يعتقدون أنهم يمثّلون جزءًا لا يتجزأ من الصفوة المختارة.

3. النقاء والصفاء: يُقصَد بذلك تنقية الجسد وصيانته والمحافظة عليه، إضافةً إلى صفاء الذهن، واجتناب الأعمال الشريرة كلها.

4. عقيدة الاعتراف: يجب الاعتراف باقتراف الذنوب فور ارتكابها، ويتعين على كل تابع التبليغ عمّا يراه من أعمال منافية لقواعد الطائفة الدينية وتعاليمها في حال ارتكبها زملاؤه الآخرون. ويستغل الزعماء وقوع الأتباع في مثل هذه المخالفات لإحكام السيطرة عليهم، وتعزيز شعورهم بتفوق قادتهم وتفرُّدهم.

5. العلوم المقدسة: يجب تقديس فكر الطائفة الدينية وتنزيهه؛ إيمانًا بما يمثّله من رؤية أخلاقية لحقيقة نظام الوجود الإنساني، ولأنه فكر مقدس، كما يراه أصحابه؛ فلا ينبغي لأحد أن يشك في مصداقيته.

6. لغة التلقين: توجد عبارات محدَّدة ينبغي استخدامها أكثر من غيرها في الجدل، ويتعين على الطرف الآخر قبول ذلك، وإلّا يوضع حدٌّ للنقاش في الحال. تُختار هذه العبارات غالبًا بعناية شديدة، بحيث تُعطى الألفاظ صفة القداسة لتحقيق التأثير النفسي المطلوب.

7. فرض المذهب على الناس: يتبوأ المذهب المرتبة الأُولى، حتى على مستوى التجربة الإنسانية الفعلية؛ إذ يُغيِّر الحس العام ليناسب مذهب هذه الطائفة أو تلك. ويجب أن يكون التصاق الأتباع بفكر الطائفة التي ينتمون إليها أقوى من التصاقهم بأيٍّ شيء مما سواه.
8. حق العضوية: يحق الطائفة أن تسمح لهذا العضو أو ذاك بالتمتع بالعضوية والبقاء ضمن المنظومة أو العكس. ففي نهاية المعركة بين الخير والشر، تُقرِّر الطائفة مَن يبقى ومَن يغادر. بمَن في ذلك الأُسر. ويمثِّل هذا أحد المبادئ الأساسية للحركة الشمولية، ويفسِّر ما حدث للنازيين في ألمانيا، حيث اقتيد الناس إلى الموت بسبب ضعف معتقدهم العقدي.

ومرة أُخرى، فقد تنطبق هذه الخصائص الطائفية على أيٍّ منظمة دينية، أو حتى حركة سياسية.

الدعوة إلى العنف

في حالات كثيرة، قد تجد الطوائف الدينية طريقة لإدراج العنف، وحتى القتل، ضمن مخزون معتقداتها. ويمضي الأتباع في هذا الطريق طواعية، وقد يصل بهم الأمر إلى إزهاق أرواحهم وأرواح أفراد عائلاتهم: فقد ثبت في حالة مُحيِّرة لاثنين من زعماء الطوائف الدينية إصرارهما الشديد على ممارسة العنف لتعزيز أهدافهما، وتحضرني هنا حكاية شارلز مانسون وديفيد كوريش.

ففي اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير عام 1993م، وقع صدام بين مسؤولي تطبيق القانون وجماعة شبيهة بالطائفة، على غرار الطوائف

الدينية، تُعرَف باسم برانش دافيديانز. وقد أفضى الصدام إلى مقتل (76) شخصًا، بينهم (17) طفلًا، إضافةً إلى زعيم الطائفة ديفيد كوريش الذي كان يزعم أنه نبي مرسل. عُرِف كوريش عند مولده باسم فيرنون وين هويل، ثم غيَّره عام 1990م إلى اسمه الحالي. انضم كوريش إلى فرقة برانش دافيديانز عام 1982م، بُعَيد انتقاله إلى منطقة واكو بولاية تكساس الأمريكية. وما لبث أن ادَّعى النبوة، مع أنه كان يبحث عن وظيفة موسيقار، ثم انشق عن هذه الطائفة مع (24) تابعًا، إثر حدوث انقلاب في السلطة. ثم انتقل الجميع إلى مخيم خارج منطقة واكو. حيث استقر بهم المقام، وبقوا سنتين في المخيم قبل أن ينتقلوا مرة أُخرى إلى مخيم مركز ماونت كارميل الذي كان يسكنه زعيم الجماعة السابق.

بدأ كوريش - الذي انتقى اسمه الجديد بعناية شديدة: لارتباطه باسم ديفيد ملك الإنجيل، والاسم الفارسي سايروس العظيم كوريش الذي كان يعد بمنزلة المسيح المنتظر- بدأ يقنع أتباعه بوجهة نظره المسيحية، وما أوحي إليه من تكليف إلهي بالقيادة. بيد أن جرائمه، وتخزين الأسلحة، وضعت كوريش وأتباعه في مواجهة مباشرة مع وكلاء مكتب الكحول والمخدرات والتبغ الذين هجموا على المخيم عام 1993م، وأحكموا عليه الحصار واحدًا وخمسين يومًا. ثم انتهى الحصار في التاسع عشر من إبريل عام 1993م بنتائج مروعة.

ومع أن كوريش يظل بطلًا في أعين الفصائل المناهضة للحكومة، فإن سلوكه ينمُّ عن انتمائه إلى طائفة تمارس الأعمال المروعة، في انتظار وضع نهاية للعالم وإنقاذه من طرف زعيمهم الشهير، مستفيدًا من شخصيته الجاذبة، وادعاءاته بما يتلقاه من توجيه إلهي، لفرض سيطرته على أتباعه،

ولا سيما النساء؛ العازبات والمتزوجات، زاعمًا أنهن جميعًا على رباط بزواج روحي معه. كان كوريش في نظر بعض الأشخاص زعيمًا انتهازيًّا فشل في تحقيق هدفه عن طريق الموسيقى، فلجأ إلى حيلة أُخرى ينال بها ما تتوق إليه نفسه من إعجاب لدى الغير.



صورة للسَّفاح شارلز مانسون التُقِطت عام 2011م، وأُخِذت من مجموعة صور سجن كاليفورنيا الإصلاحي.

وثمَّة موسيقار آخر لم يكن يبالي بالعنف ألبتة، حتى إنه كان يرسل أتباعه ليُذبحوا تنفيذًا لرغبته. ذلك هو شارلز ميلز مادوكس الذي غيَّر اسمه فيما بعدُ ليصبح شارلز ميلز مانسون. وكان مانسون قد بدأ حياة الإجرام في سن التاسعة، حيث عاش حياة طفولية تميزت بالفوضى والاضطراب، فامتهن السطو وسرقة السيارات، ولهذا كان من نزلاء السجون بين الحين والآخر، حتى انتهى به المقام عام 1960م حبيسًا في سجن جزيرة ماكنيل، حيث التقى ألفين كاربس المجرم الشهير المروع الذي كان عضوًا سابقًا في عصابة ما باركر، والذي علَّمه العزف على الجيتار. عُرِف مانسون بولعه الشديد بالموسيقى وحلمه أن يصبح موسيقارًا، وهذا ما دفعه - فيما بعدُ- إلى إرسال أتباعه لقتل تيري ميلشر الذي كان على وشك إطلاق مسيرته الموسيقية.

وفي نهاية المطاف، التحق مانسون ببعض أتباعه الذين يعرفونه ويدركون أهدافه، وذلك في منطقة هيت آشبري بسان فرانسيسكو، وسمَّى نفسه الزعيم المرشد، ثم غادرها ليستقر في منطقة سبان رانغ بكاليفورنيا، إلى

الشمال من وادي سان فيرناندو خارج لوس أنجلوس، حيث بدأ يفرض معتقداته بالتزامن مع اندلاع موجة الحرب العنصرية، مؤسِّسًا فلسفة دينية هجينة، فيها شيء من الديانات والمعتقدات الأُخرى كلها التي سادت آنئذٍ، بما فيها عبادة الشيطان، والسَّينتولوجيا، وحتى أغنية فرقة البيتلز[1] المعروفة بـهيلتر سكيلتر التي رأى فيها مانسون نبوءة بشيء ما سيحدث صيف عام 1969م عندما ينتفض السود فيذبحون البيض، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث قطُّ، فأقدم مانسون على إكراه السود لكي ينتفضوا، مستعجلين الثورة، مع إشاعة القتل.

مكَّنت أفكار مانسون المتذبذبة هذه أتباعه الذين أصبحوا يُعرَفون باسم العائلة من الذهاب إلى المنزل الذي اعتقد أنه يعود إلى تيري ميلشر الذي تخلى عنه مبكِّرًا في أثناء مساعيه لتعلم الموسيقى، ولم يكتفِ بهذا؛ إذ أقدم على قتله. ولكن، عند وصول أتباعه منطقة (10050) سيلو درايف في لوس أنجلوس، كان ميلشر قد غادرها، فذبح (مانسون) أربعة من أتباعه، والممثلة شارون تيت وجنينها بطريقة وحشية. وكان أربعة أشخاص آخرين قد زاروها، في أثناء تصوير زوجها رومان بولانسكي فيلمًا في أوروبا.

في شهر ديسمبر عام 1969م، اعتُقِل مانسون وأتباعه، وفي شهر يناير عام 1970م، وجِّهت إليه تهمة القتل العمد من الدرجة الأُولى، والتآمر لارتكاب جريمة القتل، فحُكِمَ عليه بالإعدام، وفي مطلع عام 1972م ألغت محكمة كاليفورنيا العليا حكم الإعدام، ونُقِض الحكم الذي صدر على مانسون. وها هو ما يزال قابعًا في سجن كوركوران.

---

(1) فرقة البيتلز: فرقة موسيقية رباعية إنجليزية، عُرِفت بألحانها الصاخبة، وحقَّقت شعبية واسعة في ستينيات القرن العشرين. المترجم.

ليس مهمًّا في هذا المقام أن نعرف كيف حدث هذا كله بقدر اهتمامنا بمعرفة أسباب حدوثه؛ لقد نجحت انفعالات ذلك الرجل المجنون المسكون بحب السيطرة وشهوة القيادة، في دفع الآخرين إلى الإيمان به، بل ذهبت بهم بعيدًا إلى درجة قتل الأبرياء وإغراقهم في دمائهم.

لقد سعى كلٌّ من كوريش ومانسون إلى جعل أتباعهما يشعرون أنهم أشخاص مختارون، ومتميزون، وفريدون من نوعهم، وأنهم جزء من (العائلة). وفي الوقت نفسه، أقدم كلٌّ منهما على تغيير فكر أتباعه، بحيث أخذوا يقومون بأعمال ما كان لهم أن يقربوها مطلقًا في حالتهم الطبيعية قبل تأثير الزعيم فيهم؛ لا يتوافر هذا النوع من النفوذ إلَّا للطائفة التي تجمع بين هذه الشخصية وهذا الفكر في آنٍ معًا.

ختامًا، فقد كان الزعيمان كوريش ومانسون يستقطبان الأتباع بتقديم حزمة من الوعود الحصرية لهم دون سواهم، شملت المعاملة الخاصة، وحق الانتماء، لكن تلك الوعود ما لبثت أن تحوَّلت إلى خداع، وتغيير في الفكر، لتصبح في نهاية المطاف سيطرة تامة على السلوك، والتفكير، والعواطف، وحتى الأفعال؛ لذا تعد الطوائف التي تسير على هذا النهج أخطر أنواع الطوائف على الإطلاق.

تصحيح البرمجة والانسلاخ من الطائفة

هل يمكن الانسلاخ من الطائفة؟ إذا كان غسل الدماغ والسيطرة على العقل يغريان المرء للانضمام إلى طائفة ما، فهل يمكنه استعادة توازنه والعودة إلى حياته الطبيعية عند انسلاخه من الطائفة؟

لا شك أن الأشخاص يتخلون عن انتمائهم إلى هذه الطائفة أو تلك لحظة إدراكهم مقدار ما يلحقهم من ضرر، هم وعائلاتهم وكل المنتمين إليها بسببها، فيغادرونها عند رؤية علامات النفاق والدجل والاحتيال والفساد، وينسلخون أيضًا عندما يحدث شيء ما يزيل عن أعينهم تلك الغشاوة التي حالت دون إمكانية إدراكهم لما تعرَّضوا له من تغيير في فكرهم. صحيح أن الطائفة هي التي تلفظهم أحيانًا لعدم احترامهم القوانين ومخالفتهم ما يصدر إليهم من تعليمات، أو لمساءلتهم السلطة وتحدي المذهب. ولكن، كما لاحظنا في حالة السَّينتولوجيا، فإنهم لا يغادرون من دون أن تترك الطائفة ندوبًا عليهم؛ إذ يعانون غالبًا اضطراب ما بعد الصدمة سنين عدَّة، بسبب ما تعرَّضوا له من خداع، ودجل، وتلاعب، واستغلال، واحتقار، وتخويف، وإهانة، هذا غير ما قد ينتابهم من خجل وشعور بالذنب. وما يدهمهم من كوارث مالية عندما يدركون أنهم أنفقوا مدخراتهم وثرواتهم كلها على شخصية هلامية تتبجح برسالتها الوهمية.

يعد الاعتماد المتبادل في الطائفة عاملًا مهمًّا؛ لأن اعتماد التابع المطلق في التوجيه والحياة على قيادة الطائفة يجعله يشعر بالارتباك والضياع والحيرة عندما ينسلخ عنها ويغادرها. فالأذى النفسي دائمًا يكون شائعًا في مثل هذه الحالات، ويتطلب تدخل اختصاصي نفسي بارع في تفريغ العقل وإعادة برمجة السلوك والمعتقدات التي ما تزال تتلبس روح عضو الطائفة الدينية السابق.

قوبل موضوع إعادة البرمجة بنقد لاذع في الماضي، فكانت العائلات تختطف أتباع الطوائف، وتعزلهم، ثم تخضعهم لعمل مضاد؛ بغية إفراغ

عقولهم مما علق بها من أفكار سابقة، فتعيدها بيضاء نقية كما كانت قبل تأثير الطائفة فيها. لقد ساد هذا الإجراء في سبعينيات القرن الماضي، عندما كانت العائلات المعنية والأصدقاء يُجبِرون عضو الطائفة الذي يهمهم أمره على الانسلاخ منها، ثم يعرِّضونه لعملية إعادة برمجة عميقة بوساطة خبير ماهر، وكان يُدفَع مال كثير في الغالب لقاء هذا العمل. وبالطبع، كان يُتَّخَذ هذا الإجراء رغم أنف الشخص المعني. وتكمن الفكرة في محو جميع الأفكار القيم والمعتقدات التي فرضت على الأتباع في أثناء خضوعهم لنفوذ الطائفة واستبدال أفكار وقيم ومعتقدات جديدة بها، وكان يقوم بهذا النشاط المضاد أحيانًا أشخاص كانوا سابقًا أتباع طوائف، عاشوا التجربة نفسها، وخبروا دهاليزها، مما أكسبهم فهمًا عميقًا لما يتعرَّض له أتباع الطوائف دائمًا من تغيير للتفكير وتقنيات برمجة تمسخ الشخصية الأصلية وتستبدل أُخرى خانعة مطيعة بها، أمَّا المشكلة التي كانت تعوق جهود هؤلاء الأشخاص، فتكمن في اعتراض بعض الأتباع على الاختطاف القسري بغرض إخضاعهم للعلاج، حتى يصل بهم الأمر أحيانًا إلى رفع دعوى قضائية على منقذيهم، بل يذهب بعضهم أحيانًا أُخرى أبعد من هذا، فيعود مرة ثانية إلى الطائفة التي انتُزِع منها، فيكون التصاقه بها هذه المرة أقوى وأشد من ذي قبل.

يعد تيد باتريك أحد روَّاد ممارسي النشاط المضاد، وهو شخصية مثيرة للجدل؛ لانتهاجه أساليب عدائية في العلاج. وكان يدعو كثيرًا أطباء نفسيين واختصاصيين آخرين في مجال الصحة النفسية للتدخل. والعجيب الغريب أنه لم يتلقَّ أيَّ تدريب رسمي بهذا الشأن، ووجُهت له تهم عدَّة، بما فيها انتهاكات الحقوق المدنية، وانتهاج أساليب مسيئة، وانتهاكات عقدية، وصل

بعضها إلى اتهامه بارتكاب جرائم. وقد ادَّعى ممارسة هذا النشاط لإعادة ابنه الذي كان عضوًا سابقًا في إحدى تلك الطوائف إلى جادة الصواب. ومع هذا، فقد أصبح يُعرَف بالأب الروحي لإعادة البرمجة، فاندفعت العائلات بشغف شديد تستأجره لمساعدتها على تخليص فلذات أكبادها من قبضة تلك الطوائف المتشددة. وعلى أيِّ حال، يمكن إيجاز الأسلوب الذي كان يتبعه فيما يُعرَف بالنشاط المضاد في خمس طرائق أساسية، هي:

1. تشويه سمعة زعيم الطائفة والشخصيات الأُخرى البارزة فيها.
2. تقديم أفكار متناقضة، وكشف ممارسات النفاق.
3. البحث عن نقطة حاسمة في اللحظة المناسبة التي يبدو فيها أن العقل قد أُفرغ مما بُرمِج عليه، وأصبح مهيئًا لإعادة البرمجة.
4. تشجيع الشخص الذي يخضع للعلاج على التعبير عن الذات، والسماح له بالانفتاح والتعبير بصوت مرتفع عن الغضب والخوف، وتوجيه النقد اللاذع للطائفة التي كان ينتمي إليها.
5. الانتباه إلى اللحظة التي يحدث فيها التحوُّل؛ أي اللحظة التي يبدأ فيها الشخص المستهدف نقل انفعالاته ورغباته المرتبطة أساسًا بأفكار الطائفة إلى الشخص المعالج الذي يعيد البرمجة. وهي أيضًا اللحظة التي يبدأ فيها الشخص المستهدف بالعلاج انتقاد زعماء الطائفة وتعاليمها.

لا ينبغي استخدام القوة والعنف في استجواب الشخص المستهدف بالعلاج لاستخلاص المعلومات. ويقتصر الأمر في هذه المرحلة على مطالبة عضو الطائفة بالتفكير في نفسه بطريقة نقدية، والتعبير عن الشخصية

الفردية، واستحضار ذكريات الارتباط العاطفي في حياته قبل انضمامه إلى الطائفة؛ فهي إذن مرحلة تنطوي على إعادة تعليم الذهن، وإعادة تعليم التفكير بطريقة فردية مستقلة.

ونظرًا إلى ارتباط بعض الأشكال السابقة من أساليب النشاط المضاد لإعادة البرمجة بالاختطاف والعزل، بل اتباع طرائق أكثر عنفًا - أحيانًا- لاستخلاص المعلومات، تشمل الإكراه (لا أدري كيف يمكن أن تكون إعادة البرمجة بهذا الشكل الذي يوغل في الإساءة إلى الجانب الأخلاقي أكثر مما تفعله الطائفة بأتباعها!)، وانتهاكات الحقوق المدنية؛ نظرًا إلى هذا كله، فقد اعتمدت الطرائق الحديثة للتعامل مع أتباع الطائفة، الذين يرغبون العودة إلى أحضان المجتمع من جديد، لممارسة حياتهم العادية قدر الإمكان، أسلوبًا جديدًا عُرِف باسم التوجيه والإرشاد لمغادرة الطائفة، وهو طريقة سلمية ليس فيها أيّ استخدام للقوة، وغير مكلفة، مقارنةً بما يدفعه الناس للمعالج المزعوم. وفيه تُعتمَد جلسات العلاج الطبيعي للشخص المستهدف بالعلاج - إثر انسلاخه من الطائفة- وأفراد أسرته في الوقت نفسه، وهكذا، يسهم الجميع في التعافي والعودة بالشخص المعني إلى الحياة الطبيعية من دون تعنيف وتجريح: إذ لا يقتصر الخطر هنا على التجريح والتعنيف والتجريم والشعور بالذنب والخجل، وإنما يتعداه إلى إمكانية العودة إلى الطائفة مرة أُخرى، فيصبح أكثر تطرفًا من السابق.

وللأسف الشديد، فإن بعض أعضاء الطوائف السابقين لا يستطيعون العودة ألبتة إلى حياتهم الطبيعية مرة أُخرى، في حين أن بعضًا آخرَ قد يتعافى بسهولة وسرعة؛ إذ تُعقّد الطبيعة الفردية لما يحدث من اعتداء مهمة

الحصول على التدخل الطبي النفسي اللازم في كثير من الأحيان. يضاف إلى هذا افتقار العديد من المشتغلين بالعلاج الطبيعي للأدوات الضرورية التي تمكّنهم من التعامل السليم مع ضحايا الاستغلال والجدل والخداع وغسيل المخ. وربما ينبغي لنا هنا أن نؤكد شكرنا لعصر التقنية (الإنترنت) الذي أتاح لنا الحصول على الكتب بسهولة، إضافةً إلى المنتديات والمنظمات التي تبذل جهدها في مساعدة أتباع الطائفة على التحكم في عقولهم واستعادة حياتهم الطبيعية من جديد. ولكن ينبغي التمييز بين أنواع المساعدة التي تقدَّم في شبكة الإنترنت: إذ ليس كل ما فيها مفيد بالضرورة. وعلى أيٍّ حال، يجب أن نساعد أعضاء تلك الطوائف المنسلخين على عدم الشعور بالوحدة مجدَّدًا، فتلك خطوة مهمة جدًا للتحوُّل إلى شخص حُرٍّ الإرادة والاختيار.

قصص عن الطوائف الدينية

تجربة الطائفة

بيري تيو

ربما كانت تجربة النشأة في كنف طائفة دينية هي تجربة غريبة جدًا في حياتي. وبكل تأكيد، لم ينتابني شعور بالخوف قطُّ، ولم أجد نفسي في أثناء طفولتي في موقف قد يؤذيني جسديًّا. صحيح أن أسرتي طوال مرحلة النمو لم تكن تعاني الفقر أو المكابدة من أجل الحصول على حاجتها من الطعام، بيد أنني لم أكن أعرف دعة الأثرياء وراحتهم. فكانت بعض الأشياء مثل التلفاز محظورة في منزلنا، وكنت أكتفي بسماع الموسيقى الإنجيلية فقط، وكان كل كتاب أطالعه يخضع لفحص دقيق مسبق من والديَّ. وبالطبع، فقد انتابني شعور بأن هذا الأمر سيسهم في صقل قدراتي الإبداعية عندما أشب

عن الطوق، فقد دفعني حرمان المتعة الحسية في وسائل الإعلام إلى تطوير خيالي لتسلية نفسي.

وعند انفصال والديَّ وذهاب كل منهما إلى حال سبيله، بالتزامن مع قرار الكنيسة الانقسام إلى كنيستين أيضًا، في أثناء تقدُّم الحياة بي... عند ذلك كله، بدأت أتأكد أنهم استخدموا اسم الله للاطمئنان إلى أن والديَّ لن يعودا إلى بعضهما بعضًا مرة أُخرى؛ إذ لا أحد يستطيع أن ينفي أنهما دفعا ثمنًا باهظًا. كنت أتضايق كثيرًا مما كان يجري من محاولات للتأثير في العقل، مثل قدومهم إلى منزلنا، وأداء شعائر الصلاة على والدتي حتى تصرخ، فقرَّرت يومًا أن أطردهم من المنزل. وما إن فعلت ذلك حتى تمكَّنوا من التأثير في والدتي وتغيير أسلوبها في التفكير؛ لكي تقتنع أنني مصاب بمس الجن، والنتيجة أن والدتي ما تزال - حتى اليوم- تخجل من وجودي لأنني لم أتبع وصايا تلك الكنيسة.

بالطبع، ليس ثمَّة خطأ ما في عدم الانتماء إلى طائفة دينية مثل الكنيسة، بيد أن رؤية الناس وهم يبجِّلون أحدًا قبل المجيء الثاني للمسيح، هو أمر يزعجني حقًّا، ويسبِّب لي الضيق والضجر؛ إذ يبدو أنهم يعبدون الإنسان أكثر مما يعبدون الله. فقد كان مرتادو الكنيسة يُجبرون على الاستماع إلى دروس مطولة من خطبها ومواعظها، وحُظِر علينا مواعدة الآخرين ممن لا ينتمون إلى الكنيسة، وعُدَّ الآخرون أشرارًا، وكانت الكنيسة تخدع رعاياها للحصول على الأموال (حدث هذا مع والدي أيضًا)، فجمعوا ملايين الدولارات لشراء الأملاك، وإنتاج أشرطة تسجل عليها الخطب والمواعظ وترانيم الكنيسة؛ لتوزيعها مجانًا على مرتاديها. تجدر الإشارة هنا إلى أن

الوضـع داخل الكنيســة كان معقّدًا جـدًّا، وأن النظام العائلي كان أيضًا غاية في التعقيد، حتى إنهم أسَّســوا مدرســة (غير قانونية) خلف الكنيسة ليتلقى فيها أطفال الأتباع التعليم على مدار السنة.

وعندمـا شـببت عن الطـوق كنـت ألاحظ وجود نزعـة غير صحيـة ألبتة من الناحية النفسـية، تتمثَّل في محاولـة إبقاء الجميع ضمن محيط العائلة؛ فـكان الجميع يخاطبون بعضهم كإخوة وأخوات، وكانوا - في الوقت نفسـه- يشـجعوننا على الزواج من بعضنا. صحيح أن هذا الأمر أثَّر فيَّ كثيرًا، ولكن في اللحظـة التـي قـرَّرت فيها المغادرة لم يكن ثمَّة مـا يمنعني. ومن جانبهم، فإنهم لم يبذلوا أيَّ جهد يذكر لإيقافي. وصحيح أيضًا أنهم أرسلوا أشخاصًا مـرة تلـو الأُخـرى إلـى منـزلي، للصـلاة وإعادتـي مرة أُخـرى إلـى أحضان الكنيسـة، لكـن حِيلهـم كلهـا فشـلت في تحقيـق الهدف المنشـود. وبعد سـتة أشـهر، توقفـت محاولاتهـم لإبقائـي ضمن دائرة الكنيسـة، وكان هذا شـيئًا جيدًا بالنسبة إليَّ.

والحقيقة أنني عندما جئتهم بعد ذلك كنت أفضل مني عندما غادرتهم. وكان لحرمان الطفولة فضل كبير عليَّ في التمتع بقدرات استثنائية؛ إنسانًا، ورسـامًا صاحـب نظرة مختلفة للحيـاة. وبقدر ما أدركت الجوانب المشـرقة في الأمـر، كنـت قلقًا كثيرًا بشـأن أولئك الذيـن يتبعون هذه العقيـدة أو تلك بصـورة عشـوائية دونما أدنى تفكير. فالديانة المسـيحية هـي عقيدة لعبادة الله، وليس لإخراج مسـرحية على غرار الطائفة أو الفرقة الدينية من أجل إشباع الغرور.

لقد نسيت أن أقول لكم إن الرجال وحدهم هم الذين يُسمَح لهم بالوعظ والتبشير، أمَّا النساء فيقتصر عملهن على الجلوس بهدوء، وترديد الترانيم والأناشيد في الكنيسة، والتناسل؛ تلك هي العقلية نفسها التي تفكِّر بها والدتي حتى اليوم. وثمَّة شيء في يحرِّضني بشدة على تغيير هذا الواقع. ولكن، ما دامت هي سعيدة به، فأنا أحاول جاهدًا الاحتفاظ بأفكاري لنفسي.

الأهداف الخفية

بوول ب.

في أواخر عام 1994م، اقترحت خطيبتي توظيف أخيها مستشار أعمال لشركتينا المتعثرتين، قائلةً إنه درس مع باحثين مشهورين في مجال العقل البشري، مثل: جون س. ليللي، وجوزي سيلفا، وآخرين، وعمل لدى شركات صغيرة بهدف زيادة أرباحها، فوافقتها لحاجتنا إلى مَن يأخذ بأيدينا، فشرَّفنا أخوها دون في الربيع التالي. كان دون يعتمد نهجًا حديثًا، وما إن جاء موسم صيف عام 1995م حتى تحسَّنت أعمالنا. كان منهج دون يرتكز أساسًا على المناقشة، ممزوجًا بأسلوب هنود أمريكا الحمر الروحي المعدل. انقضت ساعات عديدة ونحن نتحدث، ومارسنا - في الوقت نفسه- طقوسًا لاستحضار الطاقة والحيوية إلى مكان عملنا. وما إن أعدنا هيكلة الشركة حتى غادر دون، وما زالت الشركتان مزدهرتين حتى اليوم. ولكن علاقتي بأخت دون أصابها الفتور والتصرُّم عام 1997م فافترقنا.

وبعد عشر سنوات؛ أي في عام 2004م، راودتني أحلام عن دون وما دار بيننا من مناقشات في صيف عام 1995م، فانبجس كمٌّ هائل من المعلومات التي كنت أجهل أنني أمتلكها خلال تلك الأحلام، فظهرت إلى السطح معلومات،

مثل: كيف تبرم صفقات ناجحة؟، كيف تفهم أيَّ شخص مباشرة بتحديد وعيه وقدرته على الإدراك؟. كيف تدخل موجات دماغ شخص ما بصوت واحد. وتقنيات البرمجة. والمراحل الأُولى لكيفية تعديل العقل البشري؟، وغير هذا الكثير من المعلومات التي حضرتني في أثناء تلك الأحلام.

فشرعت بالتأليف، متكئًا على هذا المخزون الخصب لمؤلِّف عُرِف عند الجمهور أنه المؤلِّف الحقيقي، وعملت أيضًا محررًا ومنقحًا. ثم تبادر إلى ذهني أنه إذا رُتِّبت تلك الموضوعات وعُرِضت بالطريقة المطلوبة، فإنها حتمًا ستؤلِّف كتابًا رائعًا؛ فقد كانت المكتبات - آنئذٍ - تفتقر إلى المؤلَّفات التي تُعنى بتطوير القدرات الذاتية. وكنت أرى أنه إذا أُلِّف كتاب يلفت اهتمام الناس إلى قدراتهم الذهنية وسلوكهم وسلوك الآخرين، فإن ذلك من شأنه تغيير قواعد اللعبة كلها. ولكن، إذا كنت سأكتب مثل هذا الكتاب، فإنه يتعين عليَّ استحضار مزيد من المعلومات من المصدر الأساسي.

قضيت أفضل أيام تلك السنة أقتفي أثر دون، فعرفت أنه يعيش في المكسيك، وأنه تنقَّل بأسرته مرات عدَّة. فقرَّرت أخيرًا أن أرسل إليه رسالة بوساطة بريده الإلكتروني، بيد أن الأمر لم يفاجئه. فردَّ قائلًا إن وقته لا يسمح له بتعليمي كل ما أريد خلال ذلك الصيف. وفي هذه الأثناء، اتضح لي أنه ثمَّة فكرة ما موجودة في أعماق ذهني. وأنها بدأت تلمع أمام ناظري وتتبلور في وعي عندما انتبهت لها كما ينبغي. وبعد جلسات نقاش مطولة واضحة صريحة. اقتنع دون بتأليف الكتاب، فيما أقوم أنا بتدقيقه ومراجعته.

فانهمكنا في العمل حتى مطلع عام 2005م، حين استطعنا إنجاز مسوَّدة عملية. وهكذا كانت النسخة الأخيرة من الكتاب التي استطعنا تأليفها

مقنعة تمامًا؛ إذ ركَّزت بصورة كبيرة على مختلف الطرائق التي تَعْبُر بها الروح عقل الإنسان، إضافة إلى وسائل عدَّة لتعبيد المسار.

عندئذ. ترك دون وظيفته النهارية. وأقنعني بتنظيم فصول دراسية يشرف عليها هو، معتمدًا كتابنا هذا منهجًا. أمَّا أنا فكنت أُحضِّر دروسًا في الطريقة الشامانية الجديدة[1]. وتعرَّفت إلى أشخاص كثيرين مهتمين بالموضوعات التي تناولناها في كتابنا. بعد ذلك نشرت الكتاب على حسابي الخاص، ونجح دون في تسجيل ثمانية أشخاص للالتحاق بفصله الدراسي في المكسيك، ثم اتجه صوب الحدود الجنوبية.

وما إن وصلنا المكسيك حتى نزع دون كثيرًا إلى التلاعب بي وبالأشخاص الآخرين المشاركين في الدراسة، معتمدًا تقنيات المواجهة الحادة، والحيل النفسية، وحرمان النوم، والتشويش، إضافة إلى التنويم المغناطيسي، واستخدم أيضًا أسلوب الترفيه الصوتي الذي أشرت إليه آنفًا. وخلال عشرة الأيام الأُولى فقط من ورشة العمل التي كنَّا ننظمها، نصَّب جون نفسه في مكانة سامية، مكوِّنًا علاقة وثيقة مع المشاركين كافة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، ففعل كل ما في وسعه، لا ليجعلنا لا نستغني عنه فحسب، بل نتوسل إليه لكي يرضى عنَّا.

قضيت صيف عام 2012م كله وأنا أحشد طلبةً جددًا لفصوله الدراسية في المكسيك، ووثقت كثيرًا خلال سبع السنوات الأُولى بعمله وقدراته. ثم

(1) الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوروبا، يعتقد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وأن هذا العالم لا يستجيب إلَّا للشامان، والشامان هو كاهن أو ساحر يعالج المرضى، محاولًا كشف المخبأ والسيطرة على الأحداث. المترجم.

بدأت أدرك بعدها أن طرائقه هذه لن تساعدنا فعلًا على تحقيق الغاية المنشودة: إذ لم يستطع الدارسون أن يكونوا أكثر قدرة على التعبير الروحي، بل أكثر اعتمادًا على دون نفسه. وبمرور الوقت، اتضح جليًّا أن دون استغل ذكاءه للتأثير في طلبته من أجل الحصول على المال وتحقيق رغباته بذريعة تحقيق أهدافهم. فوجد ضالته في زوجين وأرملة مطلقة متخمين من الثراء، على استعداد لتسديد فواتيره وتمويل نشر المزيد من تعاليمه: إذ لم يُرزَق الزوجان بأطفال لسنوات من زواجهما، وبعد انضمامهما إلى فصول دون الدراسية رُزِقا بمولود ذكر رائع. كان ردُّ فعل دون أن الطاقة التي انبثقت نتيجة اتفاقه معهما هي التي نجحت في التحفيز للحمل، بالرغم من أنهما كانا يراجعان عيادة طبية متخصصة في معالجة حالات العقم. وثمَّة شيء آخر مربك كان دون يميل دائمًا إلى تحقيقه، وهو إقناع طلبته بأنهم قد تعرَّضوا للتحرش، حتى لو لم يستطيعوا تذكر الحادثة. وكان هدفه من هذا في معظم الحالات غرس ذكريات كاذبة في عقولهم إلى تلك الدرجة، ليتمكَّن من إقناعهم بما يريد.

كانت رحلتي الأخيرة إلى المكسيك كابوسًا مزعجًا؛ إذ طلب دون - وقتئذٍ - إلى كل مَن انتظم في فصوله الدراسية أو عمل معه أن يعيد كتابة تجربة البرمجة التي تعرَّض لها لتحقيق هدفه، متجاهلًا الذين لم يمتثلوا للأمر، ومركِّزًا اهتمامه فقط على أولئك الذين استجابوا لرغباته. وقد تبيَّن لي أنه استغل قدراتي لتحقيق أهدافه الخاصة، والاستمرار في هذا لتأسيس سلسلة مكاتب تُوفِّر الدعم النفسي والاسترخاء في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان دون قد أشار إلى أن العملاء سيفدون إلى تلك المكاتب للاستجمام في حالة نفسية يُرثى لها، فيسرع رجال فريقه المدرَّبين لجعلهم

ينتظمون في فصول، مؤكِّدًا أن إعادة صياغة ما تعرَّضوا له من برمجة سيساعد كثيرًا على إعادة البوصلة إلى وجهتها الصحيحة. لم يُعرَف عن دون مطلقًا أنه شجع طلبته للتعبير عن أنفسهم؛ فكل ما عليهم فعله هو الاستجابة لرغباته، أو التعرُّض للطرد.

غادرت المكسيك، ولم أعد إليها ألبتة بعدما أكَّدت لدون ومجموعته أنني لم أعد جزءًا من منظمتهم. فجاء الرد سريعًا ومدوِّيًا، مصحوبًا بتهديدات شديدة اللهجة، وصلتني عن طريق بريدي الإلكتروني، إضافةً إلى رسائل وضيعة. واليوم، يدير دون ومجموعته الخليعة ستة مراكز استجمام في الولايات المتحدة الأمريكية، ويخططون للمزيد مستقبلًا.

الفصل السادس

أسلحة الدمار الشامل، ووسائل الإعلام، والإعلانات، والبرمجة الاجتماعية

«ترتكز صناعة الإعلام أساسًا على عنصر الإقناع الذي لا يعد علمًا فحسب، بل فنًا أيضًا».

ويليام بيرنباغ

«مَن يسيطر على الإعلام يسيطر حتمًا على العقل... لا جدال في هذا ألبتة».

جيم موريسون

«تعد وسائل الإعلام أكثر الكيانات نفوذًا على وجه الأرض؛ إذ تمتلك القوة التي تجعل من الشخص البريء مذنبًا، والعكس صحيح تمامًا. وتلك قوة لا شك، فهي تسيطر على عقل الجماهير».

مالكولم أكس

وفقًا لدراسة ميدانية أجراها نيلسون عام 2012م. بلغ متوسط الساعات التي يقضيها الإنسان جالسًا أمام شاشة التلفاز (34) ساعةً أسبوعيًا. إضافةً إلى الوقت الذي يُستنفد في تصفُّح مواقع التواصل الاجتماعي في

شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت)، أو التحديق في الأجهزة الذكية. ويمكن القول بكل ثقة إن معظم الأمريكيين يقضون ضعف هذا الوقت – على الأقل– وهم منهمكون في دراسة طريقة تفكير شخص ما، وأسلوبه في التعامل مع مختلف أحداث الحياة.

تعد وسائل الإعلام بمختلف أشكالها أضخم جهاز تحكم عن بُعد صنعه الإنسان حتى الآن. وللأسف الشديد، فإننا نعيش جميعًا داخل تلك الجدران الأربعة التي تتحكم فيها. وفي السياق نفسه، يمثّل التلاعب بالفكر والسلوك جزءًا مهمًّا من حياتنا اليومية التي نقبلها طوعًا أو كرهًا. ففي كل مرة نسمّر أعيننا في متابعة الأخبار، في القنوات الفضائية، ووسائل التواصل الاجتماعي، والسينما، وحتى الوسائل التقليدية مثل الصحف: في كل مرة نفعل هذا أو ذاك، فإننا نتبنى وجهة نظر ما قد تتفق مع أهوائنا أو تخالفها. فنحن نطالع مواد هي في حقيقة الأمر هراء وحشو فارغ، ومع هذا نقبلها حقيقة دامغة لا مراء فيها، من دون تكليف أنفسنا عناء البحث عن مصدر تلك المعلومة، أو اقتطاع جزء من وقتنا للتعمق في بحث الموضوع. ليس هذا فحسب، بل ننشر بعض تلك المعلومات لآخرين. وعندئذ، يمكن لأثرها الفيروسي أن ينتشر حول العالم في بضع دقائق، بفضل شبكة الإنترنت والهواتف الذكية.

إذن، هل ثمّة طريقة، لمَن أراد حقًّا السيطرة على عقل الجماهير، أفضل من شراء وقت وسائل الإعلام التي تحظى بمتابعة أكثر، ولا سيما تلك الوسائط التي تتميز بأنها الأكثر تأثيرًا وقدرةً على تغيير سلوكنا وطريقة تفكيرنا وحتى ثقافتنا الاستهلاكية، مثل: وسائل الإعلام، والدعاية

والإعلان. ووسائل التواصل الاجتماعي؟ لذا، كن دومًا على استعداد لتغيير قناتك الإعلامية المفضَّلة؛ فبسبب هذا السيل الجارف من البرمجة الاجتماعية اليومية، لم يعد أحد يستطيع السيطرة على جهاز التحكم عن بُعد.

التلاعب الإعلامي

تبث وسائل الإعلام أخبارًا سيئةً طوال الوقت، فالحكايات كلها التي تنهال علينا من التلفاز والمذياع وحتى وسائل التواصل الاجتماعي، تنزع غالبًا إلى الإصابة بالإحباط، وإثارة الخوف والقلق، والأكثر من هذا أنها تنتشر كما النار في الهشيم، علمًا بأننا ندرك جميعًا أنه ثمَّة أشياء رائعة تحدث في العالم دومًا هنا وهناك، فلماذا إذن تَعشق وسائل الإعلام التركيز على الأخبار التي تتحدث عن إراقة الدماء والعنف؟ لأننا نستجيب لها، ونهتم بها ولا شك.

تهيمن موضوعات الأخبار السيئة على الساحة دائمًا؛ لأننا نستجيب لها أكثر من غيرها؛ فالأمر بسيط حقًّا من وجهة النظر العلمية؛ إذ نميل كلنا إلى العودة إلى أيامنا الخوالي، عندما كنَّا ننقِّب عن كل خبر، مهما تواضع وصغر شأنه، لضمان استمرار حياتنا. وينطوي معظم تلك الأخبار على أشياء مفزعة، مثل: افتقار الحيوانات المفترسة إلى الكلأ والماء، وسوء الأحوال الجوية وبعض الناس المزعجين. فبوجه عام، يستجيب عقلنا البسيط هذا للأخبار السيئة؛ لأننا نريد معرفة كل شيء في الوقت نفسه.

فمَن يا ترى يهتم للأشياء الجيدة وأخبار الموت تنتشر في كل زاوية من زوايا العالم؟

إننا نواجه اليوم تحديات كثيرة مختلفة، وما نزال نتوق إلى المزيد ونشر الذعر. وقد يستغرب بعضنا إذا كانت وسائل الإعلام تفعل هذا عمدًا: أي إشاعة الخوف والاضطراب وسط الجمهور بوصفه شكلًا من أشكال السيطرة على العقل. ولمّا كان حدوث هذا الأمر محتملًا، بل ممكنًا، فما كان ينبغي لهم بذل كل هذا الجهد الشاق من أجل إشعال فتيله: إذ نستطيع الحصول عليه دونما عراك وقتال.

يضع مايكل أ. هوفمان في كتابه المجتمعات السرية والحرب النفسية إصبعه على سبب رئيس للنفاق والرسائل المزدوجة التي تبثها وسائل الإعلام، ولا سيما ما يتعلق منها بموضوعَي: الجنس والعنف. فهل لاحظت الطريقة الصارخة التي يتناول بها التلفاز ووسائل الإعلام المقروءة الأخبار في البرامج الوثائقية، والافتتاحيات، والمقالات التحليلية عن تصاعد وتيرة بث المواد الإباحية، والجريمة، والعنف، وحوادث إطلاق النار العشوائية...؟ وفي المقابل، يشتمل دليل برنامج التلفاز اليومي لآخر الأخبار على أزمة الجنس والعنف في أمريكا.

يُعرِّف هوفمان هذه الظاهرة بالعقل المزدوج للإعلام الجماهيري، وكلنا مذنبون بسبب تجاوبنا مع كل واحد منهما. وبالعودة إليهما، نجد أن الأول هو العقل الذي يقبل، والثاني هو العقل الذي يرفض. والحقيقة أن استخدام الصور في تغيير عواطفنا طريقة موغلة في القِدم، كانت تُستعمَل سابقًا

للتأثير في الاستجابات السلوكية، مع تفوق وسائل الإعلام في عرض الصور التي تصدمنا، وترعبنا.

أمَّا فيما يتعلق بالأشخاص الذين يؤمنون بقدرة الإعلام الجماهيري على التحكم في العقل، فمن السهولة بمكان العثور على أدلة مادية تؤكِّد هذا الاعتقاد. وحسبك أن تتأمَّل وجوه مجموعة ما متحلِّقة حول التلفاز، عندما يُعلَن في الأخبار العاجلة عن حدوث آخر هجوم إرهابي. بل تأمَّل أيضًا تحديق الناس في المجهول وهم يشاهدون إعلانًا تجاريًّا بعد آخر؛ ترقُّبًا لعرضهم المفضَّل الذي وصل بهم الحال إلى إدمانه. ففي الأخبار المحلية والقومية، يُبَث إلينا ما يُعتقَد أن معرفته تلزمنا، فنتلقَّفه من دون تكليف أنفسنا عناء التثبُّت من صحته؛ لثقتنا بوسائل الإعلام، فهي تصدقنا القول دائمًا، أليس كذلك؟ فقط الساسة وزعماء الطوائف الدينية هم الذين يكذبون علينا، لا أولئك الذين يدلون بتصريحات في قنوات (CNN, MSNBC, Fox) الإخبارية.

المعلومات المضللة وتلك الكاذبة

معظم الأخبار التي تتساقط علينا صباح مساء من مختلف وسائل الإعلام لا تخضع للتدقيق، للتحقق من صحتها. ومعظم مصادر الأخبار التي يستقي منها الناس المعلومات هي مجرد مواقع للسخرية، أو مدوَّنات، أو مواقع في شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت)، تسمح لمَن هبَّ ودبَّ أن ينشر قصة من دون تأكيد وجهة نظره، أو توثيق المادة التي ينشرها. فساد تداول الأخبار الساقطة التي لا ترقى أبدًا إلى معيار قدامى الصحفيين،

وغُضّ الطرف عن الجهة التي موَّلت الخبر، أو تلك التي تمتلك الموقع الرئيس الذي شهد ولادة الخبر ومصدره ومصادر الأخبار الأُخرى التي تناقلته، ولم يُبذَل أيُّ جهد لمعرفتها. فنحن نصدِّق تلك الأخبار على علاتها، سواء مقروءة كانت، أو منشورة في شبكة المعلومات العنكبوتية، أو في التلفاز. فأيُّنا لديه الوقت اللازم ليتحقق منها إذا كانت صحيحة أو كاذبة؟

تزخر وسائل الإعلام بالمعلومات المضللة التي تفتقر إلى قاعدة حقيقية تستند إليها، أو تلك التي نُشِرت نتيجة تواضع المهارات الصحفية أو التقارير المزيفة. وللأسف، فتلك هي المعلومات التي تُعرَف خطأً بالحقيقة)، ثم تنتقل من شخص إلى آخر، ومن شبكة معلومات إلى أُخرى، لتطوف في النهاية العالم أجمع، قبل أن يُكلِّف واحد منًّا نفسه التحقق حتى عن أدنى شيء منها. وعندئذٍ، يكون الوقت قد تأخر كثيرًا؛ لأن الجماهير تكون قد قبلت الخبر، ونظرت إليه بوصفه خبرًا قانونيًّا حقيقيًّا. وحتى في حال عرض الخبر مرة أُخرى، مدعومًا بحقائق تؤكِّده، فإنه نادرًا ما يغيِّر قناعة أولئك الذين رسخت الأكاذيب في ذهنهم، ولا سيما إذا كانت تلك الأكاذيب تدعم أفكارهم ورؤاهم العالمية.

وبوجه عام، تُبَث المعلومات الكاذبة المضللة عن قصد وسبق إصرار لتحقيق أهداف محدَّدة، كالبذور تمامًا؛ فهي تنمو لتصبح في النهاية حقائق مسلَّم بها. فالإشاعات، والدعايات المغرضة، وأحاديث القيل والقال التي تنهش أعراض الناس وتستبيح حياتهم الخاصة، ونشر الذعر...كلها أخبار تُنشَر لتحقيق أهداف محدَّدة سلفًا، مثل إشاعة الخوف وجنون الشك والارتياب، ثم دفع الناس للتصرف بطريقة محدَّدة وفق المخطط،

وهـذا مـا حدث ذات ليلة: إذ تناقلت وسـائل الإعلام خـبرًا لمقتل أحد أفراد الجيش الأمريكي على أيدي أحد المهاجرين غير الشرعيين. ووفقًا للمصدر المجهول. فقد كان المهاجر مسلمًا متطرفًا، تسلَّل خلسة عبر الحدود، مطلقًا صيحـات الجهـاد. وقبل مـدة طويلة من هذه الحـادثة، كانت مشـاعر العداء للمسـلمين قـد عمَّـت البـلاد؛ لفظًـا صريحًا، وفي شـبكة الإنترنـت ومختلف وسائل التواصل الاجتماعي. وبعد ثلاثة أيام من تلك الحادثة، كُشِف النقاب عـن الحقيقـة؛ إذ تبيَّن أن الجندي الأمريكي هو الـذي أطلق النـار على طفل صغير فقتله بعدما اجتاز الحدود بطريقة غير شـرعية بصحبة والديه بحثًا عن الحرية.

وهنا يُدهَش الإنسـان كثيرًا؛ إذ كيف لخبرين متناقضين مثل هذين، مع بعض المعلومـات المتفرقة هنـا وهناك، أن يحدثـا! لكن العجيـب الغريب أن مثـل هـذا يحـدث يوميًّا؛ فهو يحدث أحيانًا لأننا ننشـر الأخبـار حتى قبل أن تصبح أخبارًا (عندما تكون مجرد مزاعم)، ويحدث أحيانًا أُخرى (لأنهم) يتسبَّبون في حدث ما، ثم يتبعونه بالتأثير المطلوب.

يصعـب كثـيرًا التمييـز بـين المعلومـات المضللـة وتلـك الكاذبـة في بعض الأحيـان؛ إذ يحـدث التعديل والتبديل غالبًا بطريقة ماكـرة خبيثة، غاية في الذكاء، على مستوى اللاوعي. مما يجعل تحديد مصدر المعلومة أمرًا صعبًا. فتصبـح مهمة تفنيدها أصعب، إن لم تكن مسـتحيلة تمامًـا. فقد أكَّد لينون هونـر، مؤلِّـف كتاب سـيطرة وسـائل الإعلام علـى العقـل... مقدمة موجزة الذي سُـجِّل في سلسـلة أشـرطة فيديو مدتها أربع عشـرة سـاعة، نُشِـرت في موقعـه بشـبكة الإنترنت، بعنوان: **كيفية فك لغز التضليل الإعلامي How**

to Decode Media Manipulation؛ أكَّد هونر أنه: «في غمرة سيطرة ماكينة الإعـلام العالمية على العقل. يعجز المـرء عن إدراك ما حدث من تأثير خفي في وعيه، ويعجز أيضًا عن تمييز الوسائل الخفية التي تستخدم ضده لتحقيق هـذه الغاية». عندما نسـتغرق جميعًا في ضجيج تلك الآلـة الإعلامية الهائلة وصخبهـا، بصـرف النظر عن اختلافاتنا الثقافية والسياسـية والاجتماعية والدينيـة، ربمـا نؤمـن -كما قـال هونـر- أننا نختـار بوعي يخـدم توجهاتنا المسـتقبلية، ومـع هـذا فقد تكون اختياراتنـا رهينة لما تعرَّضنا له سـابقًا من برمجة واعية دون أن ندرك حقيقة خضوعنا لتأثير ما.

يسـتطرد هونر قائلًا: «إن أحد الأسـباب الرئيسة لسماحنا بحدوث هذا التأثـير فينـا. هـو خضوعنـا طواعيـةً لسياسـة صـرف الانتباه التي تمارس ضدنـا، حسـب رؤية وسـائل الإعلام لما ينبغي لنا أن نعرفـه». فنقضي وقتنا، ونُبدِّد طاقتنا في تلك الحيرة، في حين كان حري بنا أن نستفيد من ذلك كله في مواجهـة الحقيقـة. ويضيف هونـر: «يؤدي هذا الخضـوع في حقيقة الأمر إلى إعفاء الفرد من تقويم اضطراباته النفسية الداخلية: إذ يسهل التركيز علـى حـالات الحيرة والارتباك التـي يعانيها الآخرون، مقارنـةً بالقدرة على التعامل مع عقليتك الخاصة».

يفسِّـر هـذا بسـهولة قـدرة شـبكات التواصـل الاجتماعـي علـى تشـكيل تصورهـا الخاص للسـيطرة على العقـل؛ لأن الكثير من الأشـخاص يقضون مزيدًا من الوقت في زيارة مواقع تسـمح بوجود كل شـكل ممكن من أشـكال صرف الانتباه، وبث الحيرة والارتباك.

الفيسبوك وشبكات التواصل الاجتماعي

يرتبط الجميع بطريقة ما بشبكات التواصل الاجتماعي (حسنًا... لنكن أكثر دقة، فنقول: الجميع تقريبًا)، وأصبح من الواضح جدًّا أنه ليس بإمكان أحد اليوم السيطرة على تدفق المعلومات التي تنتشر مثل الفيروسات فتعم العالم كله في بضع دقائق، أو السيطرة على تغييرها حتى لو كانت معلومات كاذبة. تطل الضغوط الاجتماعية برأسها عندما يعلن الناس، محاولين الحصول على موافقة قبائلهم، وينشرون العناوين الرئيسة الصادمة حتى من دون قراءة الموضوعات المصاحبة. وتساعد الصور هنا كثيرًا على تناقل الأخبار. فالأنانية هي السمة الغالبة اليوم. ولكن، ما الصيغة الخيالية التي تقدِّمها هذه المواقع للمعلنين وغيرهم من المهتمين بما يثير حفيظة الناس من جهة، ويحفزهم إلى الشراء ويحثهم على الإنفاق من جهة أُخرى؟

في عام 2012م، قام موقع فيسبوك (Facebook) الهائل بعمل أزعج مستخدميه كثيرًا: إذ استغل سبع مئة ألف مستخدم غافل وجعلهم حقولًا للتجارب، في تجربة اجتماعية سمحت له بالتلاعب بالعواطف والاستجابات العاطفية، من دون إخطار أيٍّ مستخدم أنه فعل ذلك؛ إذ شرع خبراء البيانات في الموقع يتعرَّفون مدى قدرتهم على التأثير في حالة المستخدمين العاطفية، ثم حفزهم إلى نشر مزيد من المحتويات الإيجابية أو السلبية. لقد تلاعب خبراء الفيسبوك بعواطف المستخدمين مدة أسبوع كامل، مستخدمين الطريقة الخوارزمية المقنَّنة التي تُستخدَم دائمًا في إجراء عمليات رياضية: إذ تحذف - مثلًا - محتوًى ما (قد يكون إيجابيًّا أو سلبيًّا) بطريقة تلقائية. بعد ذلك نُشِرت البيانات في مجلة الأحداث العلمية التي

تصدرها الأكاديمية القومية، في عددها الصادر في مارس. وما إن شاع سرُّ التجربة حتى تعالت صيحات الناس، مُنددةً بهذا الغزو الفاضح والانتهاك الجائر للخصوصية والتلاعب بالعقول وتقنيات الخداع. مما حدا ببعض الخبراء الذين كانوا يقفون وراء الدراسة إلى الاعتذار عن هذا الإجراء غير الأخلاقي. ثم دخل المحامون المهتمون بالدفاع عن القضايا التي تتصل بانتهاكات الخصوصية، وكذلك المنظمات المهتمة بالشأن نفسه: دخلوا جميعًا على الخط، مُنددين بانتهاكات فيسبوك لحقوق المستخدمين الذين لم يُخطروا سلفًا بعزم الموقع إجراء هذا البحث.

لكن المشكلة الحقيقية هي أن موقع فيسبوك عكف على ممارسة هذا النوع من التجارب سنوات عدَّة، من أجل تغيير وظائف الموقع وملامحه لخدمة مستخدميه بصورة أفضل، وإتاحة إمكانية الاطلاع على المعلومات الشخصية بالطريقة نفسها.

لم يعلم المستخدمون بما حدث لهم، إلَّا بعد تسليط الضوء على تلك الدراسة. فأدركت الجهات التي تقف خلف الفيسبوك سهولة التأثير في عواطف المستخدمين الذي يمكن تحقيقه بجهد متواضع جدًّا، ويكون -في الوقت نفسه- تحت سمع ومرأى من المستخدمين أنفسهم؛ إذ تعرَّضوا للهيمنة عليهم من دون وعي، حتى مع عدم إدراكهم بوعي تام لأيِّ شيء مختلف في الموقع خلال ذلك الأسبوع الذي شهد إجراء التجربة. والشيء نفسه ينطبق على مواقع تواصل أُخرى، مثل تويتر، وجوجل، التي تُدشَّن بهدف تحقيق العائد المادي من الإعلانات التجارية. وحتمًا يتخلل ذلك كثير من عمليات التلاعب المستمرة؛ بغية تحقيق أكبر قدر ممكن من المبيعات.

ولأننا نشاهد الأخبار في التلفاز يوميًا؛ فلا بد أن نصاب بالدهشة إذا كان المستوى نفسه من التلاعب يُدَسُّ لنا وسط الحكايات التي نقبلها حقائق واقعية لا جدال بشأنها.

البرمجة الاجتماعية

هل نخضع نحن أيضًا لتجارب البرمجة بالطريقة نفسها التي نتبعها في برمجة أجهزة الفيديو الرقمية لتسجيل عروض الفيديو المحبَّبة إلينا؟ تُعرَف هذه التجارب أيضًا باسم الهندسة الاجتماعية؛ فالأساليب التقنية التي تُتَّبَع في السياسة والدين وحماية مصالح الشركات، وحتى في التعليم والأوساط الأكاديمية: كلها هندسة سلوك ورغبات طائفة واسعة من الناس. تحدث الهندسة الاجتماعية الحقيقية باستخدام أساليب علمية في التحليل واتخاذ القرارات التي تُنفَّذ غالبًا لتحقيق مزيد من الأهداف الأكاديمية. أمَّا البرمجة الاجتماعية فتحدث يوميًا بطرائق لا يُقصَد منها - بالضرورة- فهم أعمق للطبيعة البشرية.

في لقاء مع رون باتون: المدير التنفيذي لتلفاز بارانويا، وصاحب متجر بارانويا في سان دييغو، أجاب رون عن الأسئلة الآتية التي تتعلق بفن البرمجة الاجتماعية في المجتمع:

- ما المقصود بالبرمجة الاجتماعية؟
- يُقصَد بها الهندسة الاجتماعية ضمن سياق السيطرة على العقل، وهي طريقة للتأثير الخفي بصورة تدريجية، وإخضاع شريحة من

الناس لأسلوب الإكراه أو التأثير. ويمكن تحقيق هذا الهدف غالبًا بأكثر الطرائق فاعلية على مستوى اللاوعي. ويمكن القول إن البرمجة الاجتماعية هي أحد أشكال البرامج التي تهدف إلى السيطرة على عقول الجماهير.

- ما الكيانات المسؤولة عن البرمجة الاجتماعية؟ وما دوافعها؟
- من أهم الكيانات المسؤولة عن البرمجة الاجتماعية: شركات الدعاية والإعلان، ووسائل الإعلام بمختلف أشكالها، والساسة، وأتباع الكنيسة الإنجيلية، ومندوبو المبيعات.. فهذه هي الجهات الرئيسة التي تُعنى بتقنيات الهندسة الاجتماعية ومناهجها؛ بغية تحقيق العائد المنشود؛ فالمسألة إذن تتعلق بتغيير أفكار الفرد أو الجماعة، أو توجيه القدرة على اتخاذ القرار لمصلحة هذا الكيان أو ذاك، لا خدمة الأشخاص الذين يتعرَّضون لهذه الممارسات النفسية والاجتماعية.

ولا شك أن تأثير وسائل الإعلام في إعادة تشكيل الطريقة التي نفكِّر بها وقولبتها، لا تخطئه عين أبدًا؛ لأن التلفاز يتبوأ مكانة مهمة في مجتمعنا؛ فنحن دائمًا ننظر إلى تلك المعلومات التي تُبَث في وسائل الإعلام بوصفها وسيلة احترافية، أو مصدرًا لترويج الحقائق.

- هلَّا تفضلتم بسرد نماذج لهذا النوع من البرمجة التي تعتمد في مجالات العمل، وتحظى باعتراف السواد الأعظم من الناس؟
- يعد التلفاز أكثر الوسائل السائدة وأعظمها فاعلية بتأثيره في اللاوعي. وبالطبع، فكل ما يمكن عرضه على شاشة السينما (الأفلام) أو شاشة الحاسوب، يُحدِث الأثر نفسه. ويعمل هذا النوع من المحفزات الخفية

في العمق بعيدًا عن مستوى الوعي (في اللاوعي). ولمَّا كان معظم أفراد المجتمع يشاهدون التلفاز، فإنه الوسيلة المثالية لحفز الدماغ إلى الدخول في حالة التنويم المغناطيسي، علمًا بأن كل ما يُعرَض على الشاشة البلورية (مثل الأفلام)، أو شاشة الحاسوب يُحدِث الاستجابة العاطفية نفسها. وبمرور الوقت، يؤدي هذا إلى ظهور واقع مصطنع، يؤثِّر عميقًا في قدرة المجتمع على التفكير المنطقي الذي يحكمه العقل.

أمَّا البرمجة العصبية اللغوية فتمثِّل نموذجًا آخرَ للوسائل التي قد تُحدِث هذا النوع من التأثير، وهي نموذج عصبي يشمل أساسًا علم اللغة والأنماط السلوكية. وفي حال طبَّق شخص ماهر، صاحب خبرة وتجربة في البرمجة اللغوية العصبية، هذه التجربة على جمهور غافل عمَّا يحاك له، تعمل المحفزات التي يستقبلها على دفعه إلى التفكير والاضطلاع بأعمال ما كان ليقدم على عملها في مستوى الوعي الطبيعي.

- هل تعتقدون أن البرمجة الاجتماعية ستصبح يومًا ما ظاهرة إيجابية؟
- نعم، خاصة البرمجة العصبية اللغوية، شرط أن نستخدمها بطريقة تمكِّننا من دمجها في حياتنا لتحقيق الأهداف الإيجابية، والتخلص من الأنماط السلبية التي وصلت حدَّ الإدمان؛ إذ يكمن الهدف الرئيس منها في تمكين الفرد من استخدام مختلف التقنيات لإعادة برمجة الدماغ.
- كيف يمكننا تفادي شرك هذا النوع من البرمجة؟
- بدايةً، يجب الإحاطة بمختلف فروع الهندسة الاجتماعية المحتملة، ليسهل علينا تمييز مختلف طرائق استخدامها، وتعرُّف كيفية

تفادي آثارها الضارة، لا شك أن بعض الناس يكونون أكثر عُرضة من غيرهم لهذا النوع من البرمجة، مما يحتم عليهم اتخاذ تدابير وقائية مناسبة، تجنِّبهم آثارها السلبية، ولهذا يتعين علينا أن نكون جميعًا أقوياء: أفرادًا وجماعات، لا سيما ذهنيًّا، وذلك باتباع نمط حياة صحي متوازن، لتعزيز قدرتنا على التفكير والنقد.

وبالمثل، فإن الحدَّ من مشاهدة التلفاز وعدم الجلوس أمام شاشة الحاسوب كثيرًا، يجنِّبنا السقوط فريسة تأثيرات اللاوعي السلبية، سواء كان ذلك عن قصد أو غير قصد.

أود الإشارة هنا إلى أن التحكم في الجماهير هو من أفضل أنواع التحكم التي يمكن أن يمارسها الإنسان، وأن استخدام تقنيات محددة للسيطرة على سلوك الجماهير وإعادة تشكيله يعد مجالًا خصبًا مفتوحًا أمام أولئك الذين يدركون الوسائل، ولهذا نجد أن هندسة سلوك الجماهير هي أمر محبَّب للسلطات الاستبدادية والشركات التي تتلهف إلى جني أرباح طائلة على حساب الجماهير المغلوبة على أمرها: إذ تستعمل الأنظمة الشمولية هذه التقنية لإدارة شؤون المصلحة العامة، وبوسع المجتمعات الديموقراطية أيضًا الاستفادة من الأمر نفسه في إعلان الحرب على المخدرات، أو حتى حشد الدعم لحرب حقيقية قد تفرض على البلاد. وفي إطار هذا المفهوم، نستطيع أن نطلق على الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش[1] اسم حملات البرمجة الاجتماعية الناجحة: حتى إن قدرة هتلر ومهارته في السيطرة

(1) محاكم التفتيش: محاكم كاثوليكية سابقة، نشطت بصفة خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وكانت مهمتها اكتشاف الهرطقة ومعاقبة الهراطقة. المترجم.

على شعبه، وحمله على قبول أكثر السلوك بشاعة. تعد أيضًا من أكثر أنواع البرمجة الاجتماعية قوة وفاعلية وقدرة على التأثير؛ فكلما بذل جهد من أجل نجاح البرمجة الاجتماعية آتت أُكلها هنيئًا مريئًا.

ثمَّة شبه كبير بين البرمجة الاجتماعية والدعاية، فالأُولى تندرج ضمن مفهوم العلاقات العامة؛ إذ تحفز مجموعات كبيرة من الجماهير إلى القبول، والإنكار، والدعم والمساندة، والمقاومة، أو أيّ شيء آخر بين هذا وذاك.

يعد إدوارد بيرنيز، وهو أمريكي من أصل نمساوي، وابن أخ عالم النفس سيجموند فرويد، أحد روَّاد الدعاية الجماهيرية، ولهذا كان يُعرَف بالأب الروحي للعلاقات العامة. افتُتِن بيرنيز كثيرًا باستخدام الدعاية في أثناء الحرب، مع أنه كان متخصصًا في الزراعة، وحاصلًا على درجة علمية فيها، وأخذ يفكِّر في كيفية استخدام الدعاية زمن السلم، فانهمك أولًا في مجال علم النفس والعلاقات العامة، ودمجهما لتكوين أفكاره الخاصة عن إقناع الجماهير، وأطلق على ذلك اسم هندسة الموافقة أو القبول.

ولمَّا كان بيرنيز يعي جيدًا كيفية عمل (العقل الجماعي)، فإنه أيقن بفكرة السيطرة على الجماهير وتوجيههم وفق المطلوب دون إدراكهم لهذا الأمر، فاستخدم كثيرًا من نظريات عمِّه الشهيرة في بحثه لتوجيه إدراك الجماهير، والعمل على تعزيز أنماط خاصة من السلوك، بما في ذلك رغبته الشخصية في مساعدة الشركات الكبرى، عن طريق توزيع الأفكار على أوسع نطاق ممكن، بالطريقة نفسها التي تتبعها تلك الشركات في توزيع ذلك الكمِّ الهائل من منتجاتها.

يـرى بعض النقـاد في بيرنيز شـخصًا عبقريًـا، في حين يـرى فريق آخر أنه يمثِّل تهديدًا حقيقيًا لحرية التفكير؛ إذ يرون في أسـاليبه مجرد أكاذيب مقبولـة، ودعايـة لتحقيق هدف محـدَّد، وتلاعب بعقـول الجماهير من أجل مصالـح الفئـة القليلة المتنفِّذة. ويبقى كتابـه الدعاية الذي ألَّفه عام 1928م اختبارًا حقيقيًا لعمله وعمل أولئك الذين سبقوه على النهج نفسه، فهو يوثِّق العلاقـة بين ما يسـميه هو (الحكومـة الخفية، والسـلطة الفعلية التي تحكم الدولة) والجماهير التي تخضع للحكم، وهو الأمر الذي كان بيرنيز يرى فيه ضرورة ملحة للسيطرة على فوضى الجماهير. وليس ثمَّة شك أن هذا النوع من السـيطرة الاجتماعية يُستخدَم فعلًا في تنظيم سلوك الأفراد والجماعة في المجتمع المعني، بتأثير من الدعاية التي تعد إحدى أدوات السيطرة.

توجـد طرائـق رسـمية وأُخـرى غـير رسـمية لتنظيـم السـلوك، وتشـمل الطرائـق غـير الرسـمية التنشـئة الاجتماعيـة، والمعايـير الثقافيـة، وتعزيز خيـارات السـلوك المقبول، أمَّا الطرائق الرسـمية فتذهب خطـوات أبعد من هـذا؛ إذ تشـمل اسـتخدام قـوى خارجيـة، مثـل العقوبـات الحكومية لحفظ الأمـن والنظـام. وبالنظـر إلـى هـذا الموضـوع مـن طـرفي نقيض، نجـد أن الطرائق الرسـمية للسـيطرة الاجتماعية ربما تشـمل أيضًا التعذيب وسـيلةً لحمل النـاس على التصـرف، والالتزام، والانضباط، والهدوء.

أساليب وسائل الإعلام

تتسـم بعض الطرائـق المنهجيـة التـي تسـتخدمها وسـائل الإعـلام في السـيطرة علـى المشـاهدين والتأثـير في عامـة الجمهور، بوضوح تـام. وعلى أيِّ حـال، فالأسـاليب والطرائـق كلهـا مغرية وماكـرة وخادعـة، ويصار إلى

تطويرها بغية الوصول إلى هدف معين، والسيطرة - بطريقة ما- على أكبر قدر ممكن من المشاهدين والمستمعين. أمَّا أولئك الذين يستخدمون وسائل الإعلام وسيلة للإكراه، فيدركون جيدًا أنه ليس بوسعهم حَمْل الناس بالقوة على تنفيذ رغباتهم، فيشترون ما يريدونهم أن يشتروه، ويفكِّرون بالطريقة التي يريدونها لهم، ولهذا فإنهم يستخدمون تقنيات أُخرى.

فإعادة التشكيل هي وسيلة لتغيير مفهوم الجماهير أو اهتمامهم تجاه موضوع ما، عن طريق فرض (إطار) محدَّد أو قاعدة معلومات عن الموضوع. ولا يمثِّل هذا الإطار بالضرورة معلومات كاذبة، وإنما يسعى جاهدًا للتخفيف من وطأة جوانب إيجابية أو سلبية محدَّدة اشتملت عليها الصورة المعروضة داخل الإطار. تخيَّل أنك تتأمَّل قطعة فنية واضحة المعالم، على الأقل عند سطحها، ومع ذلك تجدها تتغير في نظر المشاهد عندما توضع داخل إطار مزخرف، على العكس تمامًا من قطعة بلاستيكية مجردة. ففي المقابل، يستخدم السياسيون ووسائل الإعلام فكرة الإطار هذه وسيلةً لحمل الناس على قبول تفكير محدَّد، محيط بقصة أو قضية إخبارية معينة.

صحيح أن وضع إطار حول فكرة معينة لا يعني بالضرورة السيطرة على العقل، وإنما يعني استخدامه طريقةً للتأثير في أسلوب التفكير والسلوك. فربما تجد مجموعتان من الناس مختلفتان تمامًا، على طرفي نقيض من مسألة ما، طريقةً لوضع وجهات نظرهما داخل إطار معين ينال استحسان أولئك الذين هم في منتصف الطريق. إذن، فاستخدام الإطار قد يجعل مفهومًا متطرفًا ما أقلَّ حدَّةً وتطرفًا، وبالطبع، فالعكس صحيح، اعتمادًا على الكيفية التي يُستخدَم بها الإطار.

ثمَّة شبه كبير بين طريقة تحديد الإطار وطريقة تشكيل النموذج؛ فالنماذج هي أنماط، وصيغة محدَّدة للتفكير والسلوك، وحتى ممارسة العادات والتقاليد. ولمَّا يعجز النموذج عن خدمة الهدف، يمكن للإطار المساعدة على إعادة صياغة النمط ليكون أكثر قبولًا لدى أكبر قطاع ممكن من الجماهير، وبالرغم من أن الإطار الحالي قد لا يحقق أفضل مردود، فإن تاريخنا الاجتماعي يؤكِّد قبوله من معظم الناس، بصرف النظر عن أيِّ شيء آخر - على الأقل- إلى أن يظهر شخص ما أو شيء ما يتطلب تشكيل نموذج جديد. وللأسف الشديد، فإن الأشخاص الذين يضطلعون بمهمة تشكيل النماذج هم النخبة نفسها دائمًا، والسلطات النافذة التي تحدِّد الإطار، اللهم إلَّا إذا كانت (جهة مجهولة) كما في حالات الثورات الجماهيرية.

من جانب آخر، تعد اللغة أحد الأساليب المهمة التي تُستخدَم في توجيه مفهوم الجماهير وطريقة تفكيرها، فانتقاء مفردات محدَّدة واستخدام جمل معينة يفضي في النهاية إلى تحديد اتجاه المجتمع السياسي والديني، ثم تشكيل عقلية خانعة تمامًا مثلما ترغب النخبة المسيطرة، لو تأمَّلنا جميع ممارسات وسائل الإعلام التي تركِّز دومًا على (نحن ضد هم)، واعتداءاتها التي تواجهنا بها يوميًّا بحكايات من قبيل: (هؤلاء السود)، أو (المهاجرون)، أو (حقوق المرأة)، أو (الفقراء القذرون)، أو (المشردون الكسالى): لوجدنا أنه من السهل أن تنخرط دول في العنف، والعدوان، والانفلات، والتعصب الأعمى، والتمييز بسبب الجنس، وربما شمل الأمر خوض الحرب. فعند شيطنة الآخرين، واتهام شخص ما أنه يمثِّل مصدر

تهديد لنا، وأنه عدو، وسبب مشكلاتنا، ويجب علينا أن نخشاه.. عندئذٍ نكون قد تخلينا فعلًا عن مسؤولياتنا وألقينا باللائمة على الآخرين.

فكلما غصّت اللغة بمفردات التنويم المغناطيسي والإقناع زاد عدد الناس الذين يسقطون فريسة لتأثيرها، فتتعالى أصوات من قبيل: «ينبغي علينا محاربة هؤلاء الإرهابيين الشياطين، الذين يريدون سرقة حريتنا»، «الحرية ليست هبة أو أعطية»، «أغلقوا الحدود»، «لا تسمحوا لهم بأخذ أسلحتنا»، «الطبقة المستنيرة تسيطر على العالم»... وهكذا يستمر الأمر: إذ تتسبَّب مشاهدة الأخبار يومًا واحدًا فقط- بما تفيض به من تلك العبارات- في إثارة مشاعر الخوف والترويع، ودغدغة أحاسيسنا، وبث الرعب، وجعلنا نعيش في دوامة من الصدمة.

وبالمثل، يعد الاعتماد الكاذب وسيلة أُخرى لحمل الناس على تصديق قضية معينة، أو دفعهم إلى شراء منتج، أو تحقيق هدف ما. فعن طريق استخدام مصطلح الدراسات العلمية، أو الحديث المبهم عن موافقة عشرة أطباء من بين كل أحد عشر طبيبًا، تتمكَّن شركات الدعاية والإعلان أو وكالات الأخبار من إقناع أعداد هائلة من الناس أن منتجها جدير بأن يدفعوا فيه تلك الدولارات التي كسبوها بشق الأنفس، أو أن هذا المنتج أو ذاك لا يسبِّب السرطان كما يشاع. فموضوع التحقق من الثقة في العلوم وتصديقها، حتى لو كان هذا كاذبًا، يمثِّل عبئًا هائلًا على المستهلكين والمشاهدين والمستمعين، الغارقين في أعمالهم حتى آذانهم، لكي يذهبوا ويتحققوا بأنفسهم من صحة هذا أو كذبه.

استخدام البطاقة البكماء

قد تتمكّن وسائل الإعلام من ترسيخ ما تريده من أفكار وصور ومفاهيم معينة في أذهان المشاهدين والمستمعين، ويساعدها على ذلك رغبة هؤلاء في الاطلاع على الأخبار. أو التسلية والترفيه. وهو السبب نفسه الذي يجعل شعبًا ما يقبل بسهولة خوض حرب ضد بلد ليس له أيُّ علاقة بما حدث من هجمات إرهابية أُلصِقت به زورًا، أو دفع مجموعة كبيرة من الناس إلى تناول دواء جديد، آثاره الجانبية تفوق فوائده بدرجات. أو حَمْل الناس على انتخابِ سياسيٍّ يعارض كل ما يفيدهم.

لقد بلغ الضحك على الناس واستغفالهم مرحلة جعلتهم أشبه بالصم، يُصدِّقون كل ما يعرض عليهم، ويُسلِّمون به؛ إذ يثقون في الأخبار والعلوم من دون أن يهدروا ثانية واحدة من وقتهم في التفكير. إنها الثانية التالية التي تمثّل الحد الفاصل واللحظة الحرجة، بيد أننا لا نعيرها اهتمامًا أبدًا. ما يجعلنا نترنح ونحتار في السبب الذي جعلنا نُخدَع ونُستغفَل بهذا الشكل الجماعي مرة بعد أُخرى.

يستعرض الكاتب والباحث أليكس الأنصاري في كتابه السيطرة على عقل الجماهير بوساطة شبكات التلفزة أثر وسائل الإعلام في العصر الحديث في مجتمعنا الحر المتحضر، مشيرًا إلى استخدام التلفاز أولًا ثم المذياع وسائلَ لغسيل عقول الناس. يقول في ذلك: «لا يعني هذا بالضرورة أن كل ما يعرض على شاشة التلفاز يكون موجَّهًا لغسيل أدمغتكم؛ لم يكن الأمر كذلك ألبتة. بيد أن معظم برامج التلفاز تُدارُ وتُعَدُّ اليوم من كبريات الشركات الإعلامية الرائدة التي تحفظ مصالحها بموجب عقود محمية، مثل: شركة

وستنجهاوس (إذاعة كولومبيا)، وشركة جنرال إلكتريك (شركة الإذاعة الوطنية). ويساعد هذا كثيرًا على فهم الأمور عندما ننظر إلى ما يحدث في الأخبار من تشويه وتحريف وتزوير».

ومن نافلة القول أن صراع المصالح هذا بين أصحاب وسائل الإعلام قد امتد ليتحوَّل إلى صراع سياسي بين المحافظين والليبراليين الذين يتنافسون اليوم على ملكية محطات الأخبار، ليؤثِّروا بها في الجماهير.

ويسترسل الأنصاري قائلًا: «إن المذياع يسهم أيضًا في لعبة غسيل المخ هذه؛ فعندما تستمع إلي أيِّ حديث سياسي من أيِّ إذاعة تلاحظ أن الضيف يرى في عقلك وعاءً فارغًا، محاولًا تعبئته بما يروِّج له من مفاهيم!». وقد أشار أيضًا في كتابه إلى ما يحدث من تغييرات فعلية في العقل في أثناء مشاهدة التلفاز (العقل الآلي)؛ إذ تعمل هذه التغييرات غالبًا كالأفيون، فتدفعنا إلى إدمان المشاهدة أو الاستماع، لكنها - في المقابل- تَحمِلنا أيضًا على قبول ما يمارَس ضدنا من وسائل تلاعب، وما يقدَّم إلينا من معلومات مضللة، وحقائق راسخة بكامل وعينا. ويؤكِّد الأنصاري أن: «ثمَّة تطور متصاعد في التقنيات بمرور الوقت؛ نظرًا إلى استمرار خبراء العقل الذين يخدمون إمبراطورية الإعلام، في اكتشاف الطفرات العلمية التي تتعلق بكيفية عمل الدماغ، وكيفية تعلمه، وكيفية تخزينه للمعلومات، ثم كيفية تصرفه».

وبناءً عليه، فكلما تعلمنا مزيدًا عن الدماغ أفسحنا المجال أمام الآخرين للتلاعب به والسيطرة عليه. ويحذِّر الأنصاري من زيف وسائل الإعلام وخداعها بقوله: «يقدِّمون لنا حقيقة العالم بوساطة شاشة، وقليل من الحبر، أو خلال أثير الموجات الإذاعية، بيد أن الحقيقة الأساسية تبقى

ملبَّدة في الموقع العادي». فالمشكلة، إذن، هل نحن أذكياء حقًّا، ونولي الأمر ما يستحق من اهتمام لكي نرى تلك الحقيقة الغائبة؟

إذا لم تستطع التغلب عليهم فأشغِلهم، لا شك أن الانتباه هو لحمة كل أمر وسداه. فثمَّة طرائق عدَّة لصرف انتباه شخص ما (أو حتى مجموعة) عن أمر ما، ويمكن إجمال أهم الطرائق التي تستخدمها الشركات، وشركات الدعاية والإعلان، ووكالات الأنباء، والسياسيون، وغيرها من الجهات، لصرف انتباه الآخرين، فيما يأتي:

- تعزيز الشعور القومي: عندما يحدث شيء ما يُهدِّد أمننا نقفز كلنا، فننضم إلى حركة التلاحم الوطنية، حتى إننا ندعم حروبًا قد نعجز عن تحمُّل تبعاتها، أو نؤيد الحركات السياسية والدينية التي تحرِّض على التعصب والعنصرية.
- إشعال فتيل القيل والقال: هل تود معرفة الطريقة التي تمكِّنك من صرف انتباه الناس وتركيزهم على قضية مهمة؟ اعرض عليهم قضية يستغرق تداولها إعلاميًا وقتًا طويلًا، بصرف النظر عمَّا إذا كانت أمرًا عاديًّا أو خطيرًا: فضيحة سياسية، طلاق أشخاص مهمين من الصف الأول في السلطة الحاكمة... أشغِلهم بنشر غسيلهم المتسخ!
- إلقاء المسؤولية على الآخرين: ابحث عن أضعف خصم ثم ركِّز عليه؛ فأضعف الحلقات في السلسلة تفضي إلى كسرها، وهذه الطريقة وسيلة آمنة لصرف أنظار الجمهور عن السلسلة نفسها.
- التضليل الإعلامي: إذا رغبت أن تظل الحقيقة طيَّ الكتمان فضعها وسط إطار من كمٍّ ما من معلومات كاذبة، ثم ردِّدها مرارًا حتى يصدِّقها الناس، ثم اجلس لتراقب انتشارها كالفيروس المعدي.

- تشويه صورة الرجل الآخر: إذا أردنا صرف انتباه الآخرين بعيدًا عن خطايانا فأفضل طريقة هي جذب أنظار الجمهور لتركيزها على الأعمال الشيطانية لشخص آخر. تذكَّر المكارثية[1] التي تصف مناهضي إجراءات الحكومة بالشيوعيين الذين يكرهون أمريكا.
- إشاعة الخوف: هي من أهم الطرائق المستخدمة؛ لأن الخوف هو أمضى سلاح يمكن إشهاره في وجه الفطرة السليمة والحس السليم، لا سيما الحالة الهستيرية الناجمة عن الخوف. حدث هذا مؤخرًا إثر نوبة الذعر والهلع التي سبَّبها ظهور بعض حالات مرض إيبولا في أمريكا، فقد أشاعت في البلاد حالة من جنون الإرهاب الإعلامي، إضافةً إلى المشاعر المعادية لإفريقيا.

وإلى جانب هذا كله، فثمَّة وسائل أُخرى عديدة لإحداث تأثير لا تُخطئه عين، بيد أن أخطرها هو ذلك الذي يحدث خارج منطقة الوعي، حيث لا نملك أيَّ خيار في قبوله أو استيعابه.

اللاوعي والسيطرة الخفية على العقل

أضحى استخدام مصطلح اللاوعي والمفردات المتداولة عادة في الدعاية والإعلان شائعًا اليوم، ومع ظهور الإنترنت، وشبكات التواصل الاجتماعي، وبرامج الإخراج الحديثة، مثل برنامج (فوتوشوب)، أصبح في وسع الجميع عمل مذكرة أو رسالة من دون وعي، ويمكننا أيضًا الحصول على صور

---

(1) المكارثية: نزعة سياسية ظهرت في منتصف القرن العشرين، وتتسم باصطناع العنف في مقاومة العناصر التي تراها الدولة هدَّامة، وشن حملات تشهير تطال الأفراد دونما تحقيق. المترجم.

مجسَّمة لنجوم الـروك الذين قضـوا، وتغيـير أصواتهم، واستنسـاخ أفلام الفيديـو الأصليـة. وإتقان أنـواع الحِيل والتلاعـب جميعها: فاليـوم يبدو أنه ليس بإمكان أحد أن يحجب شـيئًا عن الظهور على سـطح الأرض؛ ففي عام 1957م مثلًا، قرَّر باحث في مجال التسويق يُدعى جيمس فيكاري، معرفة ما يحدث عند إدراج كلمات أو جمل داخل صورة متحركة. فأدرج مفردات مثل (تناول الفشـار). و(اشرب الكوكاكولا) داخل إطار فيلم سينمائي مدة غير كافيـة لتسـجيل تلك المفـردات بطريقة واعيـة. فكانت النتيجـة زيادة حجم المبيعـات. ثـم صنِّفـت تلك النتيجـة فيما بعـدُ بوصفها (خدعـة)، ومع ذلك ثبت المفهوم ورسـخ. وهكذا وُلِد عصر اللاوعي مع سـائر أنواع الدراسـات. بما فيها تلك التي أُجريت في جامعة هارفارد عام 1999م. لمعرفة مدى تأثير المفـردات والصـور التي تُضفـى على الوعي، فتؤدي إلى نتائج مدهشـة. فهل بوسعك إقناع شخص ما بشراء منتج عن طريق عرض صورة أحادية الإطار لامرأة تحمل المنتج المعني. حتى لو كان المشـتري لا يرغب في ذلك المنتج، أو لا يحتاج إليه؟ هل يمكنك ترسيخ أفكار وصور مباشرة داخل العقل الباطني المرن والحساس بكل سهولة؟

كانـت الإجابـة: نعم... بكل تأكيد، ومع أنها مثـيرة للجدل. فإن اللاوعي سبق أن استُخدِم في منتجات الدعاية والإعلان والسياسة. وحتى في الصور المتحركة وعروض التلفزة.

مـن جانبها، تدَّعي شـبكات التلفزة، أو شـركات السـينما غالبًـا أن تلك أخطـاء بسـيطة. بيـد أن بعضهـا ظهر إلـى العلـن ليؤكِّد أن التفكـير في تلك

التقنية خُطِّط له بعناية شديدة حين يتعلق الأمر بالتلاعب بعقل الجماهير في وسائل الإعلام.

يعد الفيلم السينمائي **طارد الأرواح الشريرة The Exorcist** أحد أهم أشكال استغلال اللاوعي؛ إذ تظهر على الشاشة بين الفينة والأُخرى صورة شيطان أبيض الوجه يُدعى الكابتن هودي، بالرغم من غضب المؤلِّف ويليام بيتر بلاتي بسبب استخدام الصورة في فيلمه. وفي المقابل، فقد اشتملت أفلام أُخرى على الصورة المتحركة، مثل فيلم **البطة الحكيمة المشعوذة Wise Quacking Duck** الذي أنتجه وارنر وأخوانه عام 1943م؛ إذ تدور البطة المعتوهة حول درع، وتظهر في أحد الإطارات جملة **اشتروا السندات Buy Bonds** مكتوبة على الدرع. وفي واحدة من أكثر المحاولات السافرة لإعلانات الشركات، بُثَّت حلقة من فيلم تلفازي ترفيهي عنوانه **المجتمع Community**، وقد احتوى على مشهد يظهر فيه شعار شركة مايكروسوفت وملصقاتها، التي موَّلت تلك الحلقة بهدف الترويج لموقع محركها البحثي (بِنْك - Bing).

واليوم، يتقبَّل معظم الناس مطالعة إعلان تظهر فيه صورة لامرأة منشورة في إحدى مجلات الدعاية والإعلان، أو يطلبون مشروب عرق السوس أو شطيرة النقانق، عن طريق بضعة إطارات مبعثرة من فيلم سينمائي يشاهدونه. بيد أن فكرة اجتياحنا باستخدام صور لم نكن على وعي بما ترمي إليه يعد أمرًا مخيفًا حقًّا، اعتمادًا على الدوافع التي تكمن خلف تلك الصور، والأشخاص الذين يمارسون هذا العمل ضدنا.

لا تقف مهمة التقنية هنا فقط عند إدراج الصور كيفما اتفق داخل إطار الفيلم أو الملصقات الإعلانية، بل تتعداها لترسخ في عمق الدماغ. ومن

الأمثلـة التـي تُوثّق تقنيـة مفصَّلة جدًا ومتوافـرة براءة الاختـراع الأمريكية الفعليـة «تأثيـر المجـالات الكهرومغناطيسـية التـي تنبعث من الشاشـات في الجهـاز العصبـي». ذات الرقـم (6506148)، التـي قُدِّمـت في شـهر ينايـر عام 2003م:«تؤثر في الجهاز العصبي لمريض معين عن طريق إنشـاء صورة نبضيـة، تُعرَض على شاشـة حاسـوب قريبة، أو تلفـاز. ويمكن دمجها ضمن مادة البرامج في التلفاز، أو تزيينها عن طريق تعديل تردُّد موجات الفيديو، بحيث تكون إشارة بث إذاعية أو إشارة فيديو عادية».

وبعبـارة أُخـرى: «لم يعـد التلاعـب يحـدث فقط عـن طريق إطـار وحيد هنـا أو هناك، وإنما يمكن حدوثه بوسـاطة تعديل فعلي للتغذية أو الإشـارة، فتصلنـا مباشـرة عن طريق حاسـوبنا المنزلي، والهاتف النقـال، والتلفاز أو حتى عن طريق مشـغِّل الأقراص الرقمية. ويحدث التأثير من مصدر بعيد، ففي شاشـة التلفـاز – مثلًا – تكون الصـورة النبضيـة مدمجة داخل تردُّدات الفيديـو في أثنـاء تدفقها من المصدر، أو يمكـن تعديل التدفق لإضفاء بعض الزينـة علـى الصـورة. وفي الحالـة الأُولـى يمكـن الترتيـب للبـث التلفـازي المباشر، لدمج الصورة عن طريق ضبط إضاءة المشهد الذي يُبَث. وبالطبع، يمكن استخدام هذه الطريقة لإنتاج أفلام سينمائية وتسجيل أشرطة فيديو وأقراص رقمية».

هـذا فيمـا يتعلـق ببراءة اختـراع واحـدة فقط. واليـوم التقنيـة متوافرة للجميـع، وهـي أكثر تطورًا مما كانت عليـه الحال عـام 2003م. فتخيَّل أنك تجلس مـع عائلتك تشـاهد أخبار المسـاء، غير مُدرِك لما يحـدث من تلاعب بعقلك بوساطة صور نبضية، تُبَث من موقع بعيد عنك نوعًا ما، لحملك على

قبول شيء ما، وتصديق شيء ما، وترغيبك في شيء ما، أو جعلك تحتاج إلى شيء ما. أجل، هذا هو العالم الجديد الشجاع، حيث تختفي الأصفاد وغرف التعذيب وعملاء الحكومة الأشرار، وتنتفي الحاجة إلى غرف مظلمة؛ فكل شيء يحدث من بعيد خلال الطيف الكهرومغناطيسي، ولهذا لن تعلم بما يحدث لك إلَّا بعد فوات الأوان.

تدجين الجماهير

ربما كان كل ما سبق مجرد أساليب لتهيئة الجماهير لقبول العنف والخنوع والتعصب في العالم. وربما كان أيضًا بدافع تنبيه الشعوب لحقيقة افتقارهم إلى السلطة والثروة، وحتى الرأي الذي يتداولونه فيما بينهم. فعن طريق التركيز على العنف في الأخبار أو عروض التسلية والترفيه، واستعراض موضوعات معينة، مثل المشاعر المعادية للنساء والعنصرية والاستعباد؛ عن طريق ذلك كله يعتاد الجمهور على قبول الأمر بوصفه واقعًا اعتياديًّا وجزءًا من حياته اليومية العادية. وبهذا المفهوم، تعد التهيئة وسيلة فاعلة لحمل شخص ما على فعل ما تريده منه، حتى لو كنت تقوده إلى حتفه وتدميره؛ فانهيار الموانع يُعرِّض الدماغ لاستقبال الصور باستمرار، وإلَّا حُجِبت عنه، فحاصرت الروح بالظلام والخوف وهاجس الموت، وعندئذٍ تكون قد حصلت على المستهلك المثالي والمواطن المثالي الذي جُرِّد من أيِّ رغبة في التمرد، أو قدرة على التفكير فيما يناسبه من خيارات.

يقول ستيفين جاكبسون في بحثه المبدع: **السيطرة على العقل في أمريكا Mind Control in America**: «تعد تقنيات العلاج النفسي التي تمارس

على نطاق واسع، وتحظى بالقبول نفسه أيضًا، وسيلة لعلاج الاضطرابات النفسية، وطريقة -في الوقت نفسه- للسيطرة على الناس؛ إذ يمكن استخدامها بطريقة منهجية للتأثير في السلوك. فالتهيئة المنتظمة إذن وسيلة للتخفيف من حدَّة القلق؛ لكي لا يشعر المريض بخوف من شيء، مثل الخوف من العنف». ثم يوضِّح جاكبسون الكيفية التي تساعد بها هذه العملية المريض -أو الجمهور في هذه الحالة- على التكيف مع أوضاع وأفكار كانت في السابق تثير فيهم الذعر، في حال تعرَّضوا لها بالقدر اللازم للوصول إلى تلك المرحلة.

عندما كان زبيجنيو برزيزينكسي يشغل منصب مستشار الأمن القومي، ألَّف كتاب **بين عصرين: دور أمريكا في العصر التكنوترونكي Between Two Ages: America's Role in the Technotronic Era**، يقول فيه: «في المجتمع التكنوترونكي، تبدو النزعة تجاه تكامل الأفراد لدعم الملايين من المواطنين عن طريق التأثير في العاطفة باستخدام أحدث ما توصلت إليه التقنية من وسائل».

مَن الذي يمتلك عقلك؟

إذن، إذا كانت وسائل الإعلام هي إحدى الأدوات العملاقة للسيطرة على العقل، فمَن أكثر الذين يسيطرون على عقول الجماهير قدرة ومهارة؟

بالرغم من أن طبيعة الحياة تقتضي تغيُّر الأشياء سنويًّا؛ إذ يصعد نجم شركة ما، ويغيب نجم أُخرى، فإننا نجد أن بعض شركات قد استقرت عميقًا في عقلك، سواء أرغبت في ذلك أم كرهته، واليوم تسيطر أكبر ست شركات عملاقة على تسعين في المئة من وسائل الإعلام الجماهيرية في هذا

البلد. وفيما يأتي قائمة تضم أسماء تلك الشركات، وأسماء بعض المؤسسات الإعلامية التي تمتلكها:

1. شركة الإذاعة الوطنية العالمية (NBC/Universal) : NBC)) الإخبارية والرياضية، (Oxygen)، (MSNBC)، (CNBC) ، قناة (SyFy)، قناة (Telemundo) ، شبكة أمريكا الإخبارية، قناة الطقس، قناة الأفلام، قناة الصور العالمية، المتنزهات والحدائق العالمية، قناة الموسيقى، باكسون، برافو.
2. الشركة الإخبارية: قناة فوكس الإخبارية، داو جونز وشركاه، نيويورك الإعلانية، (BeliefNet)، قناة فوكس التجارية، قناة (Speed)، (FX)، (MySpace)، قناة ستار العالمية، قناة ستار التلفازية الهندية، قناة ستار التلفازية التايوانية، قناة التلفزة المباشرة، قناة فوكس للتسلية، ريجان للكتب، النجوم، (Zondervan) للنشر والتوزيع، هاربر كولنس للنشر والتوزيع، قناة (National Geographic) ، قناة (Outdood) الإخبارية، إذاعة (KVeronica)، صحيفة (Wall Street).
3. شركة تايم وارنر (Time INC)، (HBO): (TIME WARNER) ، شركة الإخوان وارنر، قناة التسلية، (TMZ)، السينما الجديدة، الشركة الأمريكية لخدمة الإنترنت، (TNT)، قناة الحظ، (Marie Claire) ، قناة الصور الرياضية، قناة (Castle Rock) للأفلام، (Moviefone)، (Mapquest) ، مجلة الناس، (Time Warner Cable).
4. والت ديزني: قناة (ABC) التلفازية، (ESPN) ، شركة ديزني للنشر والتوزيع، (Lifetime) ، (A&E)، (SoapNet) ، قناة (Buena Vista Home) للتسلية والتسجيل، تسجيلات ديزني، تسجيلات

هوليـوود، (Miramax)، قنـاة (Touchstone) للأفـلام، هيبـيرون للكتب. (PIXAR).

5. شـركة فياكوم: شـركة الصـور النـادرة، (BET)، قنـاة (MTV) كندا، قناة الفكاهة، (Nick at Nite)، (LOGO)، (CMT)، مجلة (Nick)، قناة الأرض التلفازية، (VHI)، قناة (Spike) التلفازية، (Noggin).

6. شـركة إذاعـة كولمبيـا (CBS): شـبكة إذاعـة كولمبيـا. شـركة كولمبيـا الإخباريـة. شـركة كولمبيـا الرياضيـة، شـركة كولمبيـا للبرامـج الاسـتعراضية، (TV.com)، إذاعـة كولمبيا، (CBS Outdoor)، شـركة المستهلك، شبكة إذاعة (Westwood).

7. والـى جانـب هذا كله، لدينـا اليوم شـركات رائدة أُخرى مثل: شـركة (Amazon.com)، (Google)، (Clear Channel)، (iHeart Radio)، (Microsoft)، (Yahoo)، (Facebook). أمَّـا أكـبر عشـر شـركات في مجال الدعاية والإعلان من حيث حجم المبيعات لعام 2013م (حسـب موقع AdAge.com)، فهي:

1. (AT&T): (1,59) بليون دولار أمريكي.
2. (Verizon): (1,43) بليون دولار أمريكي.
3. (Chevrolt): (958) مليون دولار أمريكي.
4. (McDonalds): (957) مليون دولار أمريكي.
5. (Geico): (921) مليون دولار أمريكي.
6. (Toyota): (879) مليون دولار أمريكي.
7. (Ford): (857) مليون دولار أمريكي.

8. (MobileT): (773) مليون دولار أمريكي.
9. (Macys): (762) مليون دولار أمريكي.
10. (Walmart): (690) مليون دولار أمريكي.

أتشعر بالإثارة الآن؟ حسنًا.. هل تناولت أيَّ دواء مؤخرًا؟ فالأمر يتعلق بتأثير شركات الدواء العملاقة في قرارك. فأيُّ دواء تتناول؟ فيما يأتي حجم مبيعات أكبر خمس شركات دعاية وإعلان عملاقة عاملة في مجال الترويج للعقاقير الطبية لعام 2013م، (حسب موقع: FiercePharma.com):

1. (Pfizer): (435) مليون دولار أمريكي. وتضم شركة: (Celebrex)، (Lyrica)، (Viagra).
2. (Eli Lilly): (239) مليون دولار أمريكي، وتضم شركة: (Cialis)، (Cymbalta).
3. (Abbvie): (180) مليون دولار أمريكي، وتتبعها شركة: (Humira)، (Androgel).
4. (Merck): (141) مليون دولار أمريكي، وتضم شركة: (Nasonex)، (Gardasil).
5. (Amgen): (128) مليون دولار أمريكي، وتتبعها شركة: (Embrel)، (Prolia).

ولا شك أن هذه الأرقام لا تشمل بلايين الدولارات التي يدرُّها كل عقار لكل واحدة من هذه الشركات.

وتأسيسًا على ما سبق، فإن اندماج الأموال الطائلة في القدرة الهائلة على التأثير، وسيطرة أيدٍ محدودة على كل هذا، يجعلنا ندرك أننا لا نملك حقًّا ذاك الكمَّ من الخيارات الذي نتوهمه، عندما يتعلق الأمر بما نشاهده، ونسمعه، ونستجيب له بأموالنا، وحتمًا فإن لقوة الدولار الهائلة يد طولى في سيطرة الإعلام على العقول، والشيء نفسه ينطبق على القوة الهائلة التي نضعها في أيدي عدد محدود من الشركات المندمجة متعددة الأنشطة التي تفرض علينا ما نُطلِق عليه اسم الأخبار والبرامج الترفيهية. صحيح أننا نستطيع تغيير القناة التي نشاهدها، ونستطيع أيضًا الانتقال إلى مشاهدة أخبار أُخرى وبرامج ترفيهية بديلة، بل بإمكاننا إغلاق التلفاز تمامًا، والهاتف النقال، وجهاز الحاسوب، ومغادرة وسائل التواصل الاجتماعي، وإغلاق المذياع، حتى آذاننا يمكننا إغلاقها، وعدم السماح لأيٍّ أصوات، أو أفكار، أو مفاهيم، أو صور للآخرين أن تفرض نفسها على عقولنا.

فمَن ذا الذي بوسعه امتلاك عقلك إذن؟ مجمل القول هو أننا نستطيع التحكم في ما نشاهده ونسمعه، ويمكننا العثور على مصادر أفضل نستقي منها المعلومات والأخبار، وبوسعنا فحص المادة التي تُقدَّم إلينا بوصفها حقيقة مطلقة وتمحيصها، وبذا فليس بمقدور أحد السيطرة على عقولنا إلَّا بالقدر الذي يتبلَّد فيه حِسُّنا، وتتخدَّر فيه مشاعرنا، وتتشتت أفكارنا لدرجة نصاب فيها بالذهول، فنعجز عن إدراك ما يدور حولنا.

وفور إفاقتنا من غفلتنا، واستعادة جهاز التحكم في حياتنا، والشروع في برمجة عقولنا وفق الطريقة التي نفضِّلها، حسب ما يتوافق مع أخلاقنا

وقيمنا، ويخدم أهدافنا... عندئذٍ يستحيل على أيٍّ قوة على وجه البسيطة، مهما امتلكت من أدوات، الولوج إلى عقولنا والسيطرة عليها.

الفصل السابع

قدرة العقل وفاعليته: الجانب الإيجابي للسيطرة على العقل

«يعد الترحيب بالأفكار من دون التسليم بها إحدى أهم العلامات التي تميِّز العقل المثقف».
أرسطو

«حتمًا، يمكن أن يكون العقل أي شيء... فطريقة تفكيرك هي التي تحدِّد شخصيتك».
بوذا

«فكِّر بطريقة إيجابية».

«غيِّر أفكارك، بدِّل نمط حياتك».

«استغل قوة إرادتك لتسهم مع الآخرين في تشكيل واقعك».

«أسلوب تفكيرك هو الذي يحدِّد شخصيتك طوال حياتك».

لا شك أننا سمعنا هذه الاقتباسات التي تحفز الإنسان بصيغة ما، فتدفعنا إلى السيطرة على عقولنا، وبناء أحلامنا، وتحقيق أهدافنا، والوصول إلى ما نطمح إليه من حلول لمشكلات حياتنا، وعلى كل حال، فالسيطرة على العقل ليست كلها شر؛ إذ يمكننا الاستفادة منها في شؤون

حياتنا كلها. ولتعليل الأمر بطريقة أكثر لطفًا: العقل أثمن شيء يمكن أن يفقده الإنسان، ولهذا يعد السماح للآخرين، أو أيٍّ قوة ما، أو مختلف الأحداث والظروف، لتملي علينا أفكارنا، أو تحدِّد سلوكنا، وأسلوب تفاعلنا مع أحداث الحياة؛ يعد هذا كله عبودية صريحة لا تحتاج إلى دليل.

وفي المقابل، تعد قدرتنا على التحكم في عقولنا أسمى درجات الحرية وأعظمها.

أثر التنويم المغناطيسي في السيطرة على المجتمع

من الجدليات التي يسلِّم بها معظم الناس أن التنويم المغناطيسي يعمل على التخلص من الوزن الزائد، ويساعد على الإقلاع عن التدخين، ويحارب العادات القديمة السيئة من سلوك وغيره؛ فتهيئة الدماغ لتقبل الإيحاء تساعد بصورة مدهشة على تطبيق برمجة إيجابية جديدة، تقاوم برمجة العقل الباطن السلبية، التي تدفعنا إلى التشبث بالسلوك السابق، وما صاحبه من ردود أفعال. ولهذا حظي التنويم المغناطيسي الذاتي بقبول على نطاق واسع، بوصفه طريقة فاعلة لتغيير حياتنا نحو الأفضل.

يُذكَر أن استخدام التنويم المغناطيسي الذاتي وسيلة للتغيير الإيجابي هو جزء من برنامج يُعرَف باسم طريقة سيلفا، وعُرِف سابقًا باسم طريقة سيلفا للسيطرة على العقل، وهي طريقة كانت شائعة من مطلع ستينيات القرن الماضي حتى مطلع تسعينياته. بفضل العديد من الأسماء المشهورة في مجالي المساعدة الذاتية والتحفيز الذاتي، وقد تفتَّقت تلك الطريقة من

عقل طفل يُدعى جوز سيلفا، كان يعمل فنيًّا في تصليح الأدوات الكهربائية، فبدأ في مطلع أربعينيات القرن الماضي يطوِّر أفكاره فيما يتعلق بالمخ، وعلاقة ذلك بالتنويم المغناطيسي وبرمجة العقل: كان سيلفا هذا مفتونًا بنظرية انشطار الدماغ التي دحضها الباحثون بإجراء مزيد من البحوث الحديثة، بيد أن اعتقاده بإمكانية التأثير في الدماغ ضمن حالات معينة للموجات الدماغية كان اعتقادًا صحيحًا في الأساس من وجهة النظر العلمية.

فعن طريق استخدام التنويم المغناطيسي، وحفز القدرة إلى التخيُّل وتمارين التدريب الذهني والتقنيات، اعتقد سيلفا أنه يستطيع زيادة القدرة النفسية والطاقة الذهنية للشخص، فضلًا عن تحسين مستوى الذكاء والذاكرة والصحة العامة، عن طريق موجات ألفا الدماغية (5،7 – 5،12هيرتز). وهي حالة من التأمُّل والاستغراق في أحلام اليقظة، ومستوى من الوعي يسمح بإجراء برمجة أكثر عمقًا. كان سيلفا يرى أن النصف الأيمن من الدماغ يمثِّل مجال موجات ألفا، وأنه أكثر استعدادًا لتعزيز الحدس وارتفاع مستوى الذكاء والتوجيه وقدرة التأثير في العقل الباطن، حيث تستقر عمليات البرمجة السابقة.

وبالرغم مما تعرَّضت له بعض طرائق سيلفا من نقد لاذع وصلت حدَّ الغضب أحيانًا، فإن أنصاره ادَّعوا أنها حقَّقت نجاحات تمثَّلت في فقدان الوزن، والإقلاع عن التدخين، والشعور بقدر أكبر من السعادة والرضا، والتمتع بالصحة الجيدة، وتعزيز القدرة على الإبداع. ومن المهم جدًّا أن ندرك هنا أن الذي يُحدِث التغيير هو الأدوات، وليس اسم الطريقة أو علامتها التجارية. من جهة أُخرى، يمثِّل التنويم المغناطيسي، والتخيُّل،

والتأكيد، والقدرة على التفكير الإيجابي دعائم العصر الحديث الأساسية للتفكير الذي يرى أن الجسد والعقل وحدة واحدة لا تتجزأ مطلقًا. تركِّز هذه الطريقة الشمولية في نظرتها إلى التجربة الإنسانية على التغييرات البدنية والذهنية، والعمل جنبًا إلى جنب لتحقيق مصلحة الجميع، وقد أُلِّفت كتب كاملة عن التفكير الإيجابي، والتأكيدات، والتأمُّل، ولهذا فنحن هنا لا نعيد اختراع العجلة من جديد. وعلى كل حال، فإن هذه الطرائق جميعها تسهم في تغيير الحالة الذهنية والنفسية من أجل تحقيق الفائدة المنشودة.

تجمع معالجة المرض بالتنويم بين استخدام التنويم المغناطيسي والعلاج النفسي، وهو شائع بوصفه وسيلة فاعلة لإحداث تغييرات بدنية وعقلية، بما في ذلك معالجة اضطرابات النوم، والاكتئاب، وحتى اضطرابات ما بعد الصدمة النفسية. ثمَّة أنواع عديدة من طرائق العلاج بالتنويم، بعضها يُستعمَل للسيطرة على الألم، وبعض آخر لمعالجة المشكلات النفسية، وحتى حالات الإدمان، وضبط العادات، وتحسين مستوى الأداء الرياضي، وتخفيف روع المرضى الذي يسبق العمليات الجراحية، ومساعدة الناس على تحقيق أداء أفضل في الاختبارات المهمة. ولكن، حسب ما أفاد الدكتور ديردر باريت، أستاذ الطب النفسي بجامعة هاربر، فإن التنويم المغناطيسي لا يمثِّل حجر الزاوية في هذا الأمر؛ إذ كتب في مقال «أهمية العامل النفسي في التنويم المغناطيسي» الذي نُشِر في مجلة علم النفس اليوم، في عددها الصادر في يناير عام 2001م، يقول: «ليس للنشوة التي يُحدِثها التنويم المغناطيسي أيُّ أثر ذاتي في عملية المعالجة؛ إذ تُغذَّى عقول المرضى بوساطة إيحاءات وتخيُّلات محدَّدة تُحدِث تغييرًا جذريًّا في سلوكاتهم. وفي أثناء

تكرار تلك الطرائق الجديدة التي يرغب المرضى في التفكير فيها والشعور بها، فإنهم يضعون اللبنات الأساسية لتغيير تصرفاتهم المستقبلية».

وبالرغم من أن الاستعانة بشخص آخر يجري عملية التنويم المغناطيسي هي أكثر الطرائق فاعلية للوصول إلى مرحلة الاسترخاء التام، فإن بعض المرضى يفضّلون التنويم المغناطيسي الذاتي لتحسين مستوى حياتهم كما يزعمون؛ فهو أساسًا يجعل النفس تشعر بحالة من النشوة عن طريق الاستماع إلى الموسيقى، أو الدخول في حالة من التخيُّل والتأمُّل للوصول إلى حالة الموجات الدماغية الملائمة لما تقوم به من عمل في اللحظة الراهنة؛ إذ تساعد موجات ألفا الدماغية العقل على التركيز بعمق وتخيُّل مشهد معين يمكن الوصول إليه عن طريق شريط مسجل يحوي صورًا تخيُّليةً تُحدث التغييرات المطلوبة، وبرمجة العقل الباطن. تؤكّد طريقة زين (Zen) حدوث زيادة في موجات ألفا في أثناء لحظات التأمُّل العميق. وتعد موجات ألفا أيضًا جزءًا من التغذية البيولوجية الراجعة التي تساعد الإنسان على الثبات في أثناء تخطيط موجات الدماغ. ما يسمح له بالسيطرة على موجات دماغه، وما أن ينتهي تصوير الموجات حتى تشجع التغذية الراجعة الشخص المعني على الثبات على تلك الحالة، في حين تنشأ أفكار جديدة؛ مثل: التغلب على الخوف من الأماكن المرتفعة، والتحدث إلى حشد من المشاهدين. ومما يدعو إلى السخرية حقًّا أن وزارة الدفاع تدرس الآن إمكانية استخدام طريقة التغذية الراجعة البيولوجية وسيلةً لحفز الجنود الذين يقعون في الأسر إلى إحداث موجات ألفا؛ بغية إحباط عمل أجهزة كشف الكذب لدى قوات العدو.

تدريب الدماغ

تُعرَف القدرة على جعل موجات الدماغ تتزامن مع منبِّه خارجي باسم تدريب الدماغ. وقد أصبحت طريقة شعبية شديدة التأثير لتغيير نمط السلوك والتفكير، وإحداث طرائق مغايرة للوعي. وتُستخدَم فيها غالبًا بعض أنواع الأدوات السمعية، مثل: ثنائية السمع التي تعمل على تضخيم الصوت، وأحادية الصوت، والنغمات المتزامنة التي تجعل الدماغ في حالة نعاس، علمًا بأن تحرير موجات ألفا العميقة للدماغ (تتراوح بين 4- 7 هيرتز) يرافقه حالة من الاستغراق في التأمُّل ومجال الحدس والذاكرة. وقد يحقِّق بعضهم نجاحًا، فيبلغ موجات دلتا (تتراوح بين 0- 4 هيرتز)، ومجال النوم والوعي. ويُقصَد بدلتا المنطقة التي تحدث فيها البرمجة الحقيقية للعقل، وتُعرَف أيضًا باسم التزامن نصف الكروي. وتكمن الفكرة في استخدام أصوات تتكرر بطريقة محدَّدة، أو أشياء مرئية للوصول إلى حالة تنويم المخ، ليصبح مُهيَّئًا لاستقبال البرمجة المطلوبة (كم آمل أن تكون ذات طبيعة إيجابية!).

يعد الصوت الثنائي من أكثر الطرائق المستخدمة في تدريب الدماغ، ويحدث عند إرسال إشارات أو نغمتين سمعيتين قريبتين من بعضهما بعضًا في الترددُّات، فينتج من هذا تردُّد نبضي يمثِّل الفرق بين تردُّدين، وعند استخدام سماعات الرأس، يُحدِث الدماغ الضربات أو النبضات عن طريق الجمع بين اثنين من الترددُّات الناقلة، بحيث تسمع كل أذن على حِدَة نغمة لها درجة الثبات نفسها، فيؤدي الإحساس إلى تدريب الدماغ على تزامن الترددُّات وما تُحدِثه من نغمات تقع دون سرعة الصوت. وتزخر الأسواق اليوم بعدد كبير من الأجهزة التي تُحدِث مثل هذا الصوت الثنائي.

أمَّا الصوت الأحادي فيحوي الموجات الصوتية كلها التي تُحدِثها نغمتان من المستوى نفسه، فتضيف إلى بعضها بعضًا أو تنتقص، فتتحوَّل إلى نبضات صوتية مرتفعة أكثر هدوءًا. تحدث نبضات الصوت الأحادي خارج الأذن والدماغ، فتدخل بوصفها نبضات تمهيدية ثم تعمل على تدريب المخ. أمَّا نبضات الصوت الثنائي فتجمع بين نغمتين في الدماغ. في حين تعيد نبضات الصوت الأحادي جمع النغمات قبل وصولها إلى الأذنين. علمًا بأن إحداث النغمات المتزامنة يكون يدويًّا، وهي تكون دائمًا متباعدة بصورة منتظمة، ويجري تشغيلها وإيقافها بتوقيع سريع. وهي مثل النغمات الأحادية لا تحتاج إلى سماعات؛ لأنها تحدث خارج المخ.

تعتمد هذه العملية أساسًا على تردُّد الصوت، ونطاقه، وطبقته. وعند الجمع بين هذه العناصر والسعات المطلوبة، يحدث تأثير مغناطيسي متواتر في المخ. يؤدي إلى ما يُعرَف بالتنويم المغناطيسي. يمكن إحداث هذا التأثير باستخدام صور بصرية تُعرَف باسم الصور الومضية، وهي صور تُلتقَط عن طريق الضوء الومضي (Flash)، إضافةً إلى الصور العادية. ويتطلب التدريب المكثَّف إحداث تأثير سمعي أيضًا: فالأمر هنا أشبه بما يحدث في حفلات الرقص الصاخبة، إذ تؤدي الأضواء الومضية الصاعقة والتوقيع الموسيقي الصاخب إلى الشعور بالنشوة. تجدر الإشارة إلى أن معظم البحوث الحديثة في موقع (Stonehenge) تشير إلى أن أسلافنا استخدموا هذا الموقع لاكتشاف الآثار الناجمة عن تغيُّر الوعي، بيد أننا لم نلتزم بهذا النهج. فإذا كانت السيطرة على موجات عقلك الدماغية تعني السيطرة على عقلك، فماذا تفعل بها عندما تتمكَّن من تحقيقها؟

قوة التفكير

هل تستطيع حقًّا تغيير نمط حياتك بتغيير طريقة تفكيرك؟ تؤكِّد صناعة وسائل المساعدة الذاتية التي تنفق عليها بلايين الدولارات سنويًّا، أن ذلك ممكن بكل تأكيد! وثمَّة ادعاءات عديدة حول كيفية استخدام بعض الوسائل، مثل: التخيُّل، والتأمُّلات الموجَّهة، والتأكيدات، وغير ذلك من التدريبات اليومية التي صُمِّمت لتغذية عقلك ببيانات جيدة، مقارنةً بالبيانات السيئة التي تغيِّر التأثيرات السالبة وتكره العقل الذي يخضع لها، تمامًا كما يؤكِّد المثل السائر: «القمامة في الداخل هي نفسها في الخارج».

فإذا استخدمت أجهزة لتدريب عقلك، أو استعنت باختصاصي تنويم مغناطيسي مفضَّل لديك لتحفيز عقلك، فالأمر سيَّان ما لم تُغذِّ عقلك بمزيد من المعلومات المفيدة التي صُمِّمت خصيصًا لعمل تغييرات حقيقية. فإذا كنَّا حقًّا عُرضة للتلاعب بعقلنا من طرف حكومتنا، والساسة، والزعماء الدينيين، فيجب ألَّا نُغفِل ما نتعرَّض له أيضًا من قِبَل الأنانيين والمصابين بأمراض الاضطراب العقلي الذين يعترضون حياتنا؛ لذا يتعين علينا حشد كمٍّ هائل من المعلومات المضادة. وبالرغم من عدم وجود أيِّ دراسات علمية تؤكِّد أن التفكير الإيجابي قد يغيِّر حياتك، فثمَّة كمٌّ هائل من الشواهد في صورة كتب، وأفلام سينمائية، وبرامج تلفازية، ومحاضرات، تشهد كلها بما للتفكير الإيجابي من قوة تأثير؛ فعندما يكون العقل مرنًا ومنفتحًا تؤكِّد الفطرة السليمة أن غرس البذور الصالحة أفضل كثيرًا من غرس البذور الطالحة، وعليه يتوقف نوع الحصاد في نهاية المطاف: فقد أثبتت التجارب الإنسانية أن أداءنا يكون أفضل، ونعبق حياتنا بمزيد من

اللحظات السعيدة، ونستمتع بشعور رائع ملؤه الرضا والحبور. عندما يكون عقلنا في حالة إيجابية جيدة. وأحسب أن هذا وحده كافٍ لكي يدفعنا إلى مراقبة أفكارنا وكل ما نُغذّي به عقولنا، أو ما يحاول الآخرون إقحامه فيها.

فالأمر هنا شبيه تمامًا بالذهاب إلى صالة رياضية؛ إذ يمكنك الجلوس عند زاوية ما من دون أن تفعل شيئًا، فلا تحقّق أيّ فائدة. وفي المقابل يمكنك تمرين عضلاتك باستخدام الآلات والأجهزة الموجودة وحمل الأثقال، فتتمتع بالقوة والصحة؛ فمثلما نحصل على نتائج مختلفة في صالة الرياضة اعتمادًا على تركيز الشخص المعني واهتمامه، نحصل أيضًا على نتائج مختلفة في أثناء التعامل مع العقل اعتمادًا على رغبة الشخص المعني. يقول ريميز ساسون في كتابه قوة التفكير الإيجابي ومزايا العقل المنفتح المرح: «يؤدي السلوك الإيجابي إلى الشعور بالرضا والسعادة والاطمئنان، ما يجعل العيون تشع بالفرح وتنبض بالحيوية، ويمتلئ الجسم بالطاقة ويفيض بالسعادة. وعليه، تبقى الحالة العامة عنوانًا للأمل والتفاؤل والفرح والنجاح، وحتى صحتنا تفيد كثيرًا من هذه الحالة العامة المترعة بكل ما هو إيجابي ورائع وجميل، فنسير قُدمًا بقامة منتصبة، نتحدث بصوت جهوري واثق، وتعكس لغة جسدنا حقيقة مشاعرنا الإيجابية».

معلوم أن الآخرين يتأثرون بطاقتنا وسلوكنا وميولنا، ويحدث هذا كله بعيدًا في العقل الباطن، حيث اللاوعي، وفيه يُتَّخَذ القرار: مَن الذي يستحق منّا التفاعل معه بصورة إيجابية؟ ومَن الذي تطفح مشاعرنا السالبة تجاهه؟ فنحن نبث مشاعرنا، وعلينا أن ندرك جيدًا أن الآخرين يفعلون

مثلنـا أيضًـا، ولهذا يؤدي التوافق بيننا وبين مَن يبثون مشـاعرهم الإيجابية بالتردُّدات نفسها إلى النجاح الأكيد للأطراف جميعها.

نخلص من هـذا إلـى أن العقـل يشـبه القابـس الكهربائـي، فهـو يعمـل ناقـلًا للتيـار؛ إذ يسـتقبل التيـار القـادم إليه مثلمـا يرسـله؛ فالتحكم في ما نسـمح لعقلنـا باسـتقباله وارسـاله يحفظنـا بعيـدًا عـن ذاك الكمّ الهائـل مـن المعلومـات والتأثيـرات التـي يرغـب الآخـرون - الأفـراد والكيانات مثل الحكومة والشـركات- حشـو غرف عقولنـا بها، وحتمًا يعد هـذا أمرًا مهمًّا، خاصـة عندمـا يتعلـق بالرمـوز البصريـة والصـور التي نسـمح لهـا بدخول عقولنـا؛ يُذكَر أن العقل الباطـن، أو اللاوعي هو مجال تعرُّف الرموز، وفهم معناهـا ودلالاتها بطريقة يعجز عنها العقـل الواعي؛ فإذا كانت تلك الرموز سـالبة أثَّـرت سـلبًا أيضًـا في إرادتنا ومعرفتنـا ما لم ننتبه للأمـر، وبالرغم مـن أننا لا نسـتطيع التحكم في عقلنا الباطن مباشـرة، فإنه مـن المؤكد أننا نسـتطيع ذلـك باسـتخدام العديـد مـن وسـائل تدريب العقـل التي سـبق أن اسـتعرضناها، إضافـةً إلى تصور الأشـياء بصورة واعيـة، والتركيز على ما نريده، وليس العكس.

تقـوم حركـة التفكيـر الإيجابي أساسًـا علـى إدخال معطيـات جيدة إلى بنـك المعلومات، وإيداع الطاقة الجيدة في بنك الطاقة. فتُغذِّي العقل بأفكار سامية بدلًا من تلك التي تُسبِّب القلق والاكتئاب والخوف والإحباط والشك، وتضعـف قوتنـا البدنية والعاطفيـة. فالتأكيدات التي هـي إفادات مختصـرة راسـخة للنوايا. تجيء دائمًا بصيغة الفعل المضارع، ويتم تكرارها على نحو متصـل؛ تُرسَّـخ في العقـل الواعـي. وفي حـال تكرارهـا كما ينبغـي مصحوبةً

بالتأثير العاطفي المطلوب، فإنها تتسرَّب إلى اللاوعي، حيث تتحوَّل إلى برمجة جديدة، فتحل محل البرمجة السالبة التي نشأنا عليها وتأثرنا بها سنين بعد سنين، من دون معرفتنا أو موافقتنا.

وهذه بعض الحقائق العلمية التي تؤكّد فائدة السيطرة الإيجابية على المخ:

- يؤدي التكرار إلى إيجاد مسارات عصبية جديدة في الدماغ.
- لا يستطيع العقل الباطن تحديد الفرق بين ما هو حقيقي وما هو خيالي.
- تؤدي الأفكار التي تدعمها عاطفة راسخة إلى إنشاء مسارات عصبية قوية.
- تسمح مرونة الدماغ بحدوث تغييرات دائمة فيه.
- يصبح التصرف أو الفعل المعين بعد واحد وعشرين يومًا من تكراره المتصل أمرًا اعتياديًا للدماغ.
- يؤدي تصور النتيجة بطريقة فاعلة إلى برمجة الدماغ لتحقيق النتائج المنشودة، وهو الأمر الذي يثبته رياضيون كُثر.
- يساعد التفكير الإيجابي على الشفاء من بعض الأمراض والعلل الخطيرة والمستعصية.

على صعيد آخر، فإن ديباك شوبرا، الطبيب الأمريكي الشهير ذو الأصول الهندية الذي ألَّف كتبًا كثيرةً تعد من أفضل الكتب مبيعًا في العالم، في مجال الفيزياء الكمية، والعلاج، والهدف، والروحانيات؛ يقول في كتابه: خمس خطوات لتعزيز قوة الهدف: «أنت تحدّد رغبتك، ورغبتك

تحـدِّد هدفـك، وهدفك يحدِّد إرادتك، وإرادتك تحدِّد عملك، وعملك يحدِّد مصيرك». والحقيقة أننا خليط متجانس من كل ما نفكِّر فيه طوال حياتنا. ومن مجموعة التراكمات الهائلة من أفكارنا وأهدافنا التي تظهر من خلال أفعالنا، هذا هو تحديدًا معنى الإنسان. أليس من مصلحتنا إذن أن نحافظ علـى مسـار أفكارنـا وأهدافنـا، ونتأكـد أنها تنسـجم مع مَن نريـد أن نكون، وماذا نريد أن نكون. وليس كما يريد لنا شخص آخر غريب. مكان أو شيء، أن نكون؟

وحتى إذا لم يكن للتفكير الإيجابي والتركيز على الهدف أيُّ فائدة فإنك تنام قرير العين، وتشـعر بالاطمئنان وراحة البال. وتبقى قادرًا على التحكم في مظاهـر حياتـك النفسـية. فنحـن إذن يمكننـا أن نسـيطر علـى عقولنـا بأنفسنا ما لم نسمح للعوامل الخارجية بالتأثير فينا، وللأسف الشديد فإننا نسـمح لتلك العوامل بالتدخل في حياتنا من أول يوم نبصر فيه النور، ولكن مـا إن نكبر حتى نمتلك القدرة على التغيير، ونسـتبدل عوامـل أُخرى بتلك العوامل، ليس هذا فحسب، بل لا نسمح أبدًا لعوامل جديدة بدخول عقولنا، ولهـذا فقـد يتبـادر إلـى الذهـن السـؤال الآتـي: إذا كان ثمَّـة شـخص واحد فقـط يفكِّـر بطريقة إيجابية. فمـاذا يحدث إذا قرَّر مليون شـخص التفكير بالطريقة نفسها؟

للأسـف الشـديد، لم يعد الهدف الجماعي يشـغل حيِّزًا من الاهتمام في العصر الحديث، بسـبب فيزياء الكمِّ ومفهوم مجال الاحتمالية الذي يربط الأشياء جميعًا بعضها ببعض. لقد كتبنا - نحن المؤلِّفين- في هذا المجال. في شـبكة المؤلِّفين: «استكشـاف البنية التحتية للواقع». واصفين إيَّاها بمسـتوى

معقد للوجود، يربط عددًا غير محدود من الحقائق المحتملة، حيث نكون نحن في مستوى واحد من الشبكة التي نخضع لتجربتها. وفي هذا السياق، يُطلِق آخرون على المجال الجماعي الموحد اسم أكاشا، ونقطة المجال الصفرية، واللاوعي الجماعي، وملكوت السماوات، والمصدر، والقوة، والمجال الشامل. وعلى كل حال، فليس للأسماء أيُّ أهمية تُذكَر هنا.

إن الأمر المهم حقًّا هو أن ندرك جيدًا حقيقة وجود تلك الشبكة الجماعية التي تمكّننا من السيطرة على عقولنا وسلوكاتنا بصورة جماعية، تمامًا مثلما يفعل كل واحد منّا شخصيًّا. وبالطبع، يمكن استخدام ذلك في الخير أو الشر بالقدر نفسه وفقًا لرغبة الأفراد؛ فعندما تلتقي مجموعة كبيرة من الناس حول الأفكار نفسها فقد يقود هذا إلى اندلاع حرب، مثلما قد يؤدي إلى تحقيق السلم. ولا شك أن مشاهدة أخبار المساء وحدها تجعلك قادرًا على تحديد أكثر الأفكار الجماعية نفوذًا وتأثيرًا.

البرمجة العصبية اللغوية

ترتبط البرمجة العصبية اللغوية بالجانب السلبي للسيطرة على العقل واستخدام اللغة للتأثير في ردود الفعل والسلوك، بيد أن هذا لا ينفي ما لها من جانب إيجابي، وفقًا لما أفاد به كثيرون ممن زعموا أنها ساعدتهم على إعادة برمجة عاداتهم السيئة، إضافةً إلى تحقيق بعض الأهداف الأُخرى، وبالرغم مما عانته هذه البرمجة من قدح من بعض المشكّكين الذين نعتوها بالعلوم الزائفة، فإنه يوجد مَن يؤمن بجدواها، ويثق بها. تجمع البرمجة العصبية اللغوية - شأنها في ذلك شأن التنويم المغناطيسي- بين العمليات

العصبيــة وعلــم اللغة: بغية الوصــول إلى طريقة فاعلــة لإحداث تغييرات في نمـط السـلوك. وقـد اكتشـفها ريتشـارد باندلـر وجـون جرنـدر في منتصف سـبعينيات القرن الماضي. واسـتُخدِمت في البداية وسـيلةً من وسائل العلاج النفسـي والتطوير الشـخصي. كان الأول طالبًا يدرس الرياضيات. والآخر طالبًا يدرس علم اللغة. وقد صمَّما برنامجهما على خطى فن تغيير برمجة الدمـاغ الـذي يعمـل مثـل الحاسـوب. واعتمـدا البرمجـة العصبيـة اللغويـة دليلًا له.

تركِّز البرمجة العصبية اللغوية على ثلاثة مفاهيم. هي:

1. دراسة بنية التجربة الذاتية.
2. الوعي الناتج من خليط مكوَّن من الوعي واللاوعي.
3. التعلـم عـن طريـق صياغـة السـلوك. والخطـب. والأمثـال. والعظات والعبر. وفق المجال المطلوب.

بالرغـم مـن قـدرة البرمجة العصبيـة اللغويـة على معالجـة الأمراض. ومحاربـة العـادات السـيئة. والتغلـب علـى الخـوف. وتغيير السـلوك. وحتى استخدام التنويم المغناطيسي وسيلةً للعلاج. فإنه ثمَّة قدر كبير من الغموض يكتنف مفاهيمها وأسسـها الفعلية التي قرَّر المجتمع العلمي تناولها بوصفها طريقة أُخرى حديثة للمساعدة الذاتية.

ومـا يثـير الاهتمـام حقًـا أنه في الوقت نفسـه الـذي صُمِّمت فيـه طريقة البرمجـة العصبيـة اللغويـة. في منطقـة سـانتا كـروز بكاليفورنيـا. انطلقت حركـة تبشـيرية نشـطة حول معهـد إيزالين في بك سـور بكاليفورنيـا أيضًا. إلـى جانـب العلاج الطبيعي. وشـيء يُعرَف بتدريب إرهـارد الذي يعد العقل

المدبِّر للمؤسَّس ويرنر إرهارد؛ نظَّم إرهارد هذا دوراته التدريبية قبل بضع سنوات من ظهور طريقة البرمجة العصبية اللغوية، ويبدو جليًّا أن تأثيرات دوراته تلك وأهدافها تشبه تأثيرات البرمجة العصبية اللغوية وأهدافها. يساعد تدريب إرهارد الأشخاص على تحسين مستوى حياتهم ودخلهم وتطوير وعيهم، باستخدام مجموعة من الأدوات النفسية والفلسفية، ولا سيما حيوية المجموعة التي أصبح تدريب إرهارد معروفًا بها (وتحقيق وضع شبيه بحالة الطائفة).

يركِّز جانب مهم من البرمجة العصبية اللغوية على استخدام فن اللغة والإقناع لتحقيق الهدف المنشود، فضلًا عن فهم بواطن التواصل وظواهره التي لا تشمل أيَّ مستجدات، باستثناء هذه الطريقة الفاعلة التي اعتمدها باندلر وجرندر في تصميمهما، إلى جانب التركيز على تعليم الناس كيفية معرفة أفكار الآخرين، ولا سيما لغة الجسد التي تعد وسيلة جيدة في المعاملات التجارية، والظاهر أن هذا الأمر قد حظي بدراسة شاملة، بوصفه وسيلة للتواصل غير اللفظي الذي يعد مفيدًا في المؤسسات التجارية على اختلاف مشاربها (يتبادر إلى الذهن هنا تحقيق النجاح في المبيعات).

وفي ثمانينيات القرن الماضي، خضعت البرمجة العصبية اللغوية للاختبار في عدد من الدراسات العلمية الصارمة التي لم تُظهِر أيَّ مزايا حقيقية للبرمجة، بما في ذلك لجنة الدراسة البحثية التابعة للمجلس الأمريكي القومي للبحوث التي توصلت إلى أنه ثمَّة أدلة لا تكاد تذكر على فوائد البرمجة العصبية اللغوية بوصفها أداة للتأثير الاجتماعي، حتى

مع وجود التقنيات التي تساعد بعض الناس الاستثنائيين على تعلم كيفية تحقيق النجاح في عمل شيء ما. التي رأت فيها اللجنة عملًا رائعًا.

صحيح أن بعض الأشخاص في العالم ربما ادَّعوا أنهم حققوا فوائد عظيمة من دورات البرمجة العصبية اللغوية، بفضل دعم المدرِّبين المحترفين وتوجيههم في أثناء تلك الدورات. ولكن ادِّعاءات البرمجة العصبية اللغوية بقدرتها على التأثير المباشر في اللاوعي لم تثبت إلَّا باستخدام برمجة التنويم المغناطيسي والإيحاءات. وفي المقابل يؤكِّد آخرون أن البرمجة العصبية اللغوية هي مجرد ممارسات للعلاج النفسي لا طائل منها. ويبدو أن هذا التوصيف ينطبق على كثير من الأساليب التي يدَّعي الناس أنهم يستعملونها للتأثير في الآخرين وتغيير عقولهم.

وعلى كل حال، فليس هدفنا هنا البحث عن طريقة محدَّدة للمساعدة الذاتية، أو الإشارة إلى أننا كلنا - عند المستوى الكمي- مجرد حزمة من مجموعة ذرات وموجات متذبذبة. في انتظار انهيار قدرة الموجة، والحقيقة أن لدينا كتبًا أُخرى يمكنكم مطالعتها: فهدفنا ينحصر في تذكير القُرَّاء الأعزاء أنه بالرغم من وجود الممارسات السلبية الشريرة للسيطرة على العقل مع ظهور الإنسان نفسه على وجه البسيطة - حتمًا سوف ستمر الحال كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها- فإن السيطرة على العقل تظهر في أقصى حالاتها من طريقة حياة كل واحد منَّا.

لا شك أن لدينا قدرًا ما من قدرة التحكم في عقولنا. وقد لا يكون تحكمًا كاملًا، وإنما شيء ما من السيطرة عليه: فالأمر يعتمد على الأشخاص الذين نثق بهم، والهدف الذي نركِّز عليه. وقد يقود هذا الاختيار بعض

الأشخاص إلى حياة سعيدة مترعة بالوفاء، ولكن في المقابل، ربما قاد آخرين إلى أماكن جميلة مظلمة.

الفصل الثامن

اخرج من عقلي

برنامج صوت العقل، المضايقة الإلكترونية؛ أسلحة الطاقة الموجهة والأفراد المستهدفين

«صوت العقل هو أسلحة غير قاتلة تشتمل على:

1. جهاز عصبي- مغناطيسي تُستخدَم فيه الموجات الكهرومغناطيسية القصيرة لنقل الصوت إلى داخل جمجمة الأشخاص أو الحيوانات، بوساطة إشعاع يساعد على التحكم في سرعة النبضات، أو الوقت الذي تستغرقه، أو موضعها.
2. جهاز صوت صامت يمكنه نقل الصوت إلى داخل جمجمة الأشخاص أو الحيوانات.

ملحوظة: تعديل الصوت قد يكون بوساطة الصوت، أو الرسائل المموهة للصوت، ويُعرَف اختصار بـ (V2K)».

من جيش الولايات المتحدة الأمريكية، قاموس عسكري

«كالمسمار الذي يُطرَق على مهل يُطرَق الرأس مرة بعد أُخرى حتى تنهار قواك، فلا تستطيع التحمل. وهكذا أيضًا يُدمَّر عقلك، قطعةً بعد أُخرى، ويبدو الضجيج الذي يملأ أذنيك منبعثًا بسبب الاتصال بالموجات الكهرومغناطيسية القصيرة، لتعزيز الاستجابة لتلك الموجات. فتتغيَّر تركيبة هيكل عقلك بوساطة تلك الموجات. تتغيَّر ببطء لكنه تغيُّر أكيد تام. وهكذا ينجح ذكاء طبيب التنويم المغناطيسي في السيطرة التامة عليك، كما لو كنت خِرْقَة يوجِّهها حيث يشاء، فيظل يضربك إلى أن تُستنفَد طاقتك تمامًا وتخور قواك. وساعتئذٍ، مرحبًا بك في الجحيم».

«بدأت أسمع أصوتًا داخل رأسي وخارجه لم أسمع مثلها قطُّ منذ عام 1974م، تطلب إليَّ فعل أشياء شريرة، مثل: القتل، والسرقة، والكذب، والغش، وحتى الانتحار. بدأ صوت يهمس في أُذنيَّ في هذا الوقت تحديدًا، وقد كان قويًّا حادًّا على نحوٍ يدفع إلى الجنون. لكنني لم أفقد صوابي، وحتى أولئك الأصدقاء الذين لم يسمعوا ألبتة بشيء كهذا أو يروه... عشرات الأصوات تهاجمني من كل حدب وصوب في الوقت نفسه، وهو ما سبَّب لي نوبات من الصداع كانت تستمر أشهرًا أحيانًا (علمًا بأنني لم أكن أعاني أيَّ ورم في دماغي)، وتشوُّش في الرؤية، وعدم القدرة على الكلام بصورة صحيحة (كنت دائمًا متحدثًا جيدًا، وكاتبًا مولعًا طوال حياتي، ودارسًا للفلسفة الدينية وثقافات العالم ومجتمعاته...)، وأحيانًا أهيم على وجهي بسبب فقد التوازن: فقد ازدادت سرعة الموجات الكهرومغناطيسية كثيرًا في السنوات الخمس الأخيرة (بلغت الآن العقد السابع من العمر).

كنت ضحية مطاردة منظَّمة أكثر من عشرين سنة. وشأني شأن معظم الضحايا، فلم أكن أعرف السبب. يمكنني فقط أن أتخيَّل، لقد أدركت أنهم سوف يسمحون لك أن تعرف سبب المطاردة بعد دخولك المرحلة التالية من هذا البرنامج السقيم. وفيما يتعلق بشخصي. فقد بدأ الأمر بمضايقة بوساطة محادثات هاتفية، ثم أخبروني - فيما بعدُ- أنني كنت ملاحقًا. كنت في ذلك الوقت أيضًا متابعًا لمسرح الشارع، ثم لاحظت أن معاملة الأصدقاء والجيران لي أصبحت فاترة. وفي الوقت نفسه دبَّت الفوضى وسط أسرتي: لأنني حاولت إخبار الجميع عن الأمر، فحسبوا أنني مغرور (كان هذا جزءًا من تصميم البرنامج). بدايةً، كنت مرتبكًا كثيرًا حيال ما حدث لي، وهو ما أثَّر سلبًا في عاطفتي، وحالما عرفت عن المطاردة المنظَّمة في شبكة الإنترنت، سعدت كثيرًا بمعرفة اسم هذا الجنون، فبدأت أبحث عنه، وقد ساعدني هذا على الاحتفاظ برباطة الجأش. لقد أدركوا أنهم لن يستطيعوا تدميري نفسيًّا، وأعتقد أن هذا هو السبب الذي دفعهم إلى مضايقتي إلكترونيًا. في عام 2001م، جرَّبت أول إرسال إلكتروني لصوت العقل، فتعرَّضت لمختلف أنواع المضايقة التقنية غير القاتلة. فنحن المستهدفين نرغب في أن تعم الكلمة الأرجاء ليعلم الجميع أن هذا قد حدث فعلًا».

لم يكن هؤلاء وحدهم، فقد كانوا ضمن المئات بل ربما الآلاف من المطاردين الذين استُهدفوا وعُذِّبوا عن طريق التقنية الإلكترونية: إذ سُلِّطت عليهم مباشرة طاقة أسلحة إشعاعية، مثل الموجات الكهرومغناطيسية القصيرة، وتعرَّضوا لسيل من المضايقات التي تحتال عليهم بتقنية صوت العقل (V2K)، وهو ما جعلهم يسمعون - في نهاية المطاف- أشياء في رؤوسهم، والشيء المروِّع حقًّا أنه لا بد لكل ادعاء من براءة اختراع تدعمه.

لقد فتحت الأسلحة غير القاتلة الباب واسعًا لتقنيات تسمح بالسيطرة عن بُعد على عقول الآخرين وأفكارهم وأفعالهم وتصرفاتهم، عن طريق الصوت والحرارة والضوء؛ إذ يتيح الطيف الإلكتروني المغناطيسي القدرة على استعمال موجات كهرطيسية قصيرة، ذات تردُّدات عالية وتنقلات إلكترونية وموجات صوتية تستطيع اجتياز الموانع العادية. فتدخل الجسم والعقل بطريقة - مباشرة أو غير مباشرة- يجهلها الشخص المستهدف تمامًا، حتى يبدأ يعاني ما يترتب عليها من نتائج رهيبة، وهذا يحدث منذ عقود.

صوت الجمجمة

في عام 1973م، أجرى الدكتور جوزيف شارب، الأستاذ في معهد وولتر ريد للبحوث التابع للجيش تجربة ناجحة لنقل الصوت إلى الجمجمة، مستخدمًا موجات كهرطيسية اصطناعية عن طريق الحاسوب؛ للتحكم في مرسل الرادار، حيث أرسل نبضًا سُمِع داخل رأس الشخص الذي أُخضع للتجربة كأنه نقر خفيف، أشبه ما يكون بصوت عقارب الساعة. إن هذه النبضات التي تحوَّلت إلى نقرات، هي - حقيقةً- متصلة بتوقيت موجة الصوت البشري التي تظهر في نهايتها بصورة صوت يُسمَع مباشرة داخل الرأس أكثر مما يكون في سلسلة متتابعة من النقرات. وقد نُشِر بحث الدكتور جوزيف العبقري هذا -المثير في الوقت نفسه- في مجلة الطب النفسي الأمريكية، في عددها الصادر في مارس عام 1975م، وقد حظي البحث المستمر في استخدام الموجات الكهرومغناطيسية وتعديل السلوك في العام نفسه باهتمام الجهات الأكاديمية، عندما نشر الدكتور دون ر. جستيسين

مقـال الموجات الكهرومغناطيسية القصيرة والسلوك Microwaves and Behavior في العدد نفسـه من المجلة، مُرسِّخًا أساسًا متينًا لاستخدام نبض الموجات الكهرومغناطيسية الإشعاعية وسيلةً للسيطرة على الناس في وقت الحروب والمظاهرات الاحتجاجية؛ ذكر الدكتور جستيسين في مقاله أن الأصوات التي سُمِعت «لا تختلف عن تلك التي يصدرها الإنسان مستخدمًا صندوق الصوت الصناعي عن طريق الحنجرة الاصطناعية»، وأضاف بأن تلك الأصوات كانت في صورة كلمات بسيطة غير مركبة أو معقَّدة؛ لأن الكلمات المركبة تحتاج إلى مزيد من الطاقة لكي تنتقل وتقترب من مدى التعرُّض الآمن أو تتجاوزه. واصل الدكتور جستيسين بحوثه مع مجموعة من الزملاء لتطوير مستقبل ناقل للصوت لاسلكي لمصلحة وكالة مشروعات البحوث المتطورة.

وعلى كلٍّ، فلم يكن هذا شيئًا جديدًا؛ إذ تعود جذور الفكرة إلى عام 1962م، لمَّا اكتُشِف ما يُعرَف بتأثير الموجات الكهرومغناطيسية القصيرة، وقد ناقشها العالم الأمريكي الدكتور آلان هـ. فري المتخصص في مجال العلوم العصبية، الذي يعد أول مَن كتب عن هذا الموضوع في مجلة علم النفس التطبيقي، المجلد السابع عشر عام 1962م، فارتبط اسمه به، حتى أن الجميع أصبحوا يشيرون إليه بتأثير فيري. وفي عام 1968م، مُنِحت شهادات اختراع عديدة لأجهزة تستخدم أساليب مختلفة لموجات الدماغ المثيرة، والنظام العصبي مع استخدام الصوت، والموجات الكهرومغناطيسية القصيرة، ونبضات الطاقة الإلكترونية المغناطيسية. وقد اعتُمِدت براءة اختراع أُخرى في شهر يوليو من العام نفسه، عُرِفت باسم أداة إثارة النظام العصبي. وكان واضحًا جدًّا أن الأمر فقط هو مسألة وقت قبل

أن يلتفت الجيش لاستغلال هذه التقنية. وحتمًا سوف يفضي الموضوع في النهاية إلى سلسلة من التجارب ومشروعات مرتبة تُنفَّذ في العقود القليلة القادمة، لإجراء تجارب على الآثار التي تُخلِّفها الموجات الكهرومغناطيسية السمعية بوصفها واحدة من الأسلحة غير الفتاكة في الحروب والسيطرة على المظاهرات.

الأسلحة غير الفتاكة

في شهر ديسمبر من عام 2006م، رُفِعت السرية عن برامج (الآثار البيولوجية لبعض الأسلحة غير الفتاكة)؛ استجابة لطلب - حسب قانون حرية المعلومات- أكَّد أن حكومتنا وجيشنا كانا على علم بما يمكن أن تُحدِثه الموجات الكهرومغناطيسية السمعية من آثار عند استخدامها أسلحةً غير فتاكة لإحداث اضطراب في السلوك، من دون أن تعرف الضحية ماهية الشيء الذي ضربها. أو حتى الاتجاه الذي أتت منه الضربة، وقد كان هذا النوع من الأسلحة يمثِّل شيئًا ثمينًا لا يقدَّر بثمن لأولئك الذين هم في جبهات القتال والمسؤولين عن تطبيق القانون؛ لأنه يمكِّنهم من شَلِّ حركة المجرمين والأعداء المقاتلين من دون إزهاق أرواحهم. جاء في وثائق قانون حرية المعلومات: «قد يكون تأثير الموجات الكهرومغناطيسية القصيرة مفيدًا في إزعاج شخص غير مُدرِك أهمية التقنية. وربما لا يقتصر هذا الإزعاج على تدمير حاسة السمع فحسب، بل قد يشمل التدمير النفسي أيضًا عندما يسمع الإنسان فجأة أصواتًا في رأسه».

تخيَّل أنك ادَّعيت سماع أصواتٍ أو نقرٍ داخل جمجمتك، فحاولت إخبار الآخرين بهذا الأمر، لا شك أنهم سيُجمِعون كافة على أنك مريض نفسيًّا، أو أنك تناولت مخدرات: تلك إذن هي الطريقة المثلى لدفع أحد ما إلى الجنون رويدًا رويدًا، أو تعطيله نفسيًّا وجسديًّا من دون إفصاح عن السبب الحقيقي.

وبالطبع، فإن هذه الموجات تصبح سلاحًا فاعلًا حين تخدم الأهداف العسكرية، وتحفز إلى مزيد من البحث في الأنظمة التي تُعزِّز كفاءة الإنسان، حتى إن كان ذلك لبعض الوقت: فقد عكفت البحرية الأمريكية عام 2003م على البحث في نظام عُرِف اختصارًا بـ (MEDUSA)، ويعني تفريق الحشود عن طريق استخدام وسائل سمعية لا تصدر أصواتًا. وتركِّز - مرة أُخرى- على استخدام نبضات الموجات الكهرومغناطيسية المعدلة لكي تسبِّب إزعاجًا شديدًا لكل مَن يدخل منطقة معينة أو يقترب من محيط ما محمي.

المطارَدون والمضايَقون

وفقًا لرواية الأفراد المستهدفين، فإن التلاعب بالعقل والجسد يحدث يوميًّا باستخدام مختلف الأساليب التقنية المتقدمة، وحتى الأسلحة، وقد ادَّعى هؤلاء الأفراد أنهم ضحايا المضايقة الإلكترونية والطاقة الموجَّهة المباشرة، وأَعَدُّوا قائمة تحوي الأعراض الآتية التي ادَّعوا أنهم يعانونها:

- شعور بالحرقة في الجلد وداخل الجسم.
- طعنات كالإبر في الجلد والأطراف.

- نوبات شديدة من الصداع المؤلم.
- نوبات شديدة من التعب المفاجئ.
- هلوسة ناجمة عن رؤية خيالات غير موجودة في الواقع.
- التهابات مجهولة تصيب الجلد.
- تشنجات وحركات خارجة عن السيطرة.
- سماع أصوات بشرية (أو حيوانية) في العقل (في الجمجمة)، من دون وجود أيٍّ شخص.
- سماع وَقْعِ خطوات في الداخل والخارج، أو على سطح المنزل، من دون وجود أيٍّ شخص.
- سماع أصوات لا يمكن تمييزها، ولا تبدو واقعية في طبيعتها.

يدَّعي الأفراد المستهدفون أيضًا تعرُّض عصابات منظَّمة لهم بالملاحقة والمضايقة؛ بهدف إرباكهم، ونشر الذعر في صفوفهم، وقد اشتملت الأساليب التي استُخدِمت لتحقيق ذلك على ما يأتي:

- الإضاءة: تخيُّل الحياة في إضاءة دائمة، ووجود أشخاص يحملون مصابيح مضيئة على رؤوسهم، يوجِّهونها على الضحايا حيثما حَلُّوا.
- المضايقة: اقتفاء أثر الضحايا بسيارات وأشخاص راجلين، بحيث يكون الأمر أحيانًا واضحًا جدًّا، وقد أفاد بعض المستهدفين بمضايقتهم أحيانًا بوساطة الطائرات.
- التجمهر: إحاطة الناس بالضحية فجأة من الجهات جميعها، سواء أراجلة كانت أم راكبة سيارة.

- الضجيج: إثارة الجيران فجأة ضجيجًا وصخبًا مزعجًا على مدار الساعة.
- الأجسام الغريبة: ترك أجسام غريبة من مجهولين في حديقة المنزل، ومكان العمل، والحافلات؛ أو تحطيم الأغراض الشخصية للضحايا.
- انتهاك الخصوصية: السطو على أجهزة الحاسوب الخاصة بالضحايا، والاطلاع على ما تحتويه من معلومات، وغير ذلك من أشكال انتهاك الخصوصية.
- تشويه السمعة: تعرُّض الضحايا فجأة لحملة افتراءات عنيفة وتشهير، ومهاجمة عبر وسائط التواصل الاجتماعي، قد تصل أحيانًا حد الاتهام بالتحرش وارتكاب جرائم... إلخ.

أمَّا العلامات التي تدل على مضايقة العصابات المنظَّمة للضحايا،فهي:

- إحساس الضحية الدائم بوجود مَن يراقبها، ويتتبع خطواتها.
- ممارسة بعض الغرباء سلوكًا وحشيًّا تجاه الضحية.
- إقدام بعض الغرباء على إشاعة أسرار الضحية، والعمل على تداولها بين أفراد المجتمع.
- المحاولات المتكررة للعبث بممتلكات الضحايا في المسكن ومكان العمل وتخريبها.
- التوتر المفاجئ في علاقات الضحية بالأصدقاء والأحبة والزملاء.
- الحوادث المستمرة لسيارات الضحايا والتلاعب في إصلاحها.

تشبه هذه الأساليب كثيرًا الحرب النفسية التي كان يشنها النازيون والمخابرات الروسية والكثير من الجماعات المتطرفة؛ لبث الذعر في نفوس الضحايا المستهدفين وتخويفهم، لكيلا يذيعوا ما قد يكون بحوزتهم من معلومات وأسرار تُدين الجناة. وبالرغم من هذا كله، فقد يجهل كثير من الأفراد المستهدفين الأسباب التي جعلتهم هدفًا لملاحقة الآخرين لهم ومضايقتهم، ما قد يشير إلى سوء حظهم الذي قادهم لكي يكونوا كبش فداء لتجارب السيطرة على العقل وتغيير السلوك.

على صعيد آخر، استخدمت الجهات المسؤولة عن تنفيذ القانون وحفظ النظام العام أسلحة غير فتاكة لقمع المظاهرات والسيطرة على الشغب سنوات عدَّة، بما في ذلك جهاز يُصدِر صوتًا طويل المدى، اعتمادًا على الموجات الصوتية؛ وذلك بهدف وضع حدٍّ للعنف، وإرباك الضحايا المستهدفين، وتشتيت انتباههم. تخدم هذه الأدوات أهداف الجهات القانونية والعسكرية في الوقت نفسه، وبالطبع فثمَّة وظائف ماكرة واستخدامات غير عملية لهذا النوع من التقنية، وبحسب تصريح الأفراد المستهدفين الذين ظهروا إلى العلن عن طريق وسائط التواصل الاجتماعي ومنظمات ضحايا السيطرة على العقل، ومختلف الكتب التي تناولت قضيتهم، إضافة إلى الأفلام السينمائية؛ فإن كثيرين تعرَّضوا لاعتداء الجناة عن طريق تقنية الصوت، من دون معرفة السبب الذي جعلهم هدفًا لتلك المعاناة.

وفي الوقت الذي تهافت فيه أطباء الصحة النفسية على وصف الضحايا بالمرضى النفسيين أو الموهومين، يصر الضحايا على أن الأمر هو خلاف ذلك: فثمَّة مَن يرى أن استخدام تقنية الصوت يمثِّل خطرًا حقيقيًّا على

الصحة. مؤكدين امتلاكهم الوثائق والمستندات الضرورية كلها لإثبات ذلك. وتبعًا لتأكيدات بعض مَن تعرَّضوا لتلك التجربة على وجه الخصوص، تشمل بعض الآثار والأعراض ما يأتي:

- أصوات نقر شبيهة بنظام مورس[1]، وسماع أصوات حقيقية داخل الجمجمة.
- اهتزاز العضلات والطنين.
- طنين في الأذن وانسدادها.
- حساسية والتهاب في الجيوب الأنفية، وتهيجات في الحلق، وأوجاع في سائر الجسد.
- طفح جلدي وحروق.
- دوخة وارتباك ودُوَار.
- فقدان الإحساس بالجسد، أو الإحساس بعدم السيطرة على أعضاء الجسد.
- ارتفاع وتيرة أمراض المناعة الذاتية وحتى الإصابة بالسرطان.

وبوجه عام، فإن وجود بعض تلك الأعراض، أو اجتماعها معًا في شخص ما، لا يعني خضوعه لسيطرة على عقله، أو حتى تعرُّضه لتأثير سيطرة تقنية البرامج الصوتية. وقد أفاد كثير من المستهدفين الضحايا بتعرضهم للمضايقة عن طريق الاتصالات الهاتفية، والمتابعة عن قرب، والمطاردة من عصابات منظمة (سنتناول هذا الموضوع في الصفحات القليلة القادمة).

(1) نظام مورس: نظام مؤلَّف من نقط وقواطع أو شرطات. تمثِّل الأرقام وحروف الهجاء، وهو يُستخدَم في الرسائل البرقية، ويُعرَف أيضًا باسم رموز مورس. المترجم.

والمطاردة عن طريق وسائط التواصل الاجتماعي، وحدوث مشكلات في الكهرباء والحاسوب في البيوت، والتنصت على المكالمات الهاتفية بالهاتف النقال واعتراضها، وقد يبلغ الأمر حدَّ الشعور بالارتباك وجنون العظمة. ربما استطاع بعض الضحايا معرفة العلاقة التي تجعل بعض الأشخاص يقومون بهذا العمل، مثل مخبري الشركات والحكومة. بيد أن الغالبية العظمى من الأفراد المستهدفين يجهلون تمامًا أيَّ علاقة بالأشخاص الذين كانوا سببًا في مضايقتهم، ويرى خبراء نظرية المؤامرة أن استهداف بعض الأشخاص قد يكون فقط لاتخاذهم كبش فداء لاختبار هذا النوع من التقنية وتطويره.

ألعاب العقل

تبدو ألعاب العقل مثل حبكة روائية فاترة لأحد أفلام الخيال العلمي، لكنها على كل حال قد تحدث على أرض الواقع: ففي شهر يناير من عام 2007م، نشر المراسل الصحفي شارون وينبيرجر قصة عنوانها **ألعاب العقل** Mind Games في صحيفة الواشنطن بوست، أجرى فيها لقاء مع هارلان جيرارد أحد الأفراد المستهدفين الذي اعترف - حين بلغ سن السبعين- بمعاناته مع الحكومة التي أخضعته لتجربة السيطرة على العقل والمضايقة والملاحقة: ربما كان بسبب امتلاكه وثائق تحوي معلومات حسَّاسة تتعلق بالأمن القومي، تؤكِّد تطوير حكومتنا أسلحة تُحدِث أصواتًا في الرأس، ولا أحد يمكنه إنكار وجود هذه التقنية. قال جيرارد للصحفي وينبيرجر: «لكن إذا ذهبت إلى الشرطة وأخبرتهم أنك تسمع أصواتًا في رأسك، فإنهم سيحبسونك من أجل تقييم حالتك النفسية».

ادَّعى جيرارد أن معاناته بدأت عام 1983م عندما كان يشرف على شركة تطوير عقاري في لوس أنجلوس؛ إذ تعرَّض أولًا للمضايقة الناعمة وحدوث أشياء غريبة، بما في ذلك مراقبة جيرانه له، حسب ما كان يُلاحِظ ليلًا، واقتحامهم أحيانًا شقته عليه، ثم توقفت المضايقة بعد ذلك لتبدأ من جديد بعد عام واحد فقط بصورة أكثر عنفًا من ذي قبل. حدث هذا عندما بدأ يسمع أصواتًا، ويميِّز منها أصوات رجال، وحسب ما جاء في المقال الذي نُشِر في الصحيفة، فقد: «كانت أصواتًا غريبةً، جمعت بين الفظاظة واللطف، وكانت تخاطبه بالسيد جيرارد». كانت تلك الأصوات تسخر منه أيضًا، وتوحي إليه أنه يسير في طريقه إلى الجنون؛ ما حدا به إلى سؤال صديقة له كانت تعمل طبيبة نفسية عمَّا إذا كان مثل هذا الأمر ممكنًا، فأجابته أنها لا تعتقد ذلك.



صورة جهاز صوتي بعيد المدى، استُخدِم على ظهر السفينة الأمريكية بلو ريدج، في أثناء تمرين هجومي بالزوارق الحربية الصغيرة عام 2006 م. المصدر: سلاح البحرية الأمريكي.

ومـا هي سـوى مـدة وجيـزة حتـى أصبحـت الأصـوات تصـدر بانتظام، مُحدِثة فوضى في عقله، ومصحوبةً بآلام شـديدة في أعضاء جسـده جميعها (يعزوهـا جـيرارد اليوم إلى أسـلحة الطاقـة الموجَّهة التي تُصدِر إشـعاعات غير مرئية).

وبالرغـم من أن جيرارد لا يملك دليلًا دامغًا يدين أولئك الذين يتهمهم باسـتهدافه، فإنـه يملـك أدلـة كافيـة تؤكِّـد أن اسـتخدام تقنيـات الصـوت والسـيطرة على العقل كانت - وما تزال- حاضرة بقوة في أذهان المسـؤولين العسـكريين والحكوميـين، ويعتقـد أنـه يتحمل عـبء إقامة الدليـل نيابةً عن الضحايـا المسـتهدفين كافـة، الذين كان بعضهم على قـدر كبير من الذكاء، وبعضـ آخـر يشـغل وظائف مرموقـة، ويتمتع بسـمعة عالية. هكـذا حدث... يسمعون أصواتًا في رؤوسهم.

وفي السـياق نفسـه، يتحـدث رجـال ونسـاء - مثـل جـيرارد- دائمًـا عن هجمـات إلكترونيـة على أعضائهم التناسـلية. وبالمثل، فقد تحدثت سـوزان سيلر من سان دييغو عن إحساس غريب، إضافةً إلى تشنجات عضلية.

مـن جانـب آخـر، أوردت الكاتبـة الشـهيرة جلوريـا نايلـور مؤلِّفـة كتاب **نسـاء منطقـة بروسـتر** The Women of Brewster Place حكايـات كثـيرة عمَّـا حـدث في هـذا الشـأن خلال عـام 2005م، عندما نشـرت كتابًـا عنوانه 1996 الذي يعد شـبه سـيرة ذاتية تقريبًا لتجربتها الشـخصية بوصفها أحد الأفـراد المسـتهدفين، فكتبـت عـن سـماعها محادثـات في رأسـها، في أثنـاء استلقائها بغرفة نومها الهادئة الوادعة في بروكلين، وتعرُّضها لمضايقات من عصابـات منظَّمـة عندما تكـون في الشـارع. فكانت تُلاحَـق، وتُلاحِظ مرور

سيارات غريبة أمام منزلها المعزول الذي تقضي فيه عطلتها. حتى إنها أخذت تُلاحِظ حدوث أشياء مرعبة مثل وجود أشخاص يقلدُّون حركاتها على متن الطائرة. عرضت نايلور نفسها على طبيب نفسي وصف لها دواء لعلاج الأمراض النفسية، بيد أنها ظلت تسمع الأصوات في رأسها. والمثير للاهتمام حقًّا أن تلك الأصوات وغيرها من الأحداث بدأت تتوقف عندما اكتشفت مواقع إلكترونية في شبكة الإنترنت تسهم في السيطرة على العقل.

وحتى لا تحسب أن نايلور هي الوحيدة التي ادَّعت ذلك، أُؤكِّد أن أحد أشهر رواة القرن العشرين، إيفلين واج، قد كتب أيضًا عن عصابات المضايقة التي تستهدف مرتادي مسرح الشارع. في كتابه **محنة جيلبرت بنفولد** **The Ordeal of Gilbert Pinfold** الذي نشره بعد سنوات قليلة من تعرُّضه لهذا النوع من المطاردة، إثر حقنه بجرعة من عقار يسبِّب الهلوسة.

على صعيد آخر، يحاول أطباء الصحة النفسية وغيرهم من أطباء العلاج الطبيعي الذين يتردَّد عليهم أفراد يدَّعون تعرُّضهم لمضايقات بسبب استهدافهم من جهات ما؛ يحاولون جاهدين عزل هذه التجارب المريرة عن الحالات الطبيعية لأعراض اضطراب جنون العظمة، وانفصام الشخصية، وغيرهما من حالات المشكلات العقلية الطبيعية التي تسترعي الانتباه. ولكن، يجد الكثير من العاملين في هذا المجال أنفسهم مضطرين إلى تجاهل السبب الوظيفي لبعض الحالات التي تعرَّض أصحابها إلى تجارب مرعبة، ومع هذا يبقى بعضهم مثل سكوت تيمبل، أستاذ الطب النفسي في جامعة ولاية بين، يرى أن الأفراد الذين عانوا ما يُطلَق عليه اسم الهلوسة السمعية قد تعرَّضوا لأذى كبير بسبب التجارب التي أُخضعوا

لهـا، إضافـةً إلـى عدم تشـخيص حالاتهـم المرضية كمـا ينبغي، مـا دفعهم إلى نسـج أوهام مزعجة عن تلك الأحداث. أمَّا اختصاصية الطب النفسـي في جامعـة هارفـارد، سـوزان كلانسـي، فـترى أن الحكايـات التـي سـمعتها عن الضحايا تشـبه كثيرًا شـكوى الأشـخاص الذين تعرَّضوا لحالات إدمان غريبة، مثل: الآلام غير المعروفة، والشـعور بالملاحقة والمراقبة والاستهداف من أشخاص آخرين، فضلًا عن الاعتقاد أن أفكارهم أيضًا تخضع لسيطرة عناصر مزروعة.

تجدر الإشـارة إلى أن فكرة زراعة مواد في أجسـاد الأشـخاص الضحايا للسيطرة على عقولهم، لم تكن مجرد مشاهد نراها في أفلام التجسس وقصص الخيال العلمي؛ ففي مقال حمل عنوان لعبة المطاردة A Game of Tag، ونُشِر في مجلـة فورتـين تايمز، في عددها الصـادر في مايو عام 2011م، تعرَّض فيه الصحفي ديفيد هامبلنج لموضوع المواد التي تُزرَع في أجساد الأفراد المستهدفين والمضايقات التي عانوها باستخدام التقنية الإلكترونية؛ فأجرى لقاء مع رجل يُدعى جيمس والبيرت، كان قد اشتكى من زراعة أداة إلكترونية في كتفه تعمل على رصد كل خطوة يخطوها، وتُحدِّد كل مسـار يسـلكه، وتُسبِّب له تقلصات عصبية شـديدة. كان والبيرت يؤمن أن تلك الأداة قد زُرِعت في جسـده لكي تساعد الجناة على تتبع حركته والسيطرة عليه من بعيد، علمًا بأن والبيرت هذا من ويشـيتا في ولاية كنسـاس، وليس له أيُّ صلة بمنظمات حكومية، أو عسكرية، أو مافيا مخدرات، أو غير ذلك. وقد اضطر في نهاية المطاف إلى زيارة أحد الأطباء المحليين للعلاج من أمراض نفسية، ثم عرض نفسه على الدكتور ويليام ج. تيلور، خبير المراقبة التقنية، فعمل له مسحًا بأشعة متطورة تتعرَّف الأجهزة والأدوات، فعثر على شريط ذي تردُّدات عالية مزروع في كتفه

اليمنى، يبلغ عرض نطاقه التردُّدي (228) ميجاهيرتز، ويُستخدَم في أجهزة التلفاز والراديو التجارية وغيرها من أجهزة الإرسال الأُخرى، ويُستخدَم أيضًا في الولايات المتحدة الأمريكية لأغراض عسكرية. أظهرت أشعة التصوير المقطعية الجسم المزروع، ثم عُرِضت صور الأشعة على الدكتور جون هول: الأستاذ في معهد العمود الفقري والمفاصل بولاية تكساس، فأكَّد أن الأشعة أظهرت «جسمًا غريبًا شبيهًا بالكبسولة، مزروعًا في العضلة شبه المنحرفة اليمنى»، وقد ذكر أنه رأى مرضى كثيرين من الأشخاص المستهدفين يعانون من الأمر نفسه.

ملاحقة المستهدفين

ادَّعى بعض الأشخاص المستهدفين أنهم ضحايا لأشكال أُخرى غير مألوفة من تقنية الملاحقة والمضايقة، مثل نظام الرش بالمياه الذكية الذي تُنفِّذه شركة المياه الذكية الأمنية. ووفقًا لموقع الشركة المنتجة، فإن مُنتَجها هذا الذي يحمل رمزًا فريدًا من رموز الطب الشرعي صالح لرش الإنسان، وبالرغم من أن هذا المُنتَج يُستخدَم في إبقاء المجرم في مكان الجريمة، فإن قدرته على رش الإنسان بصبغة يمكن رؤيتها تحت الأضواء فوق البنفسجية، تجعله عُرضة لاستغلاله، وإساءة استخدامه لأغراض أُخرى من أيِّ وكالة تريد وضع علامة ثابتة على شخص ما أو شيء ما.

فمتابعة أيِّ شخص، ولا سيما إذا كان مدركًا لهذا الأمر، هي شكل من أشكال التلاعب بالعقل؛ لإخافة الضحية، وجعلها تشعر بجنون العظمة والضعف، تجدر الإشارة إلى أن برامج السيطرة على العقل لا تُستعمَل فقط

لغسيل المخ، وإنما لنشر الذعر في نفس الضحية: ما يضطرها إلى تغيير سلوكها بملء إرادتها، سعيًا لتفادي مصدر الخوف، أو قُلِ الجنون.

وبوجه عام، عندما يستمع مستهدفو تقنية الصوت لتلك الأصوات، يعتقدون أنها أفكارهم الخاصة، وربما حسبوا أنهم مصابين بانفصام الشخصية، بل إن بعضهم قد يشك في سلامة عقله، في حين يدرك المستهدفون الحقيقيون الفرق بين هذا وذاك؛ إذ يعتقد بعضهم أنهم نُوِّموا عن طريق الأصوات، أو ربما زُرِعت أوامر لا شعورية في جماجمهم. ويعود هذا النوع من البرمجة إلى عصر الحرب الباردة، ويُصنَّف ضمن مشروعات (MKUltra) التي سبق الحديث عنها، وقد تكون تقنية الصوت هذه أكثر تطورًا. بيد أن الأهداف تبقى دائمًا كما كانت في السابق: إعادة برمجة شخص ما، والسيطرة عليه، ثم السيطرة على أفعاله وأفكاره وسلوكه. وقد وصف أحد الضحايا الذي يُدعى إلينور وايت الحالة بالسيطرة الإلكترونية على العقل، وهي ممارسة خفية للمضايقة تشمل هجمات إلكترونية على العقل والجسد، وتقنية الصوت، وغير ذلك، وكلها وسائل مضايقة إلكترونية تنتهك حريات الأفراد الضحايا المدنية وحياتهم الخاصة، وتسيطر على أفكارهم.

الوسائل كلها التي تُستعمَل للتلاعب بالإنسان بوساطة التقنية الإلكترونية: بغية التأثير في عقله وفكره وحالته النفسية وسلوكه، بصورة غير شعورية ومرئية وسمعية، أو بتوجيه الطاقة مباشرة إلى المخ؛ توصف بالتقنية النفسية الإلكترونية، ولهذا يجب أَخْذ الأمر على محمل الجدّ عند ظهور الأعراض، ولا سيما بعدما بدأت البحوث والدراسات التي أُجريت باسم حكومتنا وحكومة الشعوب الأُخرى تظهر إلى العلن.

تأمَّل - مثلًا - حكومة الاتحاد السوفييتي التي جرَّبت طريقة الحث بالتنويم بوساطة الموجات اللاسلكية التي دُوِّنت لدى اللجنة الحكومية الخاصة بالاختراعات والاكتشافات باسم راديوسون أو راديوسليب. تخيَّل القدرة على إرسال شخص ما إلى أرض الأحلام باستخدام موجات لاسلكية أو نبض الأشعة الكهرومغناطيسية، من دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن مصدرها. واللافت في الأمر أن العديد من براءات الاختراع والاختراعات قد وُثِّقت في مختلف المواقع الإلكترونية المتخصصة؛ لتسليط الضوء على هذا الجانب المظلم من البحوث غير الإنسانية والتأثير في العقل، علمًا بأنه يستفاد منها في خدمة الأغراض العسكرية، أو أهداف الجهات المسؤولة عن تطبيق القانون نيابةً عن الحكومات، والمنظمات العسكرية، وحتى الشركات الخاصة المهتمة بالمضي قُدمًا لتتبوأ مركز الصدارة والمنافسة.

قد نغضُّ الطرف قليلًا عن روسيا؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت تنشط الآن في متابعة هذه الأنواع من الأسلحة، لتكون في مقدمة الركب. ولكن تَحْضُرُنا في شهر إبريل من عام 2012م قصص إخبارية عديدة حسبها الناس بدايةً أنها كذبة إبريل، وتبيَّن فيما بعدُ أنها صحيحة، وهي تفيد أن روسيا تعكف الآن على تطوير أسلحة إشعاعية كهرومغناطيسية تهاجم الجهاز العصبي المركزي، فتُدخِل الإنسان في غيبوبة، وقد أكَّدت المقالات التي نُشِرت في مصادر مختلفة، بما فيها مجلة هيرالد سن، أن تلك الأسلحة تستخدم إشعاعًا كهرومغناطيسيًّا شبيهًا بالإشعاع الذي يُستخدَم في الفرن الذي يعمل بالأشعة الكهرومغناطيسية (الميكروويف) التي طُوِّرت للاستخدام مستقبلًا ضد أعداء الأمة، وحتى المنشقين داخلها؛ أملًا أن تكون عملية وجاهزة للاستخدام الميداني في مطلع عام 2020م.

ففي كتاب الغلوغوثا النفسية الإلكترونية، يقول ن. أ. أنيسيموف، الكاتب الروسي خبير عمليات التحكم في العقل عن طريق الوسائل النفسية الإلكترونية الروسية: «ما إن بزغ فجر التقدم العلمي- التقني حتى أخذ روّاد الطغاة ورؤساء الحكومات الشمولية يحلمون في جعل أكثر العلوم القديمة غموضًا، واستعداد البشر النفسي أسلحة تقنية؛ لحمل السكان على الطاعة والولاء والتنفيذ المطلق لرغبات الحاكم المستبد وأعوانه والتسليم بها، بلغ الأمر بهؤلاء الروّاد حدَّ تثمين الأفكار الجهنمية الوحشية وتقديرها بعد تصنيع الأسلحة المتقدمة واستخدامها لاستعباد الحكومات، والسيطرة على العالم، ومع تصنيع تلك الأنواع من الأسلحة، أصبحت القوات العسكرية تتلقى الأسلحة المثالية للاستعباد والدمار الشامل. وتعد الخدمات السرية خير شاهد على حالة الغيبوبة التي تساعد على نقل المعلومات من دون توافر أجهزة لاسلكية وبنادق محمولة، وحتى نهاية القرن الماضي لم يكن تحقيق هذه الأحلام على أرض الواقع ممكنًا، مع التسليم بضعف التقدم التقني، بيد أنه مع بداية القرن الحادي والعشرين، وإحراز تقدم علمي وتقني هائلين، بدأت تباشير هذه الأحلام تتحقق على أرض الواقع، في حقيقة ماثلة للعيان».

ويرى أنيسيموف في هذه (الأسلحة الإنسانية) لعنة القرن العشرين التي تسير- بلا شك- قُدمًا في طريق الازدهار في القرن الحادي والعشرين، في ظل ما يشهده من تقدم تقني، مؤكّدًا أن منظومة الأسلحة الخفية يمكنها أن:

- تقتل من مسافة بعيدة، وتتسبَّب في حدوث أمراض مزمنة.
- تجعل من أيٍّ شخص ما مجرمًا، أو غير مسؤول.

- تـؤدي إلى حـوادث الطـيران وقطارات السـكك الحديديـة، أو حوادث السيارات خلال ثوانٍ معدودة.
- تدمِّر مرافق البنية التحتية.
- تضر بالبيئة، وتؤثِّر في المناخ، وقد تتسبَّب في حدوث كوارث.
- تتحكم في أكثر الآلات تعقيدًا.
- تتحكم في سلوك الإنسان وغيره من الكائنات الحية.
- تغيِّر نظرة السكان تجاه العالم.

وتبقـى الحقيقـة المرعبة أن هذه التقنيات موجودة اليوم، وأنها تسـتطيع التأثير في شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص في الوقت نفسه من مسافة بعيدة، من دون سابق إنذار أو معرفة الضحية بما قد يحدث له. وفي ظل غياب الشفافية ووجود هذا النزر اليسير من القدرة على السيطرة، فلا أحد يمكنه القـول إن هذه الاختراعات والأجهزة لن تُسـتخدَم ضد المدنيين خارج نطاق تطبيق القانون في الحالات الطارئة أو ضرورات الحرب؛ إذ لا يوجد إشراف حكومي على تلك التقنيات، ويصبح الموضوع كله في دائرة المؤامرة. وإلَّا، فما المؤامرة إذا لم تكن محاولة للتآمر وعمل شيء ما في الخفاء؟

الأسلحة الموجَّهة بالطاقة

يوصـف هـذا النوع من الملاحقـة عن طريـق الجمجمة أيضًـا بالمضايقة باستخدام الأسلحة الموجَّهة بالطاقة، ويشمل مختلف أنواع الأسلحة الموجَّهة بالطاقة، سواء كانت ضوءًا، أو صوتًا، أو حرارةً، أو طاقةً كهربائيةً، أو طاقةً حركيةً موجَّهة نحو هدف أو شخص معين. علمًا بأن هذا النوع من الأجهزة (الأسـلحة) ليس جديدًا؛ إذ يقال إن جهاز ليدا (LIDA)الروسـي الذي يطلق

نبضات كهرومغناطيسية لاستنفاد قوى الفرد المستهدف أو حرمانه النوم، كان معروفًا قبل ثمانينيات القرن الماضي. وكانت قناة (CNN) الإخبارية قد أَعَدَّت تقريرًا خاصًّا عام 1985م عن بحثٍ للدكتور روس آدي الذي عمل دراسة عن هذا الجهاز، وتوصل إلى أنه لا يُصدِر نبضات صوتية فحسب، بل نبضات ضوئية وإشعاعًا حراريًّا شرط أن يكون الهدف قريبًا جدًّا من الجهاز. وبالمثل فقد درس آدي وزميله الدكتور إيلدون بايرد هذا الجهاز لمعرفة مدى إمكانية استخدامه سلاحًا. ويؤكّد ضحايا كُثر أن هذا النوع من الأجهزة كان سببًا في ظهور أكثر الأعراض سوءًا، إضافةً إلى ما سبَّبه لهم من إرهاق.

وفيما يأتي أهم الأعراض الناجمة عن استخدام الأسلحة الموجَّهة بالطاقة التي تُستخدَم لأغراض هجومية:

- الاستيقاظ من النوم فجأة ليلًا في الوقت نفسه يوميًّا، وتخيُّل أنه بتأثير قوة خارجية.
- لسعات ساخنة، أو إحساس بوخز كوخز الإبر يسري ألمه عميقًا داخل الجسد، ولا سيما في أثناء محاولة النوم.
- اهتزاز العضلات وأعضاء الجسم، أو الأشياء الجامدة القريبة.
- سرعة وتيرة نبضات القلب وطنين الأذنين.
- ارتفاع شديد في درجة حرارة الجسم، حتى مع برودة الجو المحيط، وعدم الإصابة بالحمى.
- الإرهاق المفاجئ الشديد.
- الارتباك في المنزل ومكان العمل.

- التجسس على المكالمات الهاتفية في المنزل وتسجيلها خلسة.
- السير بسرعة منتظمة في الشوارع، ووقوف السيارات في الأماكن غير المخصصة لها.

صحيح أن مَن ينكر آثار تلك التجارب يكون مصابًا بجنون العظمة، أمَّا أولئك الذين يحاولون جاهدين وضع الأمور في نصابها الصحيح، فيبدو لهم جليًا أنهم مستهدفون لسبب ما، وأنهم يلاحقون بصورة منهجية تشمل طائفة متنوعة من الوسائل الماكرة المُجهِدة؛ فقد أفاد أحد المستهدفين بوجود أبواب منزله محطمة من دون أن يفقد شيئًا منها، في حين لاحظ آخرون وجود أبواب منازلهم ومستودعاتهم مفتوحة على مصارعها من دون سرقة أو تحطيم؛ فكأنما أراد الجناة تخويف ضحاياهم، وبث الذعر في أنفسهم من دون إلحاق الأذى بهم.

فرقعة، فنقر، فغمغمة، فكلام

في شهر يونيو من عام 1988م، تقدَّم وين ب. برونكان لنيل براءة الاختراع الأمريكية رقم (4877027)، فحصل عليها في شهر أكتوبر من عام 1989م، ونصّها:

«براءة اختراع في نقل الصوت إلى الجمجمة بوساطة تقنية الموجات الكهرومغناطيسية القصيرة. ملخص:

يُرسَل الصوت إلى رأس الشخص المعني بوساطة موجات كهرطيسية قصيرة يتراوح تردُّدها بين (100 - 10000) ميجاهيرتز، وتُعدَّل بموجات معينة تتألف من رشفات معدَّلة بالتردُّدات، وتتألف كل رشفة من (10) نبضات إلى (20) نبضة، تفصل بينها مسافات ثابتة، وتُجمَع بإحكام. يتراوح عرض الرشفة بين (500) نانو ثانية و(100) مايكرو ثانية. أمَّا عرض النبضة فيتراوح بين (10) نانو ثانية و(1) ماكرو ثانية، وتُعدَّل الرشفات باستمرار بوساطة التردُّد والمدخلات السمعية لكي يتمكَّن الشخص من السماع بعد تعرُّض رأسه لموجات من الإشعاع».

تعد براءة الاختراع هذه واحدة من براءات اختراع عديدة لهذا النوع من التقنية، وهي تحوي تفاصيل دقيقة عن الرسوم البيانية، وكيفية عمل الجهاز، ولا سيما السماح بإرسال إشارات نبضية ذات تردُّدات ناقلة لموجات اللاسلكي، بما يعادل (1000) ميجاهيرتز تقريبًا، لتوليد إشارات ذكية فاعلة - حسب ما أكَّد المخترع- داخل رأس الشخص المعني، عندما تُوجَّه الطاقة الكهرومغناطيسية خلال الهواء نحو رأسه.

يقول برونكان إن الرشفات أو النبضات تسبِّب زيادة في تراكم الموجات فوق الصوتية داخل رأس الضحية؛ إذ تبدأ منخفضة ثم تزداد تدريجيًا مع الرشفات والنبضات النهائية للمجموعة، ويعتقد أن تراكم النبضات يؤدي إلى إفراز مباشر لخلايا عصبية عشوائية في الدماغ، فيتوهم الإنسان أنه يسمع أصواتًا.

لم يُجرِّب برونكان براءة اختراعه عمليًا، خلافًا للدكتور آلان فري والدكتور جوزيف س. شارب ومارك جروف الذي أجرى في معهد والتر ريد

التابع للجيش عام 1974م أول تجربة سرية ناجحة للتقنية التي تُصدِر صوتًا يؤثّر في الجمجمة. وتوصل إلى أن بعض الأشخاص المستهدفين قد يسمعون نبضات الموجات الكهرومغناطيسية المفردة في صورة نقرات، وسلسلة من النبضات المنتظمة في صورة أزيز، من دون أيّ جهاز استقبال. فيما يُعرَف بسماع الموجات الكهرومغناطيسية. ويمكن الحصول على الكلمات والخطب الذكية الفعلية عن طريق اكتشاف التردُّدات الصحيحة الناقلة والخصائص المطلوبة للنبضات.

تستخدم الأسلحة الموجَّهة بالطاقة الإشعاعية الضوء والموجات اللاسلكية ذخيرةً، وقد ظل الجيش الأمريكي يستكشف هذه الأسلحة التي تعمل بالطاقة النبضية عقودًا عدَّةً. ووفقًا لمقال «مع الوعود كلها، ما تزال أسلحة الطاقة التي تستهدف الدماغ غائبة عن مسرح العمليات» الذي نُشِر في شهر يوليو عام 2005م. فإن هذه النبضات التي يبدو خط سيرها أشبه برحلة النجوم. يمكنها أن تمدّ معارك المستقبل بقوة نارية دقيقة سريعة غزيرة مستمرة لا تنفد، في حال اعتماد هذه التقنية في الدعم والمساندة. وقد صرَّح جيمس جي كارافانو، أحد زملاء مؤسسة التراث المرموقين، المفكّر المحافظ، قائلًا: «لا شك أنها تقنية عظيمة تُوفّر إمكانات هائلة، بيد أنني أرى أن البيئة ليست بالقوة الكافية التي تمكّنها من استيعابها». ويرى كارافانو أن ما أُنفِق من مال وخُصِّص من وقت لتجويد هذه التقنية لم يكن كافيًا لتحقيق الغاية المنشودة بالقدر المطلوب. ولهذا ينبّه لضرورة وضع الأمر على سلَّم الأولويات؛ لأن الهدف -إذا كان إنسانًا، أو أيَّ شيء آخر- لا يمكنه الإفلات من الأشعة التي تستهدفه؛ لأنها تسير بسرعة الضوء،

وقد تخترق الجدران عند تردُّدات معينة. وأخيرًا، أصبح الحلم العسكري بامتلاك قوة مقاتلة تتميَّز بالدقة المتناهية حقيقة ماثلة للعيان.

توجد اليوم بعض أسلحة الطاقة الموجَّهة، مثل أسلحة الليزر التي تصيب الضحية بالعمى المؤقت، والتي استخدمت في حرب العراق. ويمكن لنظام (الرفض النشط) الذي طوَّرته القوات الجوية، ونفَّذته شركة ريثون إنتاج دفقات من الطاقة لا يتجاوز طول موجاتها بضع مليمترات، قادرة على اختراق جلد الإنسان بمعدل (64/1) بوصة، وهذا يكفي لتهييج جزيئات الماء التي توجد في طبقة الجلد، وانبعاث الحرارة، ما يفضي إلى إحساس مزعج يصرف الإنسان عن عمل أيٍّ شيء بصرف النظر عن أهميته.

ربما تصبح الأسلحة غير الفتاكة الموجَّهة بالطاقة محور الخطط الإستراتيجية المتبعة على أرض المعارك مستقبلًا. بيد أنها تظل في نظر كثير من المستهدفين هي الأنظمة نفسها والتقنية نفسها التي استُخدمت للسيطرة عليهم، والتلاعب بهم، وتخويفهم، ومضايقة المواطنين وملاحقتهم خارج أرض المعركة.

حكاية خسيوس ميندوزا مالدونادو

وصلتنا من تكساس واحدة من أغرب القصص التي تقشعر لها الأبدان، لأحد الأفراد المستهدفين: إذ وثَّق رجل يُدعى خسيوس ميندوزا مالدونادو ما تعرَّض له من مطاردة ومضايقة إلكترونية، وهجمات بالموجات الكهرومغناطيسية من رجال العصابات، وغير ذلك من أشكال المضايقة؛ انتقامًا منه بعد تكليفه بالعمل مخبرًا سريًّا. حكى مالدونادو قصته في كتاباته الخاصة، ووثائق المحكمة القانونية، وسلسلة من أفلام

الفيديو واليوتيوب، ولا سيما بعد اعتلال صحته منذ سنوات نتيجة القصف بالموجات الكهرومغناطيسية القصيرة. وكان مالدونادو قد اتصل بجهات رفيعة في الحكومة، بما فيها وكالة المخابرات المركزية، محاولًا وقف عمليات المضايقة، وواصفًا ما تعرَّض له هو وأسرته من فظائع مستمرة، ثم صعَّد قضيته حتى وصلت المحكمة الأمريكية العليا، فألغتها.

يمكن إجمال أهم ما اشتمل عليه سجل الشكوى الذي قُدِّم للمحكمة الاتحادية، نيابةً عن مالدونادو، فيما يأتي؛ حيث إنه في مرات عدَّة ذات صلة بهذه القضية:

1. اتضح للمحكمة الاتحادية أن قوة الإشعاع أثَّرت في صحة المدعي، فسعى للحصول على خدمات تأهيل.
2. ثبت زيادة شدَّة الاعتداء الإلكتروني، عندما أوضح المدعي للآخرين الدافع العنصري لاستخدام الأجهزة الإلكترونية في شن العدوان.
3. ثبت أن ابن المدعي الذي عمره ثلاث سنوات، وابنته التي في سن الرابعة، عانيا ألمًا مصحوبًا بتشنجات، عندما أظهر الجهاز ارتفاع مستوى الإشعاع داخل منزل المدعي.
4. أظهر مقياس الموجات الكهرومغناطيسية وجود كمٍّ هائل من الإشعاع في رأس ابن الضحية الذي لم يتجاوز ربيعه الثالث.
5. ثبت انهيار ابن المدعي الذي عمره ثلاث سنوات، صارخًا يتلوى من الألم، عندما أظهر المقياس وجود كمٍّ هائل من الإشعاعات في رأسه.
6. عرض المدعي شريط فيديو يظهر حدوث اعتداءات بالوسائل الإلكترونية.
7. أظهر مقياس الموجات الكهرومغناطيسية وجود إشعاعات كثيرة في فراش المدعي وفراش أطفاله.

8. اشتكى أطفال المدعي من آلام إثر وجود كمٍّ كبير من الإشعاع داخل المنزل.
9. عانى أطفال المدعي تشنجات في أثناء النوم.

للاستزادة، يمكن الاطلاع على وثائق مالدونادو في مدوَّنته الخاصة: (http://jesusmendozza.blogspot.com).

وفي معرض حديثه عن معركته مع المحاكم للاعتراف بمعاناته من المدَّعى عليهم في القضية، الذين سلَّطوا عليه وعلى أفراد عائلته عصابات المطاردة والمضايقة بالموجات الكهرومغناطيسية، يقول: «تعرَّضت لإشعاع مركَّز أول مرة عام 1997م؛ انتقامًا مني بسبب إدانتي مشروعًا مزيفًا يتعلق بثاني أكبر كلية قانون في البلاد، فيما عُرِف بقانون مدرسة توماس م. كولي لدراسة القانون في لانسنغ بولاية متشغان؛ كنت آنئذٍ طالبًا في السنة الثانية بكلية القانون». وجد مالدونادو نفسه -فجأة- في قسم الطوارئ؛ بسبب تورم في القلب وصعوبات في التنفس، وقد أفاد أنه عانى هذه الأعراض قبل بضعة أيام من تقديمه الدليل لعميد كلية القانون التي كانت ضالعة في جريمة التمييز العنصري، والاحتيال على الأموال الاتحادية، ومنح منتسبي الوكالات الحكومية درجات علمية في القانون من دون استحقاق.

ادَّعى مالدونادو أن ما تعرَّض له من مضايقة عندما كان اسمه مدرجًا ضمن قائمة عميد الكلية؛ اضطره إلى مغادرتها قبل إكمال الفصل الدراسي الأخير، ليعود إلى ميسون في ولاية تكساس، كان آنئذٍ في وضع جيد أخلاقيًّا وأكاديميًّا، فسعى لطلب المساعدة من المحاكم الاتحادية. وبالرغم من فشل هذه المحاكم في وضع حدٍّ للاعتداءات الإلكترونية عليه وعلى أفراد أسرته، فإن الدعاوى القضائية قد أقرَّت بشرعية تظلُّمه.

في مطلع عام 2003م، رفع مالدونادو قضية على المدعي العام الأمريكي جون أشكروفت لوضع نهاية للاعتداءات الإلكترونية، مُدَّعيًا تأثيرها في صحة أطفاله، ومُثبِتًا بالدليل صحة مزاعمه عن طريق أجهزة الكشف عن الإشعاعات التي كانت تُظهِر شدَّة الإشعاعات داخل منزله في ميسون بولاية تكساس. وفي شهر فبراير من عام 2007م، رفع مالدونادو قضيته إلى المحكمة الأمريكية العليا إثر مرض أطفاله الثلاثة الذين عانوا مضاعفات المرض واستفحاله لدرجة يرثى لها، وقد تمثَّل ذلك في ظهور علامات لحالات شاذة في القلب، والشرود الذهني، وتورم في الوجه، وصعوبات في النطق، وظهور ورم في قدم أحدهم. وحتى اليوم، لم يحصل مالدونادو على أيِّ حكم عادل بسبب تعرُّضه لهذا النوع من الاستهداف، ولم يعد يكتب شيئًا في مدونته منذ عام 2008م.

ومع أن الكثير من الأفراد المستهدفين يسعون إلى طلب مساعدة الأطباء النفسيين، لإخبارهم فقط أنهم يسمعون أشياء، فإن استخدام هذه التقنية فيما مضى، إضافةً إلى براءات الاختراع الحالية والاستخدامات في المجالات العسكرية ومجال تنفيذ القانون، تجعل من السهل تصديق مزاعم هؤلاء الأشخاص بسماع أصوات (أصوات حقيقية) داخل رؤوسهم.

توفير الحماية

هل توجد طريقة لوقف هذا النوع من الاجتياح الغادر للعقل؟ لقد أصبح مصطلح **توفير الحماية protecting oneself** اليوم متداولًا في كثير من منتديات الأفراد المستهدفين، بوصفه وسيلة لحماية النفس من المضايقة بالموجات الكهرومغناطيسية، والتقنية الإلكترونية، والتقنية الصوتية.

يمكن إجمال أهم تقنيات توفير الحماية في الآتي:

- ارتداء ملابس جلدية للحدّ من هجمات الموجات الكهرومغناطيسية.
- ارتداء قفافيز مطاطية، وأحذية. وخوذ، وأحذية خاصة لمعادلة التأثيرات الكهربائية.
- تكرار العبارات الإيجابية في أثناء شن الهجمات لتحقيق التوازن بين جنون العظمة والخوف.
- تجنب التعامل مع الأطباء النفسيين وغيرهم من ممارسي الرعاية الصحية، ما لم يكن مشهودًا لهم بالانفتاح تجاه الأفراد المستهدفين.
- الانهماك في العمل والاهتمام بالرياضة للمحافظة على الصحة، والحدّ من أثر الهجمات في الجسد.
- وجوب تشغيل الموسيقى بصوت عالٍ في أثناء هجمات الصوت الإلكترونية، وكذا الخروج والوقوف في أماكن تضج بالصخب لتحقيق التعادل بين الأصوات والنبضات.
- استخدام الوسائل العلاجية والملابس الخاصة لمعادلة الطاقة الكهرومغناطيسية.
- عدم الذهاب إلى الأماكن التي تنشط فيها عصابات المطاردة، أو شهدت تنظيم مسارح الشارع من قبلُ.
- وضع سدادة في كل أُذن لمنع وصول الأصوات المبرمجة إليها.

والحقيقة أنه توجد اليوم شركات عدّة مستعدة لبيعك طقم رأس أو قبعة مصنوعة من القصدير (أجل، إنها تخدم غرضًا حقيقيًّا، أليس كذلك!). وفي المقابل، فثمّة مواقع عدّة ومنتديات للأفراد المستهدفين مع الضحايا

مستعدة لعرض التجارب، وتقديم الدعم لكل مَن تعرَّض للأذى من هذه القوى الشريرة الناقمة.

وللحقيقة، فليس كل مَن يحسب نفسه مستهدفًا هو فعلًا كذلك؛ صحيح أن كثيرين يدركون جيدًا الأسباب التي قد تجعلهم هدفًا مشروعًا، فربما يخترع بعضهم شيئًا يزعج الشركات العالمية أو صناعة النفط، وربما تجسس آخرون على آخرين، وربما كان بعض آخر على علاقة بأفراد في الجيش أو مسؤولين ذوي مراتب عليا في الدولة. وفي المقابل، يبدو عدد كبير من الضحايا المستهدفين أفرادًا عاديين. لا يظهر عليهم أيُّ شيء يُحرِّض على استهدافهم، ولهذا يبدو الأمر مخيفًا حقًّا؛ فإذا كانت حتى هذه النسبة القليلة من الضحايا قد استُهدِفت بهذه التقنية الجديدة، فالأمر يعني أن أيًّا منَّا هو عُرضة لهذا في أيِّ وقت، مع أننا لم نفعل شيئًا لنستحق هذا كله أكثر من التنفس.

تقول إلانا فريلاند مؤلِّفة كتاب كيماتريلس هارب، والطيف الكامل الذي يسيطر على كوكب الأرض: «لقد كتبت في هذا العصر الكهرومغناطيسي الغامض (استغلال الأسلحة الموجَّهة بالطاقة للهيمنة السياسية) عن تاريخ هذه التقنية الممتد والاهتمامات الحالية، واستخدامها سرًّا ضدنا، في منحًى ليس له أيُّ علاقة بالحرب على الإرهاب من قريب أو بعيد.. أقول: إن الأمر لا يتطلب شهادات علمية لكي يدرك الإنسان أن التقنية اليوم لم تكن فقط موجَّهة لمحاربة الإرهاب؛ فالتعذيب عن بُعْد، والمساءلة، وإثارة الذاكرة، وتحليل موجات الدماغ (المحادثات القسرية)، كلها تمثِّل نواة لإنشاء مراكز اعتقال إلكترونية في منازلنا وأماكن عملنا؛ فهي تدور

حول اغتصاب العقول، ومسخ أفكارنا من رأسنا: إذ يمكن ترسيخ مثل هذه الأسلحة في عقولنا عن طريق اعتماد سياسة الصمت والغموض. فربما نصبح كلنا حقول تجارب».

«تعد المطاردة والاستهداف مجرد لعبة من ألعاب العقل، مثل لعبة الشطرنج أو مطاردة الجنون، بحسب وصف أحد الأفراد المستهدفين: فهدف الجناة الرئيس هو الاستيلاء على عقلك: إنهم يريدون أن يؤكّدوا لكم أنهم بالمرصاد، ليستأثروا باهتمامكم كله، وخلاصة القول: يريدون لك أن تصاب بجنون العظمة، وتكون مسكونًا بالضلال والأوهام. ولهذا ينبغي عليك أن تتعلم كيفية عمل سدٍّ منيع يحول دون تأثيرهم في وعيك، واحذر كل الحذر أن تُظهر لهم أيَّ نوع من الرضا والقبول لما يفعلون».

مقتبس من (الأفراد المستهدفين 101)، دليل الناجين

الفصل التاسع

ثمَّة مَن يراقبك: الولايات المتحدة للمراقبة

«إننا نسير بسرعة في عالم أصبحت فيه آلة التجسس مثبتة داخل كل ما يقابلنا».

هاورد رينجولد

«لن يرتاح ضميري إذا سمحت لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية بتدمير الخصوصية وحرية شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت) والحريات الأساسية للشعوب حول العالم، بآلة التجسس الضخمة هذه التي صنعوها بسرية تامة».

إدوارد سنودين

لسنا وحدنا

بالطبع، لا نعزو ذلك إلى غرباء أو أجسام غريبة، وإنما نعزوه إلى الأعين والآذان التي تتعقبنا حيثما ذهبنا. وهي أعين وآذان تعود إلى بني الإنسان، وتتناغم مع أفعالنا يوميًا طوال الأسبوع بطريقة ما.

فمع اقتحامنا عالم التقنية الجديد الجريء، أصبحت الخصوصية والمجهول شيئًا من الماضي، بعدما أُتيحت الفرصة للجميع؛ إذ يستطيع أيُّ شخص الآن بضغطة زر فقط أن يطَّلع على ما نقوم به من أعمال وأفعال، ويشاهد الأشخاص الذين نجلس معهم، ويحدِّد أماكن وجودنا، من دون أن يترك خلفه أيَّ دليل على ذلك. إنهم يفعلون ذلك ليروا مدى فائدتنا، أو ليُقرِّروا إذا كان بمقدورنا شراء ما يودون بيعه لنا، أو لمجرد حب الاستطلاع والاستمتاع باختلاس النظر؛ فنحن لم نعد نتحكم في حياتنا الشخصية التي أصبحت اليوم متاحة لكل مَن يريد اختطافها بفضل هذه التقنية الحديثة.

لقد ولَّت تلك الأيام التي كان التجسس فيها يعتمد على تسجيل المكالمات الهاتفية، وتثبيت أدوات التسجيل البدائية تحت الطاولة في منازل مَن يخضعون للاستجواب. أجل، لقد ولَّت إلى غير رجعة أيام سرقة البريد، والمراقبة من داخل سيارة تجوب الطرقات، فتقف هنا أو هناك. لقد ولَّى إلى غير رجعة عهد المراقبة بالمناظير من داخل الشقق، ومتابعة المشتبهين لرصد أفعالهم؛ فاليوم لدينا أقمار اصطناعية وسفن وطائرات تعمل بالتوجيه من بُعْد، وهواتف نقالة ذكية وأجهزة حاسوب تقوم كلها بأعمال التجسس القذرة على الناس، سواء في مساكنهم، أو في مختلف أنحاء العالم؛ في مكان العمل، أو في الشارع.

المراقبة الإلكترونية

نصَّ التعديل الرابع للدستور على أنه: «من حق الناس أن يكونوا آمنين على أنفسهم، ومساكنهم، ووثائقهم، وممتلكاتهم من أيِّ تفتيشٍ بغير وجه

حق، أو حجزٍ يعرِّضهم للاستغلال وانتهاك الكرامة، ويجب عدم استصدار أيِّ أمر تفتيش من دون سبب وجيه مدعوم بقسم أو شهادة تصف المكان المراد تفتيشه، وتحدِّد الأشخاص الذين يُراد توقيفهم، أو الأشياء التي يُراد الاستيلاء عليها، وفق كفالة وضمانة تحدِّد كل شيء بدقة ووضوح».

لقد وضع التعديل الرابع للدستور أساسًا للخصوصية: فوفقًا لموقع معهد المعلومات القانونية في جامعة كورنيل الإلكتروني: «أكَّد التعديل الرابع للدستور بصورة أساسية الاعتقاد الذي مفاده أن مسكن الإنسان هو قلعته الحصينة لدرء أيِّ تفتيشٍ من دون وجه حق، أو استيلاء السلطة الحاكمة على ممتلكاته: فهو يحميه من الاعتقال التعسفي، والعبث بمحتويات المكان في أثناء التفتيش، ويعد هذا الأمر أساس القانون الذي يتعلق بضمانات التفتيش والتوقيف، وفحوصات السلامة، والتنصت على المكالمات الهاتفية، وغير ذلك من صور المراقبة والتجسس التي ترتكز في كثير من الأحيان على القوانين الجنائية وقانون الخصوصية».

وبالرغم من هذا كله، فقد أصبحت حقوقنا الشخصية محل شك كبير بسبب ظهور المراقبة الإلكترونية التي يوجد منها نوعان يحق لنا أن نقلق بشأنهما: الأول: الاتصالات السلكية التي تعني نقل الصوت من إنسان إلى آخر بوساطة هاتف نقال، أو سلك، أو أداة أُخرى يمكن الوصول إليها بسهولة عن طريق مصدر خارجي آخر، حتى من دون معرفة المتصل والمستقبل بالأمر. أمَّا النوع الثاني فهو الاتصالات الإلكترونية، ويُقصَد بها نقل البيانات والمعلومات والأصوات من موقع إلى آخر بوساطة أداة صُنعت

خصيصًا لهذا الغرض، مثل: أجهزة الحاسوب، والبريد الإلكتروني، وشبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت)، وشبكات التواصل الاجتماعي.

وكما هي الحال فيما يخص البحث والتفتيش وتطبيق القانون من جانب الحكومة، فإن المراقبة الإلكترونية بحاجة إلى ضمانات تفسِّر بصورة منطقية مقبولة سبب انتهاك الخصوصية لكلتا الجهتين، وبمعنًى آخر توضيح سبب الاهتمام بالتنصت على المحادثة المعنية، في الزمن المعني، بين شخصين معنيين، وكتابة ذلك في أمر التفتيش بصورة واضحة؛ لكي يصبح هذا النوع من المراقبة والاجتياح قانونيًا.

صحيح أنه يُسهِّل كثيرًا على السلطات الإفلات من عقوبة التنصت على المحادثات الخاصة في الأماكن العامة، مقارنةً بما قد يحدث إذا كانت هذه المحادثات في بيت شخص ما أو مكان عمله. وفي الأحوال جميعها، فثمَّة طرائق كثيرة للالتفاف على هذه الجوانب القانونية كلها.

وإثر اندلاع هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وبزوغ فجر ظاهرة حب الوطن القومي، والتحريض للدفاع عن مواطنيه ومكتسباته، التي فجَّرتها إدارة الرئيس جورج دبليو بوش (الابن)؛ فقد حظي موضوع المراقبة بقبول واسع النطاق من فئات المجتمع جميعها. حتى لو كان ذلك عن طريق الرادار، بسبب الثغرات التي لا تتطلب أيَّ ضمانات. ووفقًا لمعهد كورنيل للمعلومات القانونية، فإن بعض هذه الثغرات تشمل الاشتباه بالنشاط الإرهابي، وتهديد الأشخاص أو المؤسسات، والاشتباه بوجود مؤامرة أو جريمة منظمة، والاشتباه بتهديد الأمن القومي: لقد حَلَّ هذا القانون محل القوانين السابقة للحادي عشر من سبتمبر عام 2001م التي كانت يصعب معها التنصت على

أيِّ شخص، خاصة إذا كان منشأ الرسالة دولة أجنبية، أو كانت مرسلة إلى شخص ما هناك. وقد ساعد هذا الأمر كثيرًا على التخلص من ذلك القانون المزعج الذي حصر حق السماح بالتنصت على مكالمات المواطنين الأمريكيين الهاتفية في رئيس الدولة وحده من دون سائر المسؤولين: لقد سمح هذا القانون الشامل الذي يمنح إذن المراقبة من دون حاجة إلى تسمية الناقل الحقيقي لهذه الاتصالات، بالتنصت على المكالمات الهاتفية؛ نظرًا إلى أهمية ذلك في مراقبة تحركات الإرهابيين الذين لا يستقرون أبدًا في مكان واحد مدة طويلة. ولا يقتصر الأمر على الهواتف الخلوية فحسب، بل يشمل أيضًا البريد الإلكتروني.

والآن، بينما تجلس مسترخيًا في بيتك، معتقدًا أن أيًّا من هذه الفئات لا تنطبق عليك، ومطمئنًا أنه لا يوجد مَن يراقبك أو يتنصت عليك أبدًا... عليك أن تعيد التفكير مرة أُخرى في صحة هذا الأمر؛ إذ إن هذه الإجراءات يمكن تطبيقها على نطاق واسع، وقد تدفعك إلى كره سياسي ما، أو تمنِّي موته، أو إخبار أحد أصدقائك - مازحًا- برغبتك في نسف رئاسة مركز شرطة ما، وهو ما قد يعرِّضك لمضايقات شديدة قد تصل حدَّ الاعتقال ومصادرة هاتفك وأجهزتك الحاسبة وغيرها من الأدوات التي قد تُستخدَم شاهدًا عليك.

سنودين ووكالة الأمن القومي

أُثير موضوع المراقبة الإلكترونية عام 2013م إثر نشر صحيفة الجارديان البريطانية وثائق سرية، كشفت طلب إحدى منظمات الاستخبارات الأمريكية

(محكمة مراقبة الاستخبارات الخارجية) نشر معلومات عن المحادثات اليومية للمتصلين عن طريق أضخم ناقل لاتصالات الهاتف النقال على وجه الأرض (فيريزون). أمَّا الشخص الذي اطَّلع على هذه الوثائق فهو إدوارد سنودين الذي عمل في وكالة الأمن القومي بمكتب أوهايو؛ إذ بدأ يلاحظ أن وكالة الأمن القومي تتجسس على مكالمات المواطنين الأمريكيين بوساطة الهواتف النقالة وشبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت)، بوصف ذلك جزءًا من برنامج مراقبة إلكتروني سري للبحث عن المعلومات عُرِف باسم (PRISM)، بدأته وكالة الأمن القومي عام 2007م، بعد إقرار قانون حماية أمريكا **Protect America** الذي أصدره الرئيس جورج دبليو بوش، فأصبح أكبر مصدر للبيانات الأولية التي يتولى تحليلها موظفو الحكومة الأمريكية بإشراف الاستخبارات الأمريكية. وحتى البيانات المُشفَّرة كان يجري التنقيب عنها وتحليلها عن طريق هذا البرنامج بإشراف محكمة مراقبة الاستخبارات الخارجية.

شرع سنودين - في أثناء عمله بمكتب أوهايو التابع لوكالة الأمن القومي- في نسخ وثائق سرية جدًّا، كان يرى أنها الأكثر إزعاجًا من غيرها، ولا سيما تلك التي تتعلق بالمراقبة المحلية لملايين الأمريكيين من المواطنين العاديين. بعد ذلك طلب سنودين إجازة بسبب المرض، ثم سافر إلى الصين حيث استقر. وفي تلك الأثناء، بدأت صحيفة الجارديان البريطانية نشر تلك الملفات التي تسلَّمتها من سنودين في شهر يونيو من عام 2013م، بالتزامن مع صحيفة واشنطن تايمز، وقد أشارت الجارديان إلى علاقة وكالة الأمن القومي وبرنامج (PRISM) بتلك الملفات التي سُرِّبت، والتي تحوي معلومات خطيرة لدرجة قد تكون مميتة. وفي الوقت نفسه، عقد سنودين من غرفته

في أحد فنادق الصين حيث يقيم، مقابلات عدَّة. ولكن سرعان ما تدخلت الحكومة مع المدعي العام الاتحادي، مُتَّهِمةً سنودين بادعاءات عديدة، تخضع اثنتان منهما لقانون مكافحة التجسس.

استمر سنودين ينشر من مخبئه في الصين، مع ورود إشاعات عن منحه حق اللجوء من دول كثيرة، ومع بقائه في الصين منذ تاريخ نشره تلك الأخبار، حاول جاهدًا تسليم تلك الوثائق كلها لصحفيين آخرين، لم يشأ الإفصاح عن هوياتهم؛ رغبةً في حمايتهم، مُدَّعِيًا أنه أقدم على فعله هذا بسبب ما يراه انتهاكًا لحقوق الأمريكيين في الداخل والخارج.

وإثر ذلك، تعرَّضت (فيريزون) و(AT & T) وغيرهما من شركات الهاتف الأُخرى لغضب الجمهور والإعلام بسبب ما حدث من تنصت على محادثات العامة، حتى مع عدم وجود أيِّ دليل قد يشير إلى احتمال وقوع حادث إرهابي وشيك. وفي ردِّها على ما تعرَّضت له من حملة شعواء، أكَّدت شركات الاتصالات الأمريكية أنها أقدمت على هذا الفعل استجابةً لطلب وكالة إنفاذ القانون التي هدَّدتها بإيقاف الخدمة في حال امتنعت عن التعاون؛ لذا فهي تؤكِّد أنها تصرفت وفق القانون، حتى لو كان ذلك التصرف أمرًا غير أخلاقي. من جهته، أكَّد سنودين في لقائه مع شبكة كولمبيا الإخبارية (CBS) أنه لا يرى نفسه بطلًا أمام الجمهور بإقدامه على هذا العمل، وإنما هو شخص يرفض العيش في عالم لا يحترم خصوصية الآخرين.

وبالرغم من أن الرئيس أوباما حاول تهدئة مواطنيه الذين أصابهم الذعر بسبب التجسس على حياتهم الخاصة، فأمر النائب العام في شهر يناير من عام 2014م بمراجعة وكالة برامج الأمن القومي (ناسا): فإن

الجمهور لم يُصدِّق ذلك؛ فقد اهتزت الثقة. وأخيرًا ظهرت إلى العيان مؤامرة (الأخ الأكبر) التي أصر كثيرون دائمًا على وجودها.

ثمَّة نوعان من التنصت على المحادثات الهاتفية، سواء الأرضية أو النقالة: الأول: التنصت السلبي الذي يُعنى بمراقبة السجلات الفعلية لحركة الاتصال. والنوع الثاني: التنصت النشط الذي يتدخل بتبديل خط الاتصال أو تغييره. وفي الحقيقة يعد الحصول على بيانات المحادثات أمرًا سهلًا للحكومة ووكالة إنفاذ القانون، حتى من دون مسوِّغ أو إذن رسمي، في حين يظل الحصول على البيانات الفعلية لمحتويات المحادثات حكرًا على أولئك الذين يمتلكون الوسائل اللازمة لذلك، إضافةً إلى الأسباب التي تسوِّغ لهم هذا الأمر. أمَّا الأمر الذي لم يجد له العملاء تفسيرًا فهو احتفاظ قسم الفواتير في شركات الاتصالات ببيانات الاتصالات كلها، والراجح أن هذا كان بهدف حساب تكلفة الخدمة. وعلى كل حال، تبقى هذه الخدمة متوافرة فقط لأصحاب الحق الحقيقيين.

أمَّا الذي يخيف حقًّا، فهو ما يحدث عند التجسس على المحادثات الشخصية أو اختراقها، من استماع وكالتي المخابرات المركزية والأمن القومي إليك وأنت تسأل والدتك حتى عن سعر حذاء الركض الجديد. بيد أن مجرد التفكير في أن ثمَّة مَن يتنصت إليك؛ زوجًا كان، أو عزيزًا ما، أو شخصًا ما مطاردًا...، هو أمر يسبِّب الغثيان حقًّا، ومع ذلك فقد يتولى طرف ثالث التنصت على المحادثات الهاتفية ومراقبتها. بعدما يمتلك التقنية اللازمة التي تساعده على هذا العمل. لعلك تتذكر زمن المكالمات الهاتفية اللاسلكية التي تعتمد على الماسحات الضوئية المعدلة،

والتـي اسـتخدمها رجال الشـرطة في ثمانينيات القرن الماضي وتسـعينياته، قبـل ظهـور التقنية الحديثـة التي جاءت لتفسـد متعة ذلـك الزمن الجميل؛ فاليـوم أصبحـت التقنيـة أكثر تطورًا، وغـدا من الصعب جدًّا -إذا لم يكن مستحيلًا- رصدها.

عقـب انـدلاع حكاية سـنودين مع وكالـة الأمـن القومي (ناسـا)، تفاعل العديد من الأمريكيين مع المنتديات السياسية وشبكات التواصل الاجتماعي، متضامنين حيال الفكرة العاطفية الآتية: «صحيح أنهم يستطيعون التجسس علـيَّ كمـا يريدون، لكنني لسـت قلقًا؛ فليس لـديَّ ما أخفيـه». وبالرغم من ذلك، فإن هؤلاء النـاس -على ما يبـدو- كانوا يجهلون أن مكتب التحقيقات الاتحادي قد رصد جميع الأفراد والمجموعات التي ليس لها علاقة بالتطرف وتداعيات هجمات الحادي عشـر من سـبتمبر. وفي شـهر ديسـمبر من عام 2005م. نشـر الاتحاد الأمريكي للحريـات المدنية معلومات مرعبة عن بعض الأهـداف التـي رصدهـا مكتـب التحقيقات الاتحادي، تقشـعر لهـا الأبدان؛ فقد أظهرت وثائق جديدة أن مكتب التحقيقات الاتحادي يسـتهدف أنشـطة جماعات حقوق الحيوان والبيئة بوصف ذلك إرهابًا محليًّا؛ إذ كشف الاتحاد الأمريكـي للحريـات أن مكتـب المباحـث الاتحـادي لم يكـن يسـتغل تدابـير مكافحـة الإرهـاب للمراقبـة فحسـب، بل للتسـلل إلى الجماعـات التي تُعنى بحقـوق البيئة والحيـوان، بما فيها منظمة السـلام الأخضـر، وبيتا (PETA)، وحتى المشـروع النباتي المجتمعي في جامعة إنديانا. ويبدو أن مكتب المباحث الاتحـادي اعتقـد أن الأشـخاص الذيـن يهتمون بحماية الحيوانـات كانوا في السابق إرهابيين، أو إرهابيي البيئة بحسب وصفهم، ولهذا يَعتقد أنهم ربما مثَّلوا مصدر تهديد محتمل للأمن القومي.

من جهة أُخرى، أكَّدت آن بيسون، وهي مدير قانوني حاصلة على الزمالة القانونية تعمل مع الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية، أن: «وصف المجموعات الملتزمة بالقانون وأعضائها بالإرهابيين المحليين لا يعد عملًا غير مسؤول فحسب، بل له تأثير مرعب على التقليد النابض بالحياة للمعارضين السياسيين في هذا البلد».

إن بيسون بتأكيدها هذا تكون كمَن دقَّ المسمار في الرأس؛ إذ أصبح يُنظَر إلى أيٍّ معارضة بعد الحادي عشر من سبتمبر على أنها إرهاب محتمل، وهكذا كانت الحال حتى تجاه الاحتجاجات المشروعة والعصيان المدني السلمي. وفجأة، صار كل مَن يشارك - في أيٍّ وقت- مع بيتا (PETA)، أو يحضر احتجاجًا لمنظمة السلام الأخضر، مصدر خطر يُهدِّد الأمن القومي. ولا ندري سبب اختيار أفراد المباحث الاتحادية هذه المجموعات - تحديدًا- للتركيز عليها، في حين توجد جماعات إرهابية محلية كثيرة لا يحفل بها أحد بالرغم من أنها تثير العنف العرقي، وترتكب جرائم القتل في مختلف أنحاء البلاد.

والأعجب من هذا كله، إخضاع مجموعة العمال الكاثوليكية للمراقبة، بذريعة احتمال وجود ميول شيوعية لديها. مع أنها - في الحقيقة- كانت قد اقترحت إحلال السلام، ودعت إلى المشاركة في الموارد. وهو ما رأت فيه المباحث الاتحادية عملًا شيوعيًّا، ليس هذا فحسب، بل حتى النقابات العمالية والمجموعات الإغاثية وُضِعت تحت مجهر أفراد المباحث الاتحادية، ما سبَّب موجة غضب عارمة وسط المهتمين بالدفاع عن الحقوق المدنية في إدارة الرئيس بوش التي كانت تعاني رؤية ضبابية شديدة، تحول دون

التفريق بين النشاط الإرهابي الفعلي، والاحتجاجات القانونية المشروعة، بما في ذلك العصيان المدني.

وإثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ضجَّ الأمريكيون مطالبين بمزيد من الحماية من الأشرار، ولم يَدْرِ في خلدهم أنه ربما انتهى بهم الأمر -يومًا ما- إلى وضعهم في قائمة «الرجل الشرير».

من جهة أُخرى، قالت إلينا فريلاند في مقال لها عنوانه: عصر الكهرومغناطيسية السرية هذا: «كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر حقًّا نقطة تحوُّل مثيرة من نواحي عدَّة، أهمها:

زيادة استخدام الأسلحة الكهرومغناطيسية لصدم الجمهور وإثارة رعبهم، وهي تشمل تقنية المراقبة الإلكترونية، مثل الأجهزة الإشعاعية وغير الإشعاعية، والمستقبلات، وأجهزة التنصت التي تعمل بالليزر؛ الأرضية والفضائية، وخطوط الهواتف الساخنة وتلك الذكية، وبرمجيات السمع الخارجية التي تُستعمَل لالتقاط العواطف وتشفيرها... إضافةً إلى تقنية مراقبة البيانات عن بُعْد، المفتوحة المصدر، مثل أجهزة الحاسوب، وتقنية تمييز الأصوات وتعرُّفها، وتنشيط الأفكار، بما في ذلك مراقبة موجات الدماغ الخاصة بالأفكار. ويعد هذا كله اليوم تجارة رائجة؛ فقد تلاشى -في هذا العصر الكهرومغناطيسي- الفاصل بين الصناعات العسكرية وتلك المدنية: إذ أعادت العلوم العسكرية صياغة أوجه الحياة كلها، مُحوِّلةً إيَّاها إلى فضاء فسيح معركة شاملة battlespace. والمؤسف المرعب حقًّا أن حكومتنا صادرت حرياتنا المدنية واحتفظت بها رهينة لديها، إثر

هجمات الحادي عشر من سبتمبر. فمَن يكترث للإرهابيين الأجانب في وجود أصدقاء مثل هؤلاء؟».

جواسيس الإنترنت

في شهر أغسطس من عام 2013م، نشرت مجلة (Mother Jones) مقالًا لوايرد كوليومنست كليف تومسون، عنوانه **كيف يمكنك إبقاء وكالة الأمن الوطني بعيدة عن حاسوبك؟ How to Keep the NSA Out of Your Computer**. وفيه شرح مفصَّلًا الطريقة التي تساعدك على إبقاء أفراد المباحث الاتحادية المزعجين بعيدين عن موقعك في شبكة الإنترنت، وذلك باستخدام شبكة إنترنت خاصة موازية، غير تلك التي ندفع لها نظير خدماتها لنا؛ يمكن الحصول على شبكة الإنترنت الخاصة هذه عن طريق رابط هوائي (Wi-Fi) يعمل على إنشاء (شبكة) حقيقية تسمح بمرور البيانات والإشارات بسرعة أكبر من سرعة تلك الشبكة العامة التي ندفع لها. وقد نشأ مفهوم هذه الشبكة المباشرة البديلة أول مرة في العالم في أثينا باليونان، وأثبتت أنها وسيلة ناجعة يمكن الاعتماد عليها لعمل شبكة لاستخدام المجتمع تديرها بنفسك، بعيدًا عن تطفُّل وكالة الأمن القومي والأصدقاء، ويمكنك إنشاؤها حيثما تريد. أمَّا لوازمها ومتطلباتها فبعض المعدات المجانية، ويستخدمها اليوم أكثر من ألف مواطن يوناني من سكان العاصمة أثينا..

يقول تومسون: «لقد مكَّنت هذه الطريقة أفراد المجتمع من ربط أجهزتهم بعضها ببعض، وسمحت بمرور الإشارات إلى الآخرين عن

طريق الشبكة، كما كانت الحال في إسبانيا؛ إذ نمت شبكة (Guifi)، واتسع مجال بثها لتصبح واحدة من أكبر الشركات العالمية الرائدة في مجالها، وهي تخدم اليوم أكثر من (21,000) عضو. وكان إسحاق وايلدر، المؤسس الشريك للشبكة الحرة المجانية، يستعمل هذا النموذج لخدمة جيرانه من ذوي الدخل المحدود، الذين لا يستطيعون دفع رسوم شبكة الإنترنت العامة المعروفة. صحيح أن الدافع لهذه الشبكة كان اقتصاديًّا بحتًا، لكنها وفَّرت أيضًا خدمة آمنة مضمونة للناشطين السياسيين، مستقلة تمامًا عن نسخة موفِّري الخدمة الكبار، وبعيدة عن أعين الحكومة». ويضيف تومسون قائلًا: «إن فكرة استثمار شبكة الإنترنت العالمية ما تزال حلمًا يغازل عيون أولئك الذين يُعوِّلون على تلك الحيلة، بيد أن عدوى أحلامهم المترعة تظل تنتقل بسرعة مذهلة إلى الآخرين».

قد يكون الجاني هو هاتفك النقال نفسه. ومع هذا يمكنك أن تطمئن: فالتجسس الإلكتروني يعمل مثله، وربما أفضل. يبدأ التنصت على شبكة الإنترنت بتسجيل عنوان نقطة الانطلاق، ويمكن لأيِّ مستخدم الوصول إلى مواقع إلكترونية معينة. ويسمح لطرف ثالث بمراقبة أيِّ موقع جرت زيارته بسهولة، ومرة أُخرى يضمن قانون الحماية الوطني حماية ما تجريه من بحث أو اطلاع عن طريق شبكة الإنترنت. بيد أن هذا الأمر لا يتعدى نطاق أسرتك الصغيرة في منزلك؛ لذا فهو لا يحميك من عملاء المخابرات الاتحادية الذين يهتمون بميولك في أثناء بحثك عن طريق جوجل؛ إذ تظهر إشارة حمراء عند بحثك في قاعدة البيانات عن أي شيء له صلة بالإرهاب، وربما تتهم أيضًا باستغلال الأطفال، لمجرد تعثرك من غير قصد عند مواقع معينة في أثناء بحثك.

وعلى ذكر جوجل، فإن لوكالة الأمن القومي محرك بحث خاص بها، على غرار جوجل يُعرَف باسم (ICREACH)، ووفقًا لما جاء في الوثائق التي سرَّبها سنودين، فقد صُمِّم هذا المحرك لتبادل أكثر من (850) بليون سجل من سجلات المكالمات الهاتفية، ورسائل البريد الإلكترونية، ومواقع الهاتف النقال، والرسائل التي تُرسَل عن طريق الناسخات (الفاكسات)، والرسائل الخاصة، والدردشات، وغير ذلك من المشاركات في مختلف وسائط التواصل الاجتماعي. ومن المنتظر أن يحدِّد (ICREACH) المعلومات التي تَرِدُ عن طريق وسائل الاتصال الخاصة بالأجانب، بيد أنه لا يمكن تجنب انتهاك خصوصية الرسائل الخاصة التي تصل المواطنين الأمريكيين الذين لا يُنتظَر أن تكون لديهم أدنى علاقة بأيٍّ أنشطة إرهابية، لا من قريب ولا من بعيد. يُذكَر أن وكالة الأمن القومي صَمَّمت محرك بحثها السري هذا لاعتراض رسائل آلاف المحلِّلين الأميركيين الذين يعملون مع الحكومة، في مختلف وكالات الاستخبارات، مثل: وحدة مكافحة المخدرات (DEA)، والشرطة الاتحادية (FBI)، والمباحث المركزية (CIA). وهو يمثِّل أكبر قاعدة بيانات داخلية لسجلات المراقبة السرية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ يسمح بالتعامل مع خمسة بلايين سجل جديد يوميًّا.

أصيب الخبراء القانونيون بالصدمة لدى سماعهم بهذا العدد الهائل الذي يستطيع محرك (ICREACH) التعامل معه، وهو ما حدا بإليزابيث جويتين: مساعد مدير برنامج الحرية والأمن القومي في كلية القانون بجامعة نيويورك، إلى التصريح قائلةً: «إنه لأمر جد محيِّر. وأرى أن الخرافة التي تزعم أن البيانات الوصفية هي فقط حفنة من الأرقام لا

تكشف المحتوى الفعلي للاتصالات قد نُسِفت منذ مدة طويلة: إذ يمثِّل هذا كنزًا من المعلومات الحسَّاسة لدرجة تفوق الخيال».

أمَّا تشارلز فار: مدير عام مكتب الأمن ومكافحة الإرهاب، فقد عبَّر عن بالغ أسفه لسكان إنجلترا القديمة المسالمين المبتهجين دومًا؛ لأن مراقبة المواقع الشعبية (جوجل، تويتر، يوتيوب، فيسبوك) بوساطة الوكالات الحكومية، هي في الواقع قانونية تمامًا، بعد إعادة تعريفها بأنها «اتصالات خارجية»، ما يسمح بجمع كمٍّ هائل من المعلومات والمحادثات والرسائل الإلكترونية إلى الحسابات عشوائيًّا، ثم تحليلها.

وللحقيقة، فإن رقابة الإنترنت الآلية تبحث - على اختلاف أشكالها- عن أيِّ كلمات أو جمل أو إشارات ما لها صلة ما بأيِّ إرهاب محلي أو أجنبي، أو أنشطة إجرامية، أو تحرش بالأطفال، أو أيِّ تهديدات للأمن القومي. وللبحث في هذا الكمِّ الهائل المحيِّر من البيانات، تُستخدَم أجهزة الحاسوب التي تعمل ذاتيًّا للتدقيق في المعلومات؛ بغية التقاط أيِّ إشارة تُحقِّق الهدف المنشود، ويشمل ذلك رسائل البريد الإلكترونية (التي تُخزَّن في قاعدة بيانات هائلة تابعة لوكالة الأمن القومي، تُعرَف باسم ضيقة الأضلاع)، والرسائل الخاصة، والأحاديث، وشبكات التواصل الاجتماعي. فكل ما يُكتَب في الحاسوب يُبحَث عنه، يضاف إلى ذلك أن هذه البيانات تظل مُخزَّنة في أجهزة الحاسوب الشخصية، ما يجعل الوصول إليها في متناول اليد دائمًا، وجدير بالذكر هنا أن لمكتب التحقيقات الاتحادي برامجه الخاصة التي يمكن تركيبها على نظام الحاسوب المعني بوساطة شخص ما، أو حتى عن بُعْد، لتعقب حركة الضغط على لوحة المفاتيح وتحديد مصطلحات البحث.

تُوفِّر البيانات المستخلصة من مواقع شبكات التواصل الاجتماعي ساحة جديدة متكاملة لاكتشاف الجواسيس المحتملين، والوشاة، والإرهابيين، ومحرِّضي الثوار. إضافةً إلى خرائط مُصمَّمة من ذاكرة البيانات تُحلِّل تحركاتهم. وقد تكشف عن أيِّ أنشطة عنف محتملة، وأيِّ انتماء لإرهابيين أو مجموعات إرهابية. وحتى تلك التي تؤمن بأفكار قد تمثِّل خطرًا على أمن الولايات المتحدة الأمريكية في الداخل، وعلى مصالحها في العالم؛ لذا يتعين على الجميع أن يكون حذرًا، بل حذرًا جدًّا لكل ما ينوي نشره في وسائل التواصل الاجتماعي.

لقد أثبتت الملاحقة الخفية والاستئساد سهولة تحديد مكان أيِّ شخص، وما يقوم به من عمل، واستخدام ذلك - في الوقت نفسه- لإدانة شخص آخر أو أشخاص آخرين، ربما لدرجة مفرطة قد تدفعهم إلى الانتحار. وبالرغم من أن مراقبة الحكومة لمعرفة الأشرار تبدو أقرب للبحث في بحر من المعلومات منه لملاحقة الناس هنا وهناك. فليس ثمَّة شك في توافر الفرصة لأيِّ شخص للوصول إلى حاسوبك: بغية ارتكاب أيِّ فعل قذر ؛مثل: تدمير ملفات، أو إضافة عمليات بحث تجهلها، يورِّطك في الجريمة مستقبلاً.

في موقع الأخ الأكبر قادم (Salon.com)، يرى الصحفيان كاثرين كرمب وماثيو هاردوود أن الإنترنت سيتحكم في تفاصيل حياتنا كلها مطلع عام 2020م. وحيئنٍ. سيوجد أكثر من ثلاثين بليون جهاز متصل بالشبكة، فيما يُعرَف بالبيانات الضخمة. وسوف تسيطر هذه التقنية (الأخ الأكبر» على مختلف مناحي حياتنا. بدءًا بأدواتنا المنزلية، ومرورًا بسياراتنا، وانتهاءً بالضوء داخل المرأب، إضافةً إلى أشياء أُخرى كثيرة: فكل شيء نفعله

سيكون عن طريق الإنترنت. ويؤكّد الصحفيان هذه الحقيقة قائلين: «وهكذا يُوفّر إنترنت الأشياء مستقبلًا فوائد حقيقية... أمَّا الجانب المظلم في هذا فهو معرفة الشركات كل ما تريد معرفته عنك». ويستطرد الصحفيان: «في المستقبل القريب، سيتحوَّل فضاؤنا الحقيقي كله إلى عالم افتراضي... فمع زيادة عدد الأجهزة الملحقة بالإنترنت، فإن كل شيء يفعله الناس في منازلهم وسياراتهم ومستودعاتهم ومجتمعهم سيكون مكشوفًا، وتتناوله الشركات والمؤسسات والحكومة بالتحليل على نحوٍ أكثر تطفلًا».

وها هو عالمنا اليوم يشهد تشييد المنازل الذكية التي ترتبط فيها حتى كاشفات الدخان والحرائق بشبكة الإنترنت، للحصول على «معلومات استخباراتية» تساعدها على التمييز بين الحريق الحقيقي وذلك الناشئ عن تحميص الخبز. أمَّا التلفاز الذكي فيستطيع تشغيل نفسه تلقائيًا، والتحوُّل إلى قناتنا المفضلة قبل عودتنا من العمل إلى المنزل، في حين تُجهِّز الثلاجة الذكية المشروب لحظة دخولنا، ويفتح المرأب بوابته تلقائيًّا عندما نكون على بُعد ميل واحد منه. يمكننا أيضًا الذهاب إلى مطعم محلي، وتحميل بعض التطبيقات (مثل: iBeacon، و Turnstyle) على هواتفنا الذكية لتحديد موقعنا، وكذلك تشغيل ميزة السماعات في هواتفنا لكي نتمكن من المتابعة، حتى في أثناء ما يردنا من مكالمات. يُذكَر أن تطبيق (Turnstyle) يُوفِّر أجهزة استشعار في مختلف أنحاء مدينة تورنتو بكندا، تستطيع تحديد مكانك كل لحظة. ويُستحسَن تحميل تطبيق فيسبوك؛ فربما يكون اللاقط الذي تستخدمه (Wi-Fi) مُثبَّت بوساطة تطبيق (Turnstyle) نفسه الذي يستطيع الوصول إلى بياناتك وهويتك المعتمدة في وسائط التواصل الاجتماعي كلها.

أمَّـا عنـد خروجنـا إلـى الشـارع فنلاحـظ المصابيـح الذكيـة التـي تُوفِّر الطاقـة. والتـي تُسـتخدَم في الإنـارة، مثـل تلـك التـي توجـد اليـوم في مطار الحريـة الـدولي بمدينـة نيـوآرك. ومن المثيـر للاهتمـام أن سـلطات المطار تَستخدِم هذه الأضواء أيضًا آلات تصوير للمراقبة، وأجهزة استشعار لرصد حركة السـير، وتعرُّف لوحات السـيارات المرخصة، ورصد أيِّ أنشطة مريبة حول المطار. وبالحديث عن لوحات ترخيص السيارات، توجد فعلًا منظومة متكاملـة من آلات التصوير والرصد، تلتقط صورًا للسـيارات التي تعبر تلك الشـوارع؛ للتعرُّف إلى السـائقين من أجل تطبيق القانون، وثمَّة فرص كثيرة متاحة لكي تكون صورة سيارتك ضمن الألبوم الذي يضم تلك الصور!

أجـل، يمكـن للتقنية الذكية أن تفعـل هذا كله. ولكن، هـل أصبحنا نحن أغبياء لدرجة تجعلنا نتنازل عن السيطرة على دفَّة حياتنا لمصلحة الإنترنت والمتلصصين خلفه؟

المراقبة الجماعية التجارية

تستغل المراقبة الجماعية التجارية هذا الكمَّ الهائل من البيانات المُخزَّنة في الهواتـف المحمولـة والحواسـيب، لجمع معلومـات عن أكثر الأشـياء التي يُقبِل النـاس على شـرائها وإنفاق المال عليها، والأنشطة التي يقومون بها من أجـل المتعـة والترفيه، والأماكن التـي يفضِّلونها للتسـوق أو قضاء العطلات؛ وكـمٌ هائـل من الأسـئلة الأُخرى التي ربمـا تفضي إلى تحقيق مكاسـب جمَّة للشـركات نتيجـة لعبـة التجسـس هـذه. أمَّـا أقل هـذه الحيل خطـرًا فتتمثَّل في منـح العميـل (الزبـون) بطاقة المحـل أو بطاقـة مكافأة يتمتـع بها بميزة

معينة. وتسمح له بتدوين بياناته عن طريق شبكة الإنترنت أو تطبيقات الهواتف الذكية. وهكذا تُرصَد عادات العملاء الشرائية، ثم تُرسَل إلى مراكز الشركة الرئيسة حيث تُجمَع وتُحلَّل. صحيح أن المستهلك قد يحصل على أسعار أفضل ويتمتع بعروض خاصة. ولكن ذلك قد يكون على حساب خصوصيتهم التي لا تقدَّر بثمن.

وعلى خطى جوجل والمواقع الاجتماعية المفتوحة وفيسبوك، تستخدم شبكة الإنترنت هذا النوع من الإعلانات التجارية في برمجة بيانات أفراد المجتمع وتحليلها، لمعرفة عادات عملائها في التسوق، والإفادة من نتائج البحث في تحقيق أكبر عائد ممكن، ولا سيما أن خصائص الهاتف النقال وخدمات تحديد الموقع الجغرافي التي تحدِّد موقع المستخدم أضافت قدرًا معتبرًا من البيانات، يمكن استعماله لتحديد ميول العملاء في التسوق والطعام والتسلية والترفيه، حتى لو كان ذلك خصمًا على حساب خصوصية المتسوقين. وفي حال كان العميل يستخدم هاتفًا نقالًا يحتوي على ميزة تحديد الموقع أو أيٍّ نوع من الخدمات الدعائية لتحديد الموقع، بما فيها تلك التي تساعد على معرفة أماكن المطاعم القريبة أو الأندية. فعندئذ يكون مثل هذا العميل هدفًا ثمينًا في كل مرة يستخدم فيها تلك التطبيقات لتحديد موقعه.

ونظرًا إلى سعينا المحموم لإنجاز ما نريد بسرعة وجودة كمًّا وكيفًا -على الأقل- عندما يتعلق الأمر بالتقنية: فإننا نجد أنفسنا نتنازل عن جانب كبير من خصوصيتنا - بأشكال مختلفة- لمصلحة تلك العيون الفضولية. ومع هذا كله، فقلة قليلة بيننا هي التي تستطيع التخلي عن هاتفها المحمول أو حاسوبها. ويبدو تهديد شرطة الولاية ومراقبتها، حيث تكون الحشود

تحت سيطرة السلطات الحكومية، والجيش، وحتى الشركات الكبيرة: أمرًا مستساغًا، مقارنةً بفكرة التخلي عن أجهزتنا الإلكترونية المرعبة.

عيون تحدِّق من السماء

لو نظرت حول أيِّ شارع في أيِّ مدينة لرأيت آلات المراقبة (الكاميرات) منصوبة على عمودٍ وهي تحدِّق فيك. ليس هنا فحسب، بل توجد تلك الآلات في المتاجر، والمكاتب، والمطارات، ومراكز المؤتمرات، والمراكز التجارية: ترصد حركاتك وسكناتك كلها بحثًا عن أيِّ سلوك مشبوه أو أعمال مشبوهة. فأضحت تلك الآلات اليوم عاملًا أساسيًّا لضمان الأمن الداخلي، وتطبيق القانون، ومحاصرة الجريمة، واستئصال المجرمين المحتملين أو الإرهابيين عن طريق استخدام شبكة من آلات المراقبة (الكاميرات)، تُغذِّي نظام الرصد المركزي الذي ربما يكون مرجعه البشر أو غيرهم.

أصبح نظام المراقبة اليوم، شأنه في ذلك شأن الأشياء الأُخرى، رقميًّا مُزوَّدًا ببيانات حقيقية تتصل بقاعدة بيانات مركزية كبيرة، تُحلَّل ببرامج حاسوبية خاصة وفق معايير محدَّدة، اعتمادًا على الجهة التي تضطلع بمهمة المراقبة وموضع الآلات. سواءٌ كانت في الشارع لمراقبة حركة المشاة، أو عند تقاطع الطرق لرصد المخالفات المرورية، أو في موقع تنظيم الأحداث الرياضية المهمة لرصد المشاجرات والاعتداءات المحتملة. فهي منتشرة اليوم بكثافة، ونراها في كل مكان تقريبًا أعلى أنفنا أو أسفله، لكننا نادرًا ما نهتم لملاحظتها.

يتوقـع معظـم النـاس أنهم سـيخضعون لتدقيـق آلات المراقبـة هذه عند مراجعتهـم الدوائـر الحكومية، أو قاعات الدراسـة في المعاهـد والجامعات، أو إدارات الشـركات الرائـدة. وحقًّـا، يحتـار العقـل في كثرة انتشـار أجهزة التجسـس التي ترصـد كل حركة من حركاتنا وسـكناتنا، فربما وجدناها في يوم ما منصوبة على ناصية شـوارع كل مدينة في العالم. أمَّا سـبب هذا كله فقانـون الحمايـة الوطني، وتنامي جنون العظمة بـين المواطنين؛ فقد طالبنا بمزيـد مـن الحماية، وها نحن اليـوم نحصل عليها عن طريـق نظام حماية وطني يفرض مزيدًا من الرقابة التي ترسـل كل شيء إلى شاشتهم المركزية الأساسـية، حيـث يُفحَص كل شـيء عن طريق قاعـدة البيانـات التي تتمتع بقدرة هائلة على استشراف أيِّ تهديد محتمل.

في مطلـع القـرن الحـالي، وعلى إثر تهديدات الحـادي عشـر من سـبتمبر التي ولَّدت شعورًا قويًا بالعظمة والخوف في المراكز الحضرية، أمر ريتشـارد دالي بتطبيـق برنامـج عُـرِف باسـم **عمليـة الـدرع الجوهـري Operation Virtual Shield (OVS)** لحمايـة مدينـة شـيكاغو؛ يتألـف هـذا البرنامـج من آلاف آلات التصويـر (الكامـيرات) التـي تُسـتعمَل للمراقبـة، والتـي ترتبط بنظـام رصـد مركزي يلتقط صورًا أوليةً من مسـافة أقدام في زمن قياسـي. بلغـت تكلفـة تطبيق هذا البرنامج أكثر من مئتي مليون دولار، وفَّرتها شـعبة الأمن الداخلي، وسُـمِح للمسـؤولين والقائمين على إنفـاذ القانون في المدينة بتوسـيع نطاق اسـتخدام آلات التصوير، وكذلك أجهزة الاستشـعار الحيوية والكيميائية والإشعاعية التي تُغذِّي مركز عمليات المدينة، وقد تولى رصدها المسـؤولون، بمَـن فيهـم موظفو مكتـب خدمات الطـوارئ؛ لمعرفـة احتمالات حدوث أيِّ نشاط جنائي، أو إرهابي، أو حتى للاستجابة في حالات الكوارث.

وفي عام 2014م، اعترض اتحاد الحريات المدنية علنًا على استخدام الكاميرات للمراقبة في مدينة سانت لويس بولاية ميسوري، استنادًا إلى عدم وجود أيِّ تقارير، أو مبادئ مركزية، أو توجيهات للإفصاح عن البرنامج للجماهير. وعلى مدى العامين الماضيين، وسَّعت المدينة قدرتها الرقابية بتثبيت مزيد من الكاميرات، وربطها بأربع شبكات لتغذية مركز الرصد الذي يوجد على نُصب الجنود التذكاري. بيد أن جيفري متمان: المدير التنفيذي لاتحاد الحريات المدنية، حذَّر من التحوُّل إلى مجتمع رقابي، حتى مع ثناء مكتب عمدة المدينة على النظام الجديد، الذي رأى فيه وسيلة لجعل الجمهور أكثر إحساسًا بالأمان.

وعلى مستوًى أوسع، طوَّرت وكالة (DARPA) بالاشتراك مع وزارة الدفاع برنامج **عيون القتال التي ترى Combat Eyes That See** ليصبح نظام المراقبة الأكثر دقةً والأوسع نطاقًا في الولايات المتحدة الأمريكية. أسهمت شركات رائدة وجامعات عدَّة في تطوير هذا البرنامج. وقد صُمِّم ليُستخدَم أيضًا في ما وراء البحار لحماية جنودنا في ساحات الوغى. قد تبدو فكرة البرنامج رائعة لولا ظهور علامات الخطر التي تُنذِر بإمكانية استخدامه على التراب الأمريكي؛ للتعرُّف إلى الوجوه المشبوهة، وتصوير لوحات ترخيص السيارات - جنبًا إلى جنب مع برامج أُخرى- لمراقبة مختلف المدن وسكانها. وفي مقال عنوانه (دماغ الأخ الكبير) نُشِر في مجلة صوت القرية، في عددها الصادر في الثامن من يوليو عام 2003م، كتب المراسل نوح شاشتمان: «ربما تعد أيُّ حركة تؤديها موضع شك، فيبلِّغ عنك هذا البرنامج السلطات في الحال».

وبالرغم من أنه بدأ برنامجًا عسكريًّا لمحاولة إجهاض الأنشطة الإرهابية قبل حدوثها، يرى بعض الخبراء والمسؤولين أن برنامج «عيون القتال التي ترى» يمثِّل المستقبل، حيث يبقي الأخ الأكبر عينه مفتوحة لحراستنا جميعًا من مركز موحَّد يرى الجميع، ويبقى الشيء المرعب: «ما نراه نحن سلوكًا طبيعيًّا، قد يُفسَّر بوصفه نشاطًا مريبًا».

من جانبها، تأمل شركة أنظمة المراقبة الدائمة التي تتخذ من أوهايو مقرًّا لها، أن يأتي اليوم الذي تستخدم فيه مدن البلاد كلها كاميرات ذات تقنية متقدمة للحدّ من الجريمة. تستخدم هذه الشركة كاميرا محمولة على متن طائرة من طراز سيسنا، تُدعى **عين الصقر الثانية Hawk Eye II**؛ لتمكينها من أداء بعض مهامها، ويزعم رئيسها روس مكنت أنها تستطيع رصد أكثر من خمسين جريمة خلال ست ساعات فقط من التحليق، حسب ما أفاد في مقابلة مع تي رايت، من مجلة الأعمال والتقنية التي تصدرها صحيفة الواشنطن بوست، وذلك في عددها الصادر في فبراير عام 2014م. يرى مكنت أن مهام شركة أنظمة المراقبة الدائمة لا تقتصر فقط على الحدّ من الجريمة، وإنما تتعدى ذلك لتشمل زيادة قيمة العقارات، وتحسين مستوى المدارس، وتعزيز التنمية والتطوير، والحد من عدد المحتجزين في السجون، ما يعني تقليل الإنفاق العام على المدى الطويل؛ لأن أنظمة المراقبة ستحبط الجريمة قبل حدوثها.

وهذا نموذج معبِّر يوضح بجلاء العلاقة بين التقنية وخدمة مصالح الشركات، والجهات المسؤولة عن تنفيذ القانون؛ إذ يحقِّق اعتماد أجهزة الشرطة على شركة أنظمة المراقبة الدائمة ودعمها للشركة أرباحًا طائلةً،

علمًا بأنه لا توجد أيُّ ضمانات تؤكِّد أن الشركة تراقب فقط الأشخاص الذين هم على وشك ارتكاب جريمة ما - مصادفة، أو عن قصد - في إطار وفائها بالتزامها بإنشاء نظام تجسس يبث صورًا باستمرار في نطاق مساحة مربعة طول ضلعها خمسة أميال.

أمَّا اليوم فتقنية شركة أنظمة المراقبة الدائمة محدودة، حتى إنها باتت عاجزة عن معرفة شكل الفرد وتحديد لون ملابسه الداخلية، وقد وعد مكنت بزيادة نطاق خدمات الشركة مستقبلًا؛ فقد تُزوَّد الطائرات بالأشعة تحت الحمراء الحسَّاسة لرصد الإنسان، والشاحنات، وحتى الحياة البرية ليلًا (تُظهِر التفاصيل التي بين أوراق الأشجار وداخل المباني، مثل الخيام). وليس ثمَّة شك أن مكنت سيحرص كثيرًا على تعزيز كفاءة آلات التصوير، فتأكدوا أيها الناس أنكم ترتدون ملابس داخلية نظيفة. صحيح أنه لم يحدث قطُّ أن تعرَّضت خصوصيتنا لانتهاك بهذا الشكل الخبيث الماكر، ومع هذا فالقادم أعظم.

جواسيس الفضاء

لو نظرت قليلًا إلى السماء لأبصرت عيونًا كثيرةً تراقبنا من الأقمار الاصطناعية التي تدور حول كوكبنا لتحارب الجريمة من الفضاء الخارجي؛ فقد ساعدت دقة الصور التي ترسلها الأقمار الاصطناعية ووضوحها على تحديد أماكن المجرمين، والعثور على الجثث، وتحديد أماكن وجود الإرهابيين ومخابئهم، وحتى تحديد أماكن دفن النفايات بطريقة لا

أخلاقية وغير مشروعة، إضافة إلى أشياء أُخرى كثيرة، وهكذا نجد أن مهمة الأخ الأكبر قد تجاوزت العالمية بمراحل.

فاليوم تطورت تقنية الأقمار الاصطناعية كثيرًا، حتى إنها تمكّن الإنسان من رصد أيّ جسم مهما تضاءل بدقة متناهية، ناهيك عن تحديد مكان سيارتك وهي تسير في طريقها، أو عفريت حديقتك القبيح الذي يوجد في السور الخلفي. وحسب ما ذكرت باتريسيا لويس؛ مدير البحوث في الأمن الدولي بمركز شاثام للبحوث، فإن هذه الصناعة أصبحت معيارًا بسبب تكلفة تجويد المراقبة من الفضاء الخارجي، وقدرتها على رصد الأهداف بدقة متناهية. وترى باتريسيا أن أنظمة الأقمار الاصطناعية هذه لن تُستخدَم في تطبيق القانون فحسب، بل سيستفيد منها العاملون كلهم في مجال الأمن الدولي (تعد اتفاقيات الحدّ من تجارة المخدرات وانتشار الأسلحة أهم الأولويات التي تخدمها تلك التقنية). وتضيف باتريسيا في مقابلة مع كيرون مونكس من قناة (CNN) التقنية: «التجسس عن طريق الأقمار الاصطناعية يحارب الجريمة من الفضاء». ولكن، مع تطور تلك التقنية لدرجة مكّنتها من تحديد ملامح وجه الإنسان، ستظهر في المشهد حتمًا تساؤلات أخلاقية حيال انتهاك حقوق الخصوصية.

وفي مقال حمل عنوان **خطر المراقبة بالأقمار الاصطناعية The Menace of Satellite Surveillance**، ونُشِر في موقع منظمة علّم نفسك، في التاسع عشر من يونيو عام 2013م، كتب الباحث المؤلّف جون فليمنج افتتاحية تقشعر لها الأبدان، يقول فيها: «تستطيع أقمار التجسس الاصطناعية رصد كل حركة يقوم بها الإنسان حيثما كان: داخل البيت، أو داخل غرفة نائية، أو مسافرًا

بسيارته التي تجتاز المسافات بسرعة مذهلة على طريق سريع، ومهما كانت طبيعة الطقس... إذ ليس ثمَّة مكان للاختباء منها على وجه البسيطة».

وحسب ما ذكر فليمنج. فإن الأمر يتطلب ثلاثة أقمار اصطناعية فقط لمراقبة كوكب الأرض من أقصاه إلى أدناه، مع قدرة فائقة على اكتشاف أيِّ شيء يحوم فيه، ثم إرسال البيانات إلى أجهزة الحاسوب على الأرض للبحث عن نشاط محدَّد. فتأمَّل هذه القوة الرئيسة التي تقف خلف هذا النوع من الرقابة (الحكومة، ووكالات الاستخبارات، بما فيها الدفاع والجيش، والشركات التي تعمل في مجال الدفاع مثل شركتي لوكهيد وبوينج). تلك هي إذن الدوافع الأساسية للتجسس على العالم من الفضاء الخارجي. وبالرغم من أن التجسس بوساطة الأقمار الاصطناعية كان معروفًا منذ عقود (كلنا يذكر اليوم مقترح الرئيس الأمريكي ريغان «حرب النجوم» الذي يعود إلى مطلع ثمانينيات القرن الماضي)، فإن التقدم المذهل الذي حقَّقته التقنية جعلها تُستخدَم في أعمال عدائية على نطاق واسع، مع قدرة فائقة على مراقبة حركة العديد من الأفراد في أيِّ وقت.

يحذِّر فليمنج من الجمع بين المراقبة من الفضاء والتقنيات التي تقدح في ذهن الإنسان بحثًا عن أصل الأفكار والعواطف، ثم قراءة كل ما يدور في عقل الإنسان من الفضاء. وعلى كل حال، فإن الفرص ما تزال محدودة لمراقبة كل فرد من الفضاء في أيِّ وقت. وحتى لو لم يكن الفرد عضوًا في مجموعة إرهابية، أو لم يوجد أيُّ سبب معروف يستدعي مراقبته أساسًا، فما زال يوجد دائمًا هذا الشعور المروِّع بوجود شخص ما في السماء يستطيع مراقبتك، إذا كان ثمَّة مَن يريد هذا. إضافةً إلى ما يحمله المستقبل من وعد أكبر بتنامي تلك الفرص التي تمكِّن من مراقبة كل فرد على وجه الأرض.

وبالرغم من ذلك كله، فإن ثمّة عناصر صغيرة اليوم، قريبة جدًا من بيتك، تستطيع التجسس من نافذتك، ومن جدار بيتك، أو تتبعك في الأزقّة ووسط الغابات حتى بيت جدّتك، أو حيثما يمّمت وجهك.

عالم الطائرات الآلية

تعد المراقبة بالطائرات المسيَّرة من دون طيار مولودًا جديدًا في الميدان، تستخدمه الوكالات الحكومية والجهات المسؤولة عن تنفيذ القانون - بوصفه «دولة بوليسية غير مأهولة»- أسلوبًا جديدًا للمحافظة على سلامة الجماهير. وكل يوم تحمل إلينا الأخبار تنامي ظاهرة استخدام الطائرات الصغيرة التي تُوجَّه بجهاز تحكم عن بُعد للأغراض التجارية أو الأهداف الأمنية. وبالرغم من ذلك، فقلة قليلة فقط هي التي بدت مهتمة لأمرها، حتى عرفنا أنه استُخدِمت واحدة منها في الحرب (تُستخدَم أيضًا للحيلولة دون نشوب الحروب!). ولكن، تأمَّل هذا: تستخدم العديد من إدارات الشرطة في المراكز الحضرية الكبرى طائرات من دون طيار لتبقي المجرمين تحت بصرها، وتتوقع وكالة الطيران الاتحادية أن عدد هذا النوع من الطائرات سيتجاوز سبعة آلاف طائرة مدنية تُحلِّق في السماء ببزوغ فجر عام 2020م، فضلًا عن أُخرى تُحلِّق من دون إشراف أيِّ جهة عليها. وفي الحقيقة، لا توجد اليوم أيُّ قوانين حاكمة تُنظِّم استخدام الطائرات من دون طيار: ما يعني أنه يمكن لكل مَن يرغب في إضافة واحدة منها لتُحلِّق في السماء أن يفعل، بمَن فيهم القائمون على تطبيق القانون الذين يمكنهم إقناع مواطنيهم بفوائد استخدامها للسلامة العامة. ومع رصد الكثير منها مُحلِّقًا في السماء، فلا أحد ينكر اليوم تصاعد وتيرة معارضة استخدامها:

إذ كشـف مؤتمر الهيئة الوطنية التشريعية عن تلقيه أكثر من سبعين دعوى، من أربعين ولاية، تتعلق باستخدام الطائرات من دون طيار.

على صعيد آخر، أدى استخدام طائرات من دون طيار في البلاد إلى نوع جديـد مـن المراقبة الجوية الاعتيادية (الروتينية) التي جعلت الناس أكثر ميلًا إلى الإثارة، وأفضى أيضًا إلى ظهور نوع جديد من التمرد؛ إذ يستعملها بعض الأشـخاص لاصطياد الطيـور. وبالحديث عن الطيور، أفادت التقارير الإخباريـة الأخيـرة في البـلاد أن الطيور، ولا سـيما تلك الكبيـرة الجارحة، أسقطت تلك الطائرات بعدما رأت فيها «تهديدات أجنبية دخيلة» لموطنها!

ولمَّا كانت هذه الطائرات تُحلِّق على ارتفاعات منخفضة، ما يجعل رؤيتها أكثر وضوحًا مـن الأقمـار الاصطناعيـة التـي تُسـتخدَم في المراقبـة وآلات التصويـر المخفية؛ فإن على المرء أن يتسـاءل عمَّـا يمكن أن تمثِّله من تهديد حقيقـي لانتهـاك الخصوصيـة. وفي المقابل، فقد تكون هـذه الطائرات نعمة عظيمة في حالات كثيرة، مثل: اسـتعمالها لحسـم الصراعات، واستخدامها علـى أرض المعركـة، وفي مطـاردة المجرمـين في المناطق الخطـرة، أو دخول الجيش أو الشـرطة المناطق الجغرافية ذات التضاريس المعقَّدة. وبالطبع، فإن هذا النوع من الطائرات الذي يُسـتخدَم في حروب ما وراء البحار يكون مُزوَّدًا بأسـلحة تقنية، بيد أن السـلطات التشـريعية طالبت بحظر ذلك على الطائرات التي تُسـتخدَم محليًّا، وطالبت أيضًا أن يُسـمَح باستخدامها فقط في أثنـاء اندلاع حالات شـغب مـا، أو في الحالات الطارئة؛ ذلك أنها تسـاعد على تحديد أماكن التجمعات والبؤر الساخنة، إضافةً إلى جمع الأدلة.

أمَّـا أخطـر المشـكلات التـي قـد تنجـم عـن اسـتخدام هـذه الطائرات، فتتمثَّل في استعمال الإرهابيين لها. ففي شهر أكتوبر من عام 2014م، حلَّقت

طائرات عدَّة من هذا النوع فوق محطة فرنسا للطاقة النووية، وتناقلت وسائل الإعلام الأخبار يومئذٍ؛ إذ تردَّد أنها حلَّقت أيضًا فوق بعض المواقع في جنوب شرقي البلاد، مثل محطة كرايس- مالفي للطاقة النووية، وكان ذلك يتم في معظم الأحيان ليلًا، وفي ساعات الصباح الأُولى.



طائرة من دون طيار، من طراز (MQ_9)، تُعرَف باسم الحصَّادة، في مهمة أثناء عملية ترسيخ الديموقراطية في أفغانستان عام 2007م. المصدر: سلاح الجو الأمريكي.

وبالرغم من أن القوات الجوية الفرنسية حاولت جاهدةً التقليل من حجم التهديد، مُتذرِّعةً بأن تلك الطائرات الصغيرة هي طائرات تجارية أساسًا، ولهذا فهي أصغر من أن تمثِّل أيَّ تهديد؛ فإن بعض المنظمات، مثل جمعية السلام الأخضر، لم تُصدِّق هذه الرواية، متهمةً القيادة الفرنسية بالتقليل من شأن أيِّ تهديد حقيقي قد تمثِّله تلك الطائرات المجهولة التي ربما تكون مُزوَّدة بأسلحة. وفي مدينة نيويورك، أفصحت الشرطة عن مخاوف جادة من سقوط تلك الطائرات في قبضة الإرهابيين؛ إذ يبدو الأمر جليًّا والخطر ماثلًا. وبالحديث إلى مراسل قناة كولمبيا الإخبارية جيف بيجز، فقد أفاد

أن الشـرطة لا تملـك أيَّ معلومـات اسـتخباراتية تؤكِّد وجود تهديد وشـيك، بـل هو مجرد قلق وهاجـس من احتمال اسـتخدام تلـك الطائرات في هجوم مسـتقبلًا، ناقلًا عن نائب مدير الشـرطة سلفاتور ديباس قوله: «إننا ننظر إليها بوصفها شيئًا يمكن أن يكون أداة إرهابية». ولمَ لا؟ لأن التحكم في هذه الطائـرات الصغيرة يكون عن بُعْد، فيمكن تزويدها بأسـلحة تشـمل غازات سـامة وأسـلحة جرثوميـة، ويمكنهـا التحليـق مـن دون رصدهـا حتـى تنهي مهمتهـا القـذرة. وللحقيقة، فقد انزعج مسـؤولو شـرطة نيويورك كثيرًا، ولا سـيما بعد أن وجد اثنان من أعضائها العاملين في وحدة الطيران: الضابط داريل مودسلي والرقيب أنتونيو هيرنانديز أنفسهما وجهًا لوجه أمام طائرة مـن دون طيـار قبـل أن يسـتطيعا تمييزهـا عندما كانـا يُحلِّقـان بطائرتهما المروحيـة ليـلًا. يقـول هيرنانديز عن هـذه الحادثة: «كنا نُحلِّق في الظلام، ونحـن نضع منظـار الرؤية الليلية علـى أعيننا، محاولين إنجـاز مهمتنا، ثم فجأة وجدنا هذه الطائرة على مستوى ارتفاع تحليقنا من دون سابق إنذار».

لم يكن للرجلين أدنى فكرة عن الجهة التي تمتلك هذه الطائرة، أو العمل الـذي تسـتطيع تنفيـذه. يقـول مودسـلي: «أنت لا تسـتطيع معرفـة النوايا... عدائية، ترفيهية: فثمَّة طرائق عدَّة تدفعك إلى تفسير أمر كهذا».

مـن جانب آخر، اكتشـف الهـواة عالم صناعة هذا النـوع من الطائرات، وأصبـح بإمكان أيِّ شـخص اليـوم اقتنـاء العُدَّة اللازمة مـن أيِّ مكان، بعِدَّة مئات إلى عِدَّة آلاف من الدولارات، حسـب الاسـتطاعة. ليـس هذا فحسب، بل ظهرت اليوم أندية كثيرة لصناعة الطائرات من دون طيار ودفعها لتُحلِّق في السـماء. وللمرء أن يسـأل هنـا: كيف لنـا أن نميِّز الطائرات التي تسـاعد علـى تطبيـق القانون، والتي تتجسـس علينـا، من تلك التي يسـتغلها شـخص

ما، ليتطفل علينا بعد أن نتحرر من ثيابنا ليلًا. ربما تشيع حكايات المدنيين الذين يسقطون مثل هذه الطائرات في المستقبل كثيرًا.

في عام 2015م، تقدَّمت وكالة الطيران الاتحادية باقتراح يتضمن تنظيمًا جديدًا لعمل الطائرات من دون طيار، قديفتح المجال أمام أكثر من سبعة آلاف شركة أهلية جديدة ترغب في تشغيل طائراتها الخاصة من هذا النوع. ويفضي الاقتراح أيضًا إلى تسهيل تحليق هذه الطائرات بعيدًا عن خطوط الملاحة المعروفة للطائرات العادية (حتى لا تكون عائقًا في حالات الإقلاع والهبوط)، إضافةً إلى الوضوح التام (الشفافية) مع الحكومة بخصوص مجالات استخدام تلك الطائرات، وضرورة حصول مستخدميها على الشهادة الأساسية الخاصة بالسماح للشركات الخاصة باستخدامها. وفي حال اعتُمِدت هذه التنظيمات، فإنها حتمًا ستفضي إلى قواعد منظَّمة أوسع قد تسمح بتحليق مزيد من تلك الطائرات في السماء؛ نظرًا إلى ما قد تواجهه وكالة الطيران من ضغوط من جهات عدَّة:، مثل: الشركات، والمؤسسات، والجهات المسؤولة عن تطبيق القانون، والحكومة، والشركات العسكرية التي تدرك فوائد تلك الطائرات. ومن المؤكد أننا سنستفيد -نحن المواطنين- من ذلك كله، ولكن - في الوقت نفسه- ثمَّة مخاطر تتمثَّل في تغطية السماء بعيون صغيرة وآذان تتجسس على تفاصيل حياتنا كلها، وربما يحدث الأسوأ عندما تُزوَّد تلك الطائرات بالأسلحة.

وبوجه عام، يصعب على الإنسان كثيرًا عندما يتطلع إلى أعلى أن يرى أداة التحكم الصغيرة تلك تحوم خارج نافذته، من دون أن يتمنى انطباق السماء على الأرض، وهذا هو الشعور نفسه الذي يخالج -لا شك- أولئك الذين يرون أراضيهم قد اغتُصِبت، وانتُهِكت خصوصيتهم. تمنح هذه الطائرات التي تلتقط الصور في أثناء تحليقها الأشخاص شعورًا مفعمًا

بالعظمـة والخوف أيضًا، ولا سـيما أن النـاس يعانون أساسًـا هوس التقنية التي تتجسس عليهـم. فاليوم أصبحت الطائرات التـي يُتحكَّم فيها عن بُعد شيئًا من الماضي، مُفسِحةً المجال أمام الطائرات مـن دون طيار لكي تحوم في الحي القريب منك.

زراعة الرقائق

تعـد زراعة الرقائق أحد أكثر أشـكال المراقبة والإشـراف مكـرًا ودهاءً، وهـي تُـزرَع تحـت الجلد، نعم هكـذا. وكان أنصـار نظريـة المؤامرة يتحدثون دائمًا عن اليوم الذي يُسيطَر فيه على الإنسان بوساطة شرائح ما، تمامًا مثل الحيوانـات. لا تحتـوي الرقائق المتكاملة على بياناتنـا الوراثية كلها فحسـب، بل على سـجلاتنـا الطبية، وتاريخنـا المصرفي، وسجلات توظيفنا؛ إذ تتحوَّل هويتنـا إلى شـريحة متناهية الصغر تُـزرَع في مكان ما تحت الجلد، ويحدث هـذا غالبًـا رغمًـا عنَّـا أو من دون علمنـا، وتُمكِّن هـذه الرقاقة أو الشـريحة شخصًا ما من اقتفاء أثرنا عن طريق أدوات التحكم عن بُعد.



مجموعـة مـن شـرائح التعريـف الإشـعاعية التجاريـة التـي استُخدِمت قديمًـا.
المصدر: ويكيبيديا، بموجب رخصة التوثيق المجانية.

مرحبًا بكم في عالم التعريف بالشرائح الإشعاعية التي هي رموز في صورة شرائط دقيقة لاسلكية ذكية موصولة بقارئ إلكتروني، تستطيع تمييز الأشياء التي نشتريها من المحال التجارية مثل الأغذية والمنتجات، وأحسب أنها شيء مألوف للجميع، أليس كذلك؟ وها هي اليوم قد دخلت الخدمة لتتبُّع أثر الشاحنات والحيوانات الأليفة، وحتى الأشخاص المصابين ببعض الأمراض مثل الزهايمر. تحتوي هذه الشرائح على معلومات مُخزَّنة بطريقة إلكترونية تُرسَل خلال تردُّدات إشعاعية إلى موقع التقاط المعلومات، وهو ما جعلها ملائمة للشركات التي ترغب في متابعة منتجاتها في أثناء مرحلتي التصنيع والشحن، بل حتى متابعة الحيوانات.

بيد أن وصول الشرائح التي تحوي معلومات شخصية مزروعة في جسم الإنسان إلى أيدي العابثين والمتطرفين يثير مخاوف حقيقية بشأن انتهاك الخصوصية. تُصنَّف هذه الشرائح إلى نشطة، وسالبة، وخاملة تعمل بمساعدة بطارية. ويفتقر النوع الخامل غالبًا إلى البطارية، ولهذا نجده أقل حظوة من النسخة النشطة أو تلك السالبة التي تحتاج إلى بطارية؛ لأن النوعين الأخيرين يتميزان بالقدرة على تحويل إشارات الهوية إلى قارئ الشرائح دونما تدخل كبير. تجدر الإشارة هنا إلى وجود نوعين من أجهزة القراءة: قارئ نشط يقرأ بيانات الشرائح الخاملة؛ إذ يرسل الإشارات المُشفَّرة إلى نظام القراءة، ويستقبل - في الوقت نفسه- التوثيق من الشرائح الخاملة. أمَّا النوع الثاني فيقرأ بيانات الشرائح النشطة التي تتقاطع مع شرائح نشطة من قارئ نشط. ويستخدم هذا النوع أيضًا في قراءة بيانات الشرائح الخاملة المدعومة بالبطارية. أجل، قد يبدو الأمر مربكًا نوعًا ما، ولكن اطمئن؛ إذ يمكن للشريحة الصحيحة أن تنسخ المعلومات الصحيحة

وترسلها بناءً على دوافع الشركة التي تستخدم الشرائح، وهدفها من تلك المعلومات. ويتلخص الأمر كله في حقيقة واحدة: مُرسِل للبيانات (أو مُستقبِل لها)، يمكن زرعه في أيِّ شيء لاقتفاء أثره، وتحديد موقعه.

تستخدم هذه الشرائح نطاقات تردُّدية مختلفة من موجات الطيف الإشعاعية لعمل الإشارة ثم نقلها، والأمر سيَّان إن وُضِعت قرب هوائي القارئ أو بعيدًا عنه؛ لذا تطفو قضايا انتهاك الخصوصية على السطح أمام هذه الحقيقة التي لا لبس فيها، مُؤكِّدةً أن الشرائح الصغيرة تُزرَع في الأشياء من دون أن ندرك هذا في أغلب الأحوال، ونجهل أيضًا إذا كانت تنقل معلومات من بطاقاتنا المصرفية، وبطاقات التسوق، وسلوكنا الاستهلاكي، وأفعالنا، فضلًا عن المعلومات التي تتعلق بهويتنا وحساباتنا المصرفية.

يجب ألَّا ننسى أن هذه الشرائح تُواصِل نقل المعلومات لحظة أَخْذِنا الأغراض التي نشتريها من المحال التجارية إلى بيوتنا، وهو ما يجعلنا نعتقد أن مهمتها فقط هي المراقبة بمنأى عن عاداتنا الاستهلاكية. ويجب التنبيه هنا لضرورة الاهتمام ببطاقات الشراء التي تُوزِّعها الأسواق وبطاقات الائتمان التي قد تظل ترسل المعلومات باستمرار، أو تكون ملاحقة دائمًا من مصدر خارجي للحصول على معلومات منها (يمكن تغطية البطاقة بالقصدير لتجنب ذلك).

وتبقى إمكانية الاستخدام البشري تمثِّل التهديد الأخطر، فهل ستُقدِم الحكومة يومًا ما على زرع هذه الشرائح في أجساد الناس رغمًا عنهم، أو أنها ستضطر إلى سلبهم حقهم في شراء المنتجات والخدمات إذا هم رفضوا؟ هل يطل (الإخوة الكبار) برؤوسهم هنا أيضًا مطالبين بأن يصبح

هذا النوع من تحديد هوية الإنسان معيارًا أساسيًّا، ويُعاقَب كل مَن يرفضه؟ هل ستُزرَع في جسدك تلك الشريحة في أثناء زيارتك القادمة للمستشفى عندما يبرد جسمك بسبب التخدير، من دون أن يخبرك أحد بما حدث لك؟ ربما يكون هذا كله قد حدث فعلًا من دون أن تدرك أنه ثمّة مَن يرصد حركاتك وسكناتك كلها، أو قُلْ حتى كل ما تقوم به من عمل.

صحيح أننا نتفهم جيدًا وضع رقعة أو بطاقة في أحد أجزاء جرار، لمساعدة الشركة الصانعة على مراقبة صناعتها وتجويدها خلال خط التجميع، لكننا لا نفهم سِرَّ إجبار الإنسان على زرع بياناته كلها (تاريخه المرضي، ووضعه المالي، وتحصيله العلمي، وغير ذلك من بيانات هويته) تحت جلده - بوصف ذلك جزءًا من نظام تحديد الهوية الوطني- من أجل تسهيل الحصول على أيٍّ من البيانات في أيِّ وقت، من دون علمه أو شعوره.

فها هو (الأخ الأكبر) يراقب -طوال الوقت- من كل زاوية ممكنة. والسؤال الذي قد يتوارد إلى الذهن هو: ما الثمن الذي يتعين علينا دفعه من خصوصيتنا الثمينة من أجل سواد عيون السلامة والأمن وأرباح الشركات العملاقة التي تريد معرفة ما نشتريه ونستخدمه؟ ختامًا، قد نكون خاضعين فعلًا لنوع ما من المراقبة دائمًا، ولكننا نستطيع أن نشير بأصابعنا إلى أولئك الذين سخَّروا قدرات التقنية الحديثة لمراقبتنا، وأولئك الذين يختبئون خلف الستار، ويستخدمونها للتجسس علينا.

الخاتمة

مَن يملك عقلك؟

«لا شك أن عدم تمتعك بعقل منفتح يكمن في وجود المتطفلين الذين يسعون جادين لاقتحامه وتغذيته بما يريدون».

تيري بردشيت

«اعتمادك على الحكومة لحماية خصوصيتك أشبه ما يكون بالطلب إلى خانع ذليل أن يُثبِّت نافذة بيتك وهو معصوب العينين».

جون بيريبارلو

تذكرون الدكتور مايكل بيرسنجر الذي تحدثنا عنه في كتب سابقة، أستاذ علم النفس وعلم الأعصاب بجامعة لورنتيان في أونتاريو بكندا، العالِم الذي يحظى باحترام كبير. عمل بيرسنجر في مجال الحقول الكهرومغناطيسية وتأثيراتها في الدماغ البشري، وحفز فص المخ مؤقتًا إلى إثارة الإحساس لدى شخص معين بأنه يخضع لرقابة ما، وتتراءى له ظلال لأجسام خارقة لا يعرف لها تعليلًا، وتنتابه أحاسيس شاذة غريبة قد تتطور إلى كوابيس مفزعة. وكان مقاله «إمكانية الوصول المباشر لأيِّ عقل بشري

عن طريق الطاقة الكهرومغناطيسية التي تعمل على التحفيز باستخدام عمليات رياضية مقنَّنة» قد أحدث صدًى مدوِّيًا في عالم السيطرة على العقل. نُشِر المقال أول مرة عام 1995م في مجلة المهارات الحسية والحركية، ثم ظهر لاحقًا -وما يزال- في العديد من المواقع العلمية والمواقع التي تُعنى بنظرية المؤامرة.

كان بيرسنجر يعتقد جازمًا باحتمال تحقيق إنجاز مذهل باستخدام العمليات الرياضية المقنَّنة التي تؤدي إلى توليد طاقة حسية داخل شيفرة محدَّدة من المخ، حسب ما جاء في مقاله الآنف الذكر. يُستخدَم في التحفيز المباشر نماذج كهرومغناطيسية تحتاج إلى مستويات من الطاقة (تقع ضمن نطاق نشاط الشبكات الأرضية، وشبكات الاتصالات الحديثة). وقد تقترن هذه العملية بالحزمة الضيقة لدرجات حرارة الدماغ، ما يسمح للعقول البشرية العادية كلها أن تتأثر بنغمة توافقية فرعية يبلغ تردُّدها نحو (10) هيرتز، ولا يزيد الاختلاف عن هيرتز واحد فقط.

أدرك بيرسنجر أن التقدم التقني والبحث العلمي في علم الأعصاب خلال العقود القليلة الماضية التي ترافقت مع التطورات في مجال التقنية كانت تؤدي -حسب تعبيره- إلى قدرة a potential لم تكن مرئية في ذلك الوقت. إن تلك القدرة هي «الطاقة التقنية للتأثير مباشرة في الجزء الأكبر لنحو ستة بلايين دماغ من الأنواع البشرية، من دون تدخل بوساطة الطرائق الحسية التقليدية، من خلال توليد معلومات عصبية داخل وسط مادي تنغمس فيه أعضاء الأنواع كافة».

والآن، يمكنـك قـراءة هذا الأمر وإعـادة قراءته مرة تلـو الأُخرى، ولكن وعلـى كل حـال، يبقـى المعنـى الضمنـي هـو نفسـه؛ فنحـن قـاب قوسـين أو أدنـى مـن النجـاح، إن لم نكن قد نجحنا فعـلًا، في تحقيق تقنيات نسـتطيع بوسـاطتها السـيطرة على عقول الجماهير على مسـتوى العالم، سواء كانت هذه الرقابة بصورة برمجة عصبية تهدف إلى تغيير معتقداتنا وسلوكنا، أو بأيٍّ شكل من أشكال التلاعب بالوعي الجمعي؛ فالاحتمال إذن قائم من أجل تحقيق أهداف إيجابية أو خبيثة. وليس ثمَّة شـك أن الحكومات والمنظمات العسـكرية والمؤسسات والشركات كلها تشجع العلماء لمساعدتنا على تسخير عقولنا لخدمتنا. ولكن، هل لدينا خيار في هذا الأمر؟

توجـد حكايتـان تردَّدتا في الأخبار، تُعبِّران عن نظرة مرعبة تقشـعر لها الأبـدان لهـذا العالم الشـجاع الجديد الذي نواجهه؛ الأُولـى: «يزعم العلماء المتخصصـون في السـيطرة على العقل، قدرتهم على تغييب الوعي»، حسـب ما أورده نِك ويست في مجلة سلوث، في عددها الصادر في يوليو عام 2014م. تُعنى هذه الحكاية بمشـروع حافة العقل **cutting-edge BRAIN** في الولايات المتحـدة الأمريكيـة، ونظـيره البريطـاني **عقـل الإنسـان HUMAN BRAIN** اللذيـنِ يهدفـان إلـى اختبـار إمكانيـة تعارض العقـل والحاسـوب، وغرس الذاكـرة أو مسـحها، وحتـى تحميل المعلومات مباشـرة في المخ. بيـد أن زَعْم علماء جامعة جورج واشـنطن يعد الأكثر غرابة، وهو زَعْم نُشِـر في صحيفة الصرع والسـلوك، حسـب ما نقلته العالمة الجديدة هيلين تومسون في مقالها الذي نُشِـر في شـهر يوليو عام 2014م: «اكتشـاف زر في أعماق المخ يعمل على تشغيل الوعي وإيقافه».

من جانب آخر، تمكَّن فريق العلماء بقيادة العالم المتخصص في علم الأعصاب محمد كبيسي من تنشيط وعي امرأة ثم تعطيله عن طريق تحفيز حاجز مخها (طبقة رقيقة من الخلايا العصبية متصلة بالجانب السفلي من القشرة المخية وسط الدماغ)؛ إذ كانت المرأة مصابة بمرض الصرع، فوُصِلت دماغها بأقطاب كهربائية، كان أحدها على مقربة من طبقة الخلايا العصبية الرقيقة تلك، في منطقة لم يسبق أن حُفِّزت قطُّ في أيِّ دراسة.

وكانت النتيجة أن فقدت وعيها حين صُعِقت بنبضات كهربائية عالية التردُّد، لتستعيده فورًا بعد إيقاف التحفيز. لكنها لم تعد تتذكر أيَّ شيء مما حدث في المرحلة التي سبقت لحظة فقدان الوعي!

والحكاية الثانية: «قد يعني علم الأعصاب جنودًا يسيطرون على الأسلحة عن طريق سيطرتهم على العقول». نُشِرت هذه الحكاية في صحيفة الجارديان البريطانية، في عددها الصادر في فبراير عام 2012م، وترى أن المشروع الأمريكي الذي سبق الحديث عنه في الحكاية الأُولى يفضي إلى جنود أفضل، عن طريق الربط المحكم بين عقولهم وأسلحتهم، ويحفز الأسرى والأعداء إلى الفضفضة، ويجعل قوات العدو تدخل في سبات عميق. كل هذا يمكن تحقيقه عن طريق إمرار إشارات كهربائية ضعيفة إلى الجمجمة باستخدام تيار مباشر للتحفيز.

الكل إذن يمكن أن يخضع للسيطرة على عقله عن طريق إدخال الصوت في الجمجمة وتأثيره فيها... ربما لم يعد عقلنا بعد اليوم، وحتى وعينا، ملكًا خاصًّا نوجهه كيف نشاء.

وعـودًا إلـى عـام 1975م، فقـد ناقشـت الجمعيـة العامة للأمـم المتحدة مقترحًا تقدَّم به الاتحاد السوفييتي (سابقًا)، يقضي بحظر تصنيع أسلحة الدمـار الشـامل وتطويرها، وكل ما يتعلق بها مـن أنظمة، وكان من بين أهم تلك الأنظمة التي شملتها القائمة:

1. الأسلحة الإشعاعية التي تفضي إلى تأثيرات مماثلة لتلك التي يسبِّبها الانفجار النووي.
2. الأسـلحة المشـعة التـي تحـوي جزيئـات مشـحونة أو محايـدة تؤثِّر في الأهداف الحيوية.
3. الأسلحة المشعة التي تخترق حاجز الصوت.
4. الأسـلحة الكهرومغناطيسـية التـي تعمـل ضمـن تـردُّدات إشـعاعية محدَّدة، تضرُّ بالأعضاء البشرية.

وللأسف الشديد، لم يستجب الغرب للمبادرة، في حين أُبرمت معاهدات أُخرى وعُدِّلت، مثل معاهدات حظر الأسلحة البيولوجية والكيميائية (سواء على أرض المعركة، أو في شوارع المدن). ولكن على ما يبدو، لم يكن بينها أيُّ معاهدة تحظر غزو العقل البشـري، واسـتخدام وسـائل أُخرى مثل الموجات الكهرومغناطيسـية، وتلك التي تخترق حاجـز الصوت للملاحقات الفردية، والتشـجيع علـى اعتمـاد الأسـلحة غيـر الفتاكـة في الاعتـداء علـى الحقـوق والحريـات، خاصـة من الجهات المسـؤولة عـن تطبيق القانـون على المدنيين (تعبير لطيف).

ربما توصلت بعض السلطات إلى اتفاق يقضي بعدم تبادل التهم بين بعضها بعضًا. بيد أنه ليس ثمَّة ما يحول بينها وبين اللجوء إلى تقنية السيطرة على العقل الحديثة لغزو عواطف الإنسان، وأفكاره، وسلوكه وأفعاله، وتغييرها، والتلاعب بها. وعلى أقل تقدير، فإن ذلك لن يتسبَّب في إزهاق روح أيِّ إنسان. أليس كذلك؟

وحسب ما ذكرت جودي وول محررة بحث «الرنين: مجموعة الاهتمام المشترك للكهرومغناطيسية الحيوية»، ونشرته في مقالها «الاستخدام العسكري للصوت الكاتم: أسلحة السيطرة على العقل»: فإن الأسلحة النفسية التي استُخدِمت في حرب الخليج (العربي): «اشتملت على تقنية تؤثِّر في منطقة اللاوعي للتلاعب بالعقل... بُثَّت عن طريق موجات لاسلكية قياسية»؛ حتى إن الأخبار التي تناقلتها بعض المصادر في شهر مارس من عام 1991م، أفادت أن استخدام الأسلحة النفسية قد بدأ مباشرة بعد تدمير نظام القيادة والسيطرة في جيش صدام حسين. وقد وصف أحد مصادر الأخبار آنئذٍ تلك الحرب النفسية التي تعرَّضت لها القوات العراقية في أثناء عملية عاصفة الصحراء، بالقول: «تقنية الحرب النفسية الفائقة تصل الشرق الأوسط»؛ إذ تفوَّقت مُرسِلات القوات الأمريكية على محطات الإرسال العراقية المحلية، ثم شرعت تبث موسيقى وطنية ودينية، إضافةً إلى تعليمات وأوامر عسكرية وأخبار غامضة متناقضة مربكة. تقول وول: «ربما شمل هذا أيضًا مزيدًا من التركيز في العمل على تقنية اللاوعي القوية التي اعتمدت نظامًا إلكترونيًّا متطورًا، يخاطب عقل المستمع مباشرة، لتغيير موجات دماغه، والتلاعب بالتيار الكهربائي الذي تحدثه خلايا دماغه، ثم حقنه بمشاعر وعواطف سلبية مصطنعة، مثل: الخوف، والقلق، واليأس».

ولعل هذا هو السبب - بحسب تأكيد وول- الذي جعل أفراد القوات العراقية يستسلمون فيما بعدُ زرافات ووحدانًا، بمَن فيهم كبار القادة من ألوية وغيرهم، الذين سلَّموا وحداتهم كاملة بكل ما تحويه من عُدَّة وعتاد. فأيُّ رسائل أُقحمت في عقول أولئك الجنود الذين كانوا يقاتلون دفاعًا عن مبادئهم، ثم فجأة انقلبوا عليها وتخلوا عن كل شيء فاستسلموا؟

في عام 1992م، طوَّر الدكتور أوليفر لوري من نوركروس بجورجيا «نظام تعريف اللاوعي الصامت» الذي يؤكِّد «إمكانية إرسال الناقلات المعدَّلة مباشرة في الوقت الفعلي، ويمكن تسجيلها بسهولة وتخزينها في وسط ميكانيكي أو مغناطيسي أو بصري؛ لإرسالها لاحقًا، أو إعادة إرسالها إلى المستمع». والعجيب الغريب أن الأمر اليوم لم يعد يقتصر على نقل الرسالة عن طريق الأشعة مرةً واحدةً فحسب، بل أصبح ممكنًا تخزينها وتكرار إرسالها حسب ما تريد. يطلق إدوارد تيلتون رئيس شركة الأصوات الصامتة على هذه التقنية اسم (S-quad). وتبعًا لما أُشيع في خطاب مؤرَّخ في الثالث عشر من ديسمبر عام 1996م، وموجَّه من جودي وول إلى مجلة نكسس؛ فإنه يمكن «استعمال أجهزة حاسوب عملاقة لتحليل طبيعة العاطفة الإنسانية التي تنشأ عن التيار الكهربائي الذي تصدره خلايا المخ، والعمل على تكرارها وتوالدها، ثم تخزين هذه النماذج العاطفية في جهاز حاسوب آخر يغريها بصمت لتغيير الحالة العاطفية في الشخص المعني». والمثير للاهتمام حقًّا أن شركة الأصوات الصامتة أكَّدت تصنيف نظامها هذا من الحكومة الأمريكية، واستخدمته الحكومة الألمانية وحتى السوفييت... استعد ربما لسماع الخبر الأكثر إدهاشًا: «استُخدِم هذا النظام في عملية عاصفة الصحراء في العراق بنجاح تام».

حسنًا. نود هنا توجيه رسالة مهمة إلى الداخل: إذا كان ظهور هذه التقنية يعود إلى مطلع تسعينيات القرن الماضي، ولم نفعل أيَّ شيء حتى الآن لمنعها، فما الذي قد نواجهه اليوم؟ هل كسب الرهان أولئك الذين يسعون للسيطرة علينا؟ لقد انقضت عقود منذ ذلك الوقت. وما نزال نتعامل بوسائل ربما لم يكن سهلًا تصورها قبل خمسة وعشرين عامًا. لقد تغيَّرت الأشياء كثيرًا، فلماذا ينكر الجميع أن هذا الأسلوب في التفكير قد عفَّى عليه الزمن؟

فنحن نعيش اليوم عصر الطائرات الآلية مختلفة الحجوم التي تحوم في السماء، ونحمل آلات التصوير في هواتفنا النقالة كلها، ونثبِّتها في ناصية كل شارع بوصفها أجهزة رصد وتعقب، ولا ندري أننا نحملها... وسائل إعلام وإنترنت ووسائط تواصل اجتماعي تغزو كل لحظة من حياتنا، مدعومةً بأهداف الآخرين وأفكارهم. لنعمل ما يريدونه منَّا، ونفكِّر مثلما يريدون لنا. وتقنيات خفيَّة ماكرة ربما كنَّا نجهل أننا أول ضحاياها. إنهم يلاحقوننا، يقتفون أثرنا، يضايقوننا، يدفعوننا، يسحبوننا، يتلاعبون بنا، يغيِّروننا، يسيطرون علينا، يهدِّدوننا، يبتزوننا، يستغفلوننا، يستغلوننا، يخدعوننا... يفعلون هذا كله بجميع الوسائل الممكنة. في حين يجهل معظمنا هذا، بل قد نعتقد أنه من المستحيل أن يحدث... يبدو أن أجسادنا وعقولنا لم تعد ملكًا لنا.

هل تحب الموسيقى؟ حسنًا، حتى هذه استُخدِمت وسيلةً لتعديل السلوك، إن لم تكن قد استُخدِمت وسيلةَ تعذيبٍ صريحة: فقد أقحم علماء النفس أصوات الموسيقى الصاخبة وحتى تلك المستهجنة... مزحة سخيفة، لكن

الأمـر حتمًـا أسـوأ بكثير لأولئـك الذين تعرَّضت حواسـهم لمثل هـذا الأذى. وبالرغم من أن الأمم المتحدة والمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان منعتا هذا النـوع مـن التعذيب، فإنه مورِس على سـجناء الحرب في سـجني أبي غريب وغوانتانامو اللذينِ اشتُهِرا بسوء سمعتهما؛ سعيًا لمنع انتشار الفكر المعادي، واستُخدِم أيضًـا في ملاحقة أتباع ديفيد كوريش في واكو بتكساس، واستُخدِم مـن قبلُ في شـهر ديسـمبر عـام 1989م لطـرد مانويـل نورويغـا من سـفارة الفاتيكان في أثناء غزو الولايات المتحدة الأمريكية لبنما.

ويبدو أن للموسـيقى قدرة، ليس لإضعاف العقل فحسـب، بل للسـيطرة عليه أيضًا؛ فقد نشـرت مجلة أمريكا العلمية، في عددها الصادر في أكتوبر عـام 2012م، مقـالًا عنوانـه «قـوة الموسـيقى»، يبحـث في اسـتعمال توقيعات الصوت الموسـيقية للتأثير في المخ وقدرة الموسـيقى الصاخبة على التأثير في التفاعـلات التـي تحـدث في أعماق المـخ. لقد ثبـت أن للموسـيقى قدرة على التأثيـر في مركـز العاطفة بالمـخ، إضافةً إلى تأثيرها في الدوائر التي تشـمل حركـة الجسـم، مـا يجعلها تتحكـم في العاطفـة والحركة. ووفقًـا لما جاء في المقـال، فقـد ذكرت عالمـة النفس آنيت سشـرمير، في اجتمـاع لجمعية علم الأعصاب، أن توقيعات الصوت «لا تعمل على الانسجام والتوافق بين سلوك مجموعة من النـاس فحسـب، بل تفعل الشـيء نفسـه فيما يتعلق بتفكيرهم، فتحـدث العمليـات في ذهن المجموعة بالتزامن». وهذا يفسِّـر السـبب الذي يجعل النـاس يشـعرون بنشـوة غامرة في أثناء أداء الطقوس الشعائرية التي تشـمل الموسـيقى. أمّـا الرقص في جو مترع بالنشـوة وسـريان حالة الطرب فيفسِّر أيضًا قدرة صوت الطبل والغناء وتكرار نغمات الموسيقى القبلية على تحريك النـاس بطريقة موغلة في البدائية.

وما يثير الرعب حقًّا أنه للأسباب نفسها قد يستشيط بعض الناس غضبًا وعنفًا عند سماع مقطوعات موسيقية معينة، أو يبدون قدرًا أكبر من العدوانية عند سماعهم موسيقى مبتذلة، أو نوع عنيف من موسيقى الروك آند رول، على العكس تمامًا لما يبدونه عند سماع موسيقى الرباعيات الوترية. حقًّا، إن الموسيقى تغيِّرنا وتحرِّكنا، ولكنها تبدو الآن قادرة أيضًا على التحكم في عقولنا وفكرنا، حتى في صورة مجموعات. فهل يبدو الأمر مسألة وقت فقط قبل أن نتصرف جميعًا مثل الموتى الذين يمشون على أقدامهم بعدما أُعيدت إليهم الحياة، من دون القدرة على استعادة الكلام وحرية الإرادة عندما تُعزَف في بيوتنا موسيقى عن طريق وسائل التقنية الحديثة التي وُضِعت تحت تصرفنا؟ ومع هذا، فليس ثمَّة مَن يرى في الأمر شيئًا سلبيًّا، وقد أكَّدت ذلك سشرمير نفسها في مقالها الذي أشرت إليه آنفًا: «عندما يتحرك الناس بصورة جماعية في الوقت نفسه، فثمَّة احتمال كبير جدًّا لإدراكهم العالم بالطريقة نفسها، ما يُسهِّل قدرتهم على التفاعل». وحتمًا يؤدي هذا الإدراك والتفاعل إلى أحد طريقين: طريق الخير، أو طريق الشر.

ولكن، لأننا ما نزال - نحن المؤلِّفين- متشبثين بالأمل: فلا نريد أن نختتم هذا الكتاب بعبارات قاسية يسودها جنون العظمة ويملؤها اليأس والقنوط. وبالرغم من أننا شهدنا فعلًا مختلف أنواع السيطرة على العقل والاعتداءات الإلكترونية، فإننا ما نزال نتمتع فرديًّا بقوة الإرادة وسعة الحيلة، فضلًا عن هذا العناد الذي يميِّز آدميتنا؛ فمن أجل استبقاء إنسانيتنا وحريتنا واستقلالنا، لا ينبغي لنا أن ندفن رؤوسنا في الرمال مثلما حدث في الماضي،

ويحـدث الآن، ومـا قد يحـدث مسـتقبلاً؛ فالمعرفة قوة، والوعي قـوة، والفهم أيضًـا قوة.



دميـة لمـا يُعـرَف ببوابـة العقل، توضـح كيفية إحـداث اضطـراب في المخ عن طريـق الإشـارات اللاسـلكية المسـتقبلة. المصـدر: معرض حـرب النجوم في متحف بوستن للعلوم، عام 2006م، تصوير بوول ويكس.

ولنتذكـر أيضًـا أن السـيطرة علـى العقـل قد تكون شـيئًا جيـدًا من أجل تحقيق الأهداف. وإذا كنَّا قد تعلمنا شـيئًا من حركة مسـاعدة الذات، فإنه ليس أفضل من إدراكنا ضرورة الاحتفاء بقدرة عقولنا على تشـكيل واقعنا،

وعدم الخشية أو القلق بشأنها: فقد تمكَّن الناس من تقليل الوزن، والإقلاع عن التدخين، والتمتع بصحة سليمة، ولقاء الأحبة، وتحقيق الأهداف بفعل التأكيدات، وتقنية تحديد الأهداف، والإفصاح عن النوايا، وتركيز التفكير، وحتى التنويم المغناطيسي. إذن، فليس شرطًا أن تكون الصورة كلها سوداوية عند حديثنا عن السيطرة على العقل ما دمنا نحن الذين نسيطر على عقولنا، والأمر نفسه ينطبق على أفكارنا، ونوايانا، وتركيزنا، وسلوكنا، وأفعالنا، ومصيرنا.

وفي حقيقة الأمر، فإن التقنية نفسها التي نوقشت آنفًا، وأثَّرت في العقل، يمكن الإفادة منها يومًا ما لمساعدتنا على العيش بصورة أفضل؛ فمفهوم اقتحام العقل، أو زَرْع شرائح فيه لإرسال نبضات كهربائية تعزِّز ذاكرتنا وقدرتنا على التركيز وتحقيق مزيد من الأهداف، لم يكن قطُّ بعيد المنال.

في شهر أغسطس من عام 2014م، أدلى غاري ماركوس: أستاذ علم النفس بجامعة نيويورك ومؤلِّف كتاب مستقبل العقل: مقالات بقلم أشهر علماء العالم في علم الأعصاب، بحديث لموقع (Yahoo.com Business Insider) الإلكتروني، قال فيه: «إننا في طريقنا لفهم المخ، بل حتى تشفيره: لقد تمكَّنا فعلًا من إرسال نبضات الصوت إلى داخل أدمغة الصُّم لكي نساعدهم على السمع، واستخدمنا أيضًا التحفيز الكهربائي لدراسة طبيعته، وهكذا سوف نتمكن يومًا ما من معالجة الكآبة وغيرها من الأمراض النفسية الأُخرى».

إن وضع شريحة داخل أدمغتنا ترسل شحنات كهربائية معينة لمعالجة بعض أوجاعنا قد يساعد على شحن الأدمغة، وقد نستطيع أيضًا تحريك الأشياء التي حولنا بمساعدة نبضات عقولنا الكهربائية. فيما يُعرَف

بالتوافق بين المخ والحاسوب؛ ففي عام 2011م، نجح فريق من الباحثين بجامعة براون في اختبار بوابة الدماغ، وهو أحد أنواع التداخل بين المخ والحاسوب، إذ مكّن امرأة مشلولة من تحريك مؤشر شاشة الحاسوب بمجرد التفكير في الأمر، وهو ما شرَّع الباب واسعًا على مصراعيه، ليس لترقيع الأعصاب فحسب، بل لابتكار شرائح تساعدنا على العمل باستخدام الحاسوب وفق طريقة جديدة تحافظ على خصوصيتنا. ولعلنا نستطيع يومًا ما الضغط على أزرار جهاز الحاسوب ودخول ذاكرته لكي نملأ عقولنا بمختلف أنواع المعلومات، ومع أن هذا قد يعد فتحًا عظيمًا، فإن احتمال إساءة الاستعمال يظل قائمًا. فمَن الذي يُصمِّم تلك الشرائح؟ هل نضمن عدم إقدامهم على استغلال الأمر للسيطرة على عقولنا، حتى في ظل سعيهم لزيادة قدراتها؟ ما نوع البيانات التي نستطيع الوصول إليها؟ مَن يتحكم في تدفق تلك البيانات؟ كيف تستطيع عقولنا تمييز الغث من الثمين بين تلك المعلومات؟

لا شك أننا قد نواجه أسئلة نعجز عن الإجابة عنها، ونُقْدِم على خيارات نجهل عواقبها، ولكن المشكلات دائمًا تطل برأسها عند حدوث أحد شيئين: عجزنا عن السيطرة على عقولنا، فيُترَك الأمر للآخرين لكي يتحكموا فيه. أو سيطرتنا على عقولنا وحدنا، ولكن من دون معلومات كافية، وحكمة لازمة، ومعرفة تجعلنا أهلًا لأداء المهمة على الوجه المطلوب. علمًا بأن تمتع الإنسان بالعقل لا يعني قدرته على تحقيق الفرح والسعادة والصحة والنجاح؛ إذ ينبغي أولًا استخدامه بصورة صحيحة. وتذكَّرْ دائمًا أن خسارة العقل شيء مروع حقًا، وكذلك الحال عند تحويله إلى قوى أُخرى تتعارض مع مصلحتنا.

بالرغم من أن هذا الكتاب اكتفى بنبش سطح التاريخ الخاص بمظاهر السيطرة على العقل المرعبة، فإننا نتمنى صادقين أن تكون البرامج الاجتماعية، والمضايقة الإلكترونية، والمراقبة، والتجسس قد نجحت في فتح عينيك وعقلك كما ينبغي لرغبة جامحة لمعرفة المزيد، ومطالعة المزيد لمعرفة أشمل عن هذا الأمر المفزع الذي يهدِّد وجودنا؛ فالأمر أسوأ من ذلك بكثير، ومن السهل جدًّا السقوط في تلك الأعماق السحيقة المروعة، والشعور بالعجز التام عن انتشال نفسك منها.

فأين نجد الحقيقة الكاملة عن المؤامرة المجردة ومجالاتها؟ ما حقيقة ما يكمن بينهما؟ ماذا نستطيع أن نفعل إزاء ذلك؟ أليست القوى التي تقف خلف هذه التقنيات والأهداف هي التي تمنعنا من عمل أيِّ شيء حيال الأمر كله؟ نعم، لا شك في ذلك، ولكن عندما نسمح لهم فقط.

«مشكلات أمريكا كلها هي نتيجة دفع الناس إلى تصديق أشياء غير صحيحة».

ستيفن جاكوبسون، مؤلِّف سلسلة «سيطرة العقل في أمريكا. أمريكا... انهضي» السمعية

المصادر والمراجع

ACLU. "New Documents Show FBI Targeting Environmental and Animal Rights Groups Activities as 'Domestic Terrorism.'" ACLU. org, December 20, 2005.

Adams, Jeanne. "I Am Many: Profiling the Ritual Abuse Survivor."MKZine, Winter 2004.

Albergotti, Reed. "Furor Erupts Over Facebook Experiment on Users." The Wall Street Journal, June 29, 2014.

Albrecht, Katherine, and Liz McIntyre. SpyChips: How Major Coprorations and Government Plan to Track Your Every Purchase and Watch Your Every Move (New York: Plume, 2004).

American Psychiatric Association. "The Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders."

Ansary, Alex. "Mass Mind Control Through Network Television." Outside the Box, May, 29, 2012.

Arendt, Hannah. Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil (New York: Penguin Classics, 2006).

Bailey, GmB. Closing the Gap: Gangstalking (CreateSpace Independent Publishing, 2010).

Barker, Dr. Allen. "Motives for Mind Control." MKZine, Spring/Summer2003.

Barrett, Dierdre. "The Psychological Power of Hypnosis." Psychology Today, January 2001.

Bell, Catherine. Ritual: Perspectives and Dimensions (New York: Oxford University Press, 1997).

———. Ritual Theory, Ritual Practice (New York: Oxford University Press, 2009).

Bergstein, Brian. "Despite Promise, Energy Bean Weapons Still Missing From Action." MSNBC.com, July 9, 2005.

Birns, H.D. Hypnosis (Award Books, 1968).

"Bizarre Cults." Huffington Post, September 6, 2013.

Braiker, Harriet B. Who's Pulling Your Strings? How to Break the Cycle of Manipulation (New York: McGraw Hill, 2004).

Brick, Neil. "How Cues and Programming Work in Mind Control and Propaganda." The Ritual Abuse, Secretive Organization and Mind Control Conference, Connecticut, May 24, 2003.

———. "Survivor Tactics." MKZine, Summer 2005.

———. "Ritual Abuse and its Political Implications." MKZine, Summer 2005.

Brzezinski, Zbignew. Between Two Ages: America's Role in the Technotronic Era (Praeger Publishing, 1982).

Chase, Alton. "Harvard and the Making of the Unabomber." Atlantic Monthly, June 2000.

Childs, Joe. "Sara's Choice: Scientology Clergy Force a Mother to Choose: Son or Daughter." Tampa Bay Times, March 2014.

Chopra, Deepak. "5 Steps to Harness the Power of Intention." MindBodyGreen.com, May 20, 2013. www.mindbodygreen. com/0-9603/5-steps-to-harness-the-power-of-intention.html.

Collins, Anne. In the Sleep Room: The Story of CIA Brainwashing Experiments in Canada, Reprint edition (Toronto, Canada: Key Porter Books, 1998).

Collins, Laura. "I Was a Queen of Scientology: President's Ex Wife Reveals the Church's Innermost Secrets and Why She Was Cast Into

Darkness When She Finally Fled After 35 Years." UK Daily Mail Online, September 10–15, 2014.

Constantine, Alex. Virtual Government: CIA Mind Control Operations in America (Port Townsend, Wash.: Feral House, 1997).

Crump, Catherine, and Matthew Hardwood. "Big Brother Is Coming: Google, Mass Surveillance and the Rise of the Internet of Things." Salon.com, March 26, 2014.

Dober, Greg. "Experimentation on Prisoners: Persistent Dilemmas in Rights and Regulations." Prison Legal News, March 15, 2008.

Duncan, Robert. Operation Soulcatcher: Secrets of Cyber and Cybernetic Warfare Revealed (CreateSpace Independent Publishing, 2010).

Emery, Carla. Secret, Don't Tell: The Encyclopedia of Hypnotism (Pigeon Forge, Tenn.: Acorn Hill Publishing, 1997).

"Experimental Evidence of Massive Scale Emotional Contagion Through Social Networks," Proceedings of the National Academy of Sciences, Volume 111, Number 24.

Fields, R. Douglas. "The Power of Music: Mind Control by Rhythmic Sound." Scientific American.com, October 19, 2012.

Flemming, John. "The Menace of Satellite Surveillance." EducateYourself. org, June 19, 2003.

Freeland, Elana. "This Covert Electronic Era: Directed Energy Weapons for Political Control." Carnicorn Institute Webinar transcript, March 31, 2011.

_______. Chemtrails, HAARP, and the Full Spectrum Dominance of Planet Earth (Port Townsend, Wash.: Feral House, 2014).

Freeman, Jeremy, and Gary Marcus. The Future of the Brain: Essays by the World's Leading Neuroscientists (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2014).

Fulghum, David A. "Microwave Weapons May Be Ready for Iraq." MKZine, Spring/Summer 2003.

Gallagher, Ryan. "The Surveillance Engine: How the NSA Built its Own Secret Google." FirstLook.org, The Intercept, August 25, 2104.

Goodwin, Karin. "Brainwash Victims Win Cash Claims. The Sunday Times, October 17, 2004.

Hambling, David. "A Game of Tag: Implants and Electronic Harassment." Fortean Times, May 2011.

Hammond, Dr. Corydon. "Cults, Ritual Abuse and Mind Control: Exploring the Role of Cults in Ritual Abuse and Mind Control." Wanttoknow.info.

Hearst, Patricia Campbell, and Alvin Moscow. Every Secret Thing (New York: Doubleday, 1981).

Herrington, Boze. "The Seven Signs You're in a Cult." The Atlantic Online, June 18, 2014.

"High-Tech Psychological Warfare Arrives in the Middle East." ITV News Bureau Ltd. (London) news brief, March 23, 1991.

Hoffman, Michael A. Secret Societies and Psychological Warfare (Dresden, N.Y.: Wiswell Ruffin House, 1992).

Honor, Lenon. Website. www.lenonhonor.com.

Hunter, Edward. Brainwashing (New York: Pyramid Books, 1956). "Hypnosis." New definition. Society of Psychological Hypnosis, Division 30, American Psychological Association.

Jacobsen, Annie. Operation Paperclip: The Secret Intelligence Program That Brought Nazi Scientists to America (New York: Little, Brown and Company, 2014).

Jacobson, Steven. Mind Control in America. CD audio program, MCiA Media, 2004–2014.

Janis, Irving. Victims of Groupthink (New York: Houghton Mifflin, 1972).

Johnson-Davis, Anne. Hell Minus One: My Story of Deliverance From Satanic Ritual Abuse and My Journey to Freedom (Transcript Bulletin Publishing, 2008).

Jones, Marie D., and Larry Flaxman. The Grid: Exploring the Hidden Infrastructure of Reality (San Antonio, Tex.: Hierophant Publishing, 2013).

Justesen, Dr. Don R. " Microwaves and Behavior." American Psychologist 392 (March 1975): 391–401.

Karriker, W. "Torture-Based Mind Control as a Global Phenomenon," 13th International Conference on Violence, Abuse and Trauma, San Diego, California, September 2008.

Kurzweil, Ray. The Singularity Is Near: When Humans Transcend Biology (New York: Penguin Books, 2006).

Lammer, Dr. Helmut. Milabs: Military Mind Control and Alien Abductions (Illuminet Press, 1999).

Larry King Live. Guest Patty Hearst. CNN, January 22, 2002.

Leedom, Liane, MD. "Coercive Persuasion, Mind Control and Brainwashing." Lovefraud.com, August 31, 2007.

Leiser, Ken. "ACLU Study Warns of Unchecked Rise of Surveillance Cameras in St. Louis." St. Louis Dispatch, October 14, 2014.

Lifton, Robert J. Thought Reform and the Psychology of Totalism (University of North Carolina Press, July 1989).

MacMatzen, Morris. "Brain Hacking is Having Incredible Effects, and It's Just Getting Started." Yahoo.com Business Insider, August 16, 2014.

Madsen, Wayne. "James Holmes Family Tied to DARPA and Mind Manipulation Work." Blacklisted News, July 27, 2012.

Marks, John. The Search for the "Manchurian Candidate": The CIA and Mind Control (New York: Times Books, 1991).

McGowan, David. Programmed to Kill: The Politics of Serial Murder (iUniverse, 2004).

Monks, Kieron. "Spy Satellites Fight Crime From Space." CNNTech, August 12, 2014.

"Mystery Cults in the Greek and Roman World," Metropolitan Museum of Art Website. www.metmuseum.org/toah/hd/myst/hd_myst. htm.

Naylor, Gloria. 1996 (Chicago, Ill.: Third World Press, 2006).

Neighbors, Jacob. "Obey Your Father: Jim Jones' Rhetoric of Deadly Persuasion." San Diego State University, "Alternative Considerations of Jonestown and Peoples Temple," March 20, 2014.

Osmundsen, John A. "Matador With a Radio Stops Wired Bull." New York Times, July 9, 2014.

Pegues, Jeff. "NYPD: Threat of Terrorists With Drones Is a Growing Concern." New York CBSLocal.com, October 29, 2014. Pehanick, Maggie. "Revolutionary Suicide: A Rhetorical Examination of Jim Jones' 'Death Tape.'" San Diego State University "Alternative Considerations of Jonestown and Peoples Temple."

Persinger, M.A. "On the Possibility of Directly Accessing Every Human Brain by Electromagnetic Induction of Fundamental Algorithms." Perceptual and Motor Skills 80 (1995): 791.

Rath, Tom, and Donald O. Clifton, PhD. How Full Is Your Bucket? (New York: Gallup Press, 2004).

"The Reckoning: The Father of Sandy Hook Killer Searches for Answers." The New Yorker, March 17, 2014.

Redfern, Nick. Close Encounters of the Fatal Kind (Pompton Plains, N.J.: New Page Books, 2014).

Ross, Colin A. The CIA Doctors: Human Rights Violations by American Pyschiatrists (Richardson, Tex.: Manitou Communications, 2006).

Rutz, Carol. A Nation Betrayed: The Chilling True Story of Secret Cold War Experiments on Our Children and Other Innocent People (Grass Lake, Mich.: Fidelity Publishing, 2001).

———. "The Relevancy of Mind Control Today." MKZine, Winter/2003/2004.

Sample, Ian. "Neuroscience Could Mean Soldiers Controlling Weapons With Minds." The Guardian (UK), February 7, 2012.

Sasson, Remez. "The Power of Positive Thinking." Successconciousness.com, September 2014.

"Senate MKUltra Hearing: Appendix C—Documents Referring to Subprojects," page 167 (in PDF document page numbering). Senate Select Committee on Intelligence and Committee on Human Resources, August 3, 1977.

Shachtman, Noah. "Big Brother Gets a Brain." Village Voice, July 8, 2003.

Simon, George K. In Sheep's Clothing: Understanding and Dealing With Manipulative People (Chicago, Ill.: Parkhurst Brothers, 1996).

Singer, Dr. Margaret. "Coercive Mind Control Tactics." F.A.C.T.Net.org.

Streatfeild, Dominic. Brainwash: The Secret History of Mind Control (New York: Picador, 2008).

"Stunning Tale of Brainwashing, the CIA and an Unsuspecting Scots Researcher." The Scotsman, 2007.

Sullivan, Kathleen. Unshackled: A Survivor's Story of Mind Control (Dandelion Books, LLC, 2003).

Sweeney, H. Michael. RFID, the TIAO, and the Mark of the Beast, Third edition (The Professional Paranoid [www.paranoidpress.com], 2005).

Sweeney, H. Michael. "Your Cell Phone Is a Government Agent Spying on You." Blog post. ProParanoid, July 20, 2012.

Taylor, Eldon. Mind Programming: From Persuasion and Brainwashing, to Self-Help and Practical Metaphysics (Carlsbad, Calif.: Hay House, 2010).

Taylor, Kathleen. Brainwashing: The Science of Thought Control (New York: Oxford Press, 2006).

Thompson, Clive. "How to Keep the NSA Out of Your Computer." Mother Jones Magazine, August 2013.

Thomson, Helen. "Consciousness On-Off Switch Discovered Deep in Brain." New Scientist, July 2, 2014.

Thorn, Victor. Conspireality (Stafford, Va.: Life and Liberty Publishing, 2013).

Timberg, Craig. "New Surveillance Technology Can Track Everyone in an Area for Several Hours at a Time." Washington Post, February 5, 2014.

Vincent, James. "Mass Surveillance of UK Citizens on Facebook, YouTube and Google is Legal, Says Official." The Independent (UK), June 17, 2014.

Wall, Judy. "Mind Control With Silent Sounds and Super Computers." Nexus Magazine, October/November 1998.

Waugh, Evelyn. The Ordeal of Gilbert Pinfold (New York: Back Bay Books, a division of Hachette, 2012).

Weinberger, Sharon. "Mind Games." Washington Post, January 14, 2007.

West, Nicholas. "7 Future Methods of Mind Control." Activist Post, July 1,2013.

———. "Mind Control Scientists Claim Ability to Turn Off Consciousness."The Sleuth Journal, July 11, 2014.

Zimbardo, Dr. Philip G. "Mind Control: Psychological Reality or Mindless-Rhetoric?" APA.org, November 2002.

المؤلِّفان

ماري د. جونز

ماري د. جونز هي مؤلِّفة الكتب الآتية التي تعد أكثر الكتب مبيعًا في العالم: المصير مقابل الاختيار: الدليل العلمي والروحي خلف المصير والإرادة الحرة، و2013م: نهاية الأيام أو بداية جديدة، تصور العالم بعد أحداث 2012م. و(PSIence): كيف تفسّر الاكتشافات الجديدة في الفيزياء الكمية والعلوم الجديدة الظواهر الخارقة؟. والبحث عن الرب في الأماكن الخطأ كلها.

ألَّفت ماري أيضًا بالاشتراك مع والدها د.جونز سافينو عالم الجيوفيزياء كتاب البركان الخارق: الحدث المفجع الذي غيَّر مسار التاريخ البشري. وشاركت لاري فلاكسمان -شريكها في موقع (ParaExplorers.com: وهي منظمة تُعنى باستكشاف الأسرار المجهولة- في تأليف الكتب الآتية: 11: 11. ظاهرة تسارع الوقت: المعنى وراء العلامات الغامضة، والمتواليات والمتزامنات، ومفتاح الرنين: اكتشاف العلاقة بين الاهتزازات والوعي ونقطة الصفر في الشبكة. وأحاجي زمان: رحلة في مفارقات العقل الذاكرة والوقت. و«سرُّ الثالوث: قوة الثلاثة وقانون الخلق. وقبل هذا، كان

أحدث كتاب لهما: هذا الكتاب من المستقبل: رحلة في الجسد، والنسبية، والزمن الافتراضي، وغيرها من المغامرات في رحلة الزمن. وقد نشرا معًا سلسلة كتب إلكترونية (ParaExplorer Series of eBooks)، ومقالات أُخرى في مختلف الموضوعات.

تحيط ماري بالعلوم التي تبحث فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا)، والعلوم التي تُعنى بدراسة طبيعة تركيب العقل وطريقة عمله، والعلوم التي تبحث في الظواهر الخارقة، وقد عملت باحثًا ميدانيًا في شبكة الأجسام الطائرة المجهولة المشتركة، في لوس أنجلوس وسان دييغو، في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته، وتعمل الآن مستشارًا ومديرًا لمشروعات متميزة ضمن فريق أركنساس لدراسات الظواهر الشاذة المخالفة للطبيعة، وتعمل مع رئيس الفريق لاري فلاكسمان في تطوير نظريات يمكن التحقق منها ميدانيًا. عملت ماري أيضًا ممثّلًا مفوّضًا لمؤسسة الأفكار، وما وراء الطبيعة الجديدة، ونظّمت دورات تدريبية مكثّفة في هذا المجال.

ومؤخّرًا، ظهرت ماري في التلفاز ضيفًا في قنوات التاريخ ضمن سلسلتي (Nostradamus Effect) و(الغرباء القدماء)، وعملت أيضًا مستشارًا خاصًّا لمؤسسة الأجسام الطائرة المجهولة، في الإصدار الرابع لصور الخيال العلمي لعام 2009م، وحلّت ضيفًا في مئات المقابلات الإذاعية العالمية على الإذاعات الآتية: من الساحل للساحل، وراديو الوطن الجماهيري، وراديو (KPBS)، و(أرض الأحلام)، و(X-Zone)، وبرنامج كيفن سميث، و(Paranormal Podcast)، و(Cut to the Chase)، و(Feet 2 the Fire)، وعالم مجهول، وبرنامج شيرلي ماكلين، فضلًا عن ظهور صورها في عشرات الصحف

والمجلات والمنشورات الإلكترونية في مختلف أنحاء العالم. وهي أحد أعضاء هيئة الكُتَّاب في مجلة البواسل، وأحد المدوِّنين المعتمدين، ومشاركة منتظمة في مجلة الفجر الجديد، وقد ظهرت مقالاتها وموضوعاتها في مجلة (ParaMagazine)، والظواهر الشاذة، وأوقات العمر كله، ورابطة الضوء، والرؤية، وجريدة المؤامرات، وما وراء الحقيقة، إضافة إلى طائفة واسعة من المقتطفات الأدبية، مثل: «إذا حكمت النساء العالم فانسَ الأمر»، و«دع المعجزات تحدث»، وثلاثة كتب عنوانها: الشوكولاتة الساخنة لغذاء الروح، وخمسة كتب عنوانها شوربة الدجاج لغذاء الروح. شاركت ماري أيضًا في تأليف أكثر من خمسين كتابًا مُلهِمًا لمؤسسة الفصول الجديدة، وأثرتها بمعلوماتها.

قدَّمت ماري محاضرات عدَّة في كثير من الموضوعات المهمة، مثل: الميتافيزيقيا، والظواهر الشاذة، والعلوم الجديدة؛ وموضوعات تطوير الذات التي شملت: ما وراء النقاب، والملكة ماري في عطلات نهاية الأسبوع، وتدريبات أكاديمية، وندوات مهمة، وتفسير الوعي، وأحداث إذاعية مظلمة. وهي أيضًا متحدثة مشهورة وسط الجماهير، ولا سيما في العلوم الدقيقة، والظواهر الخارقة، والميتافيزيقيا، والفكر، والقدرات البشرية. تقدِّم ماري محاضرات في مراكز الميتافيزيقيا المحلية، والكنائس، والمكتبات العامة المحلية، ومناسبات توقيع الإصدارات الجديدة، ومهرجانات الأفلام، واجتماعات الكُتَّاب الإقليمية التي تتناول مشكلات الكُتَّاب، والظواهر الشاذة، والوعي البشري، والعلوم، والموضوعات التي تتناول علوم ما وراء الطبيعة.

وهـي أيضًـا كاتبـة أحـداث (سـيناريو) فيلـم «19 هيرتز»، ومشـاركة في إنتاجـه، وفيلـم «الخارق المثـير»، وفيلـم «أورورا: إلهة الفجـر في الميثولوجيا الرومانيـة»، وهـو فيلـم يتنـاول قصص الخيـال العلمـي. عملت مـاري أيضًـا مضيفًا مساعدًا في برنامج إذاعة «أرض الأحلام» الشهير.

أصـدرت مـاري أُولـى رواياتهـا «منظمـة اصطيـاد الطفل الشـرير» التي كتبتهـا مـع ابنهـا ماكـس، وفيلم الخـوارق المثـير للكبـار «المنحـرف»، وفيلم الخيـال العلمـي المثـير أيضًـا «المؤامرة». ورواية ماريا السـمراء التي نُشِـرت عام 2015م. ولها رواية مع لاري فلاكسمان عنوانها السـائرون على الشبكة، ستُنشَر في العام (2016م).

لاري فلاكسمان

لاري فلاكسـمان هـو مؤلِّـف الكتب الآتيـة التي تعد أكثر الكتـب مبيعًا في العـالم: 11: 11، ظاهـرة تسـارع الوقـت: المعنـى وراء العلامـات الغامضـة، والمتواليـات والمتزامنات. ومفتاح الرنين: اكتشـاف العلاقـة بين الاهتزازات والوعي ونقطة الصفر في الشبكة، و«أحاجي زمان: رحلة في مفارقات العقل والذاكرة والوقت». وسِرُّ الثالوث: قوة الثلاثة وقانون الخلق. وهي كتب شاركت مـاري د. جونز - شـريكته في موقـع (ParaExplorers.com)- في تأليفها. وقد نشـرا قبل ذلك أحدث كتبهما: هذا الكتاب من المسـتقبل: رحلة في الجسـد، والنسبية، والزمن الافتراضي، وغيرها من المغامرات في رحلة الزمن.

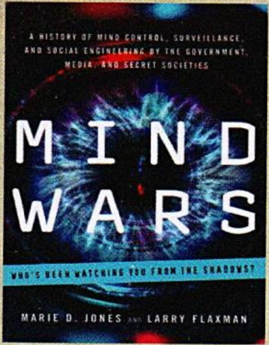
كان لاري باحثًـا نشـيطًا في مجـال الظواهـر الخارقـة، وصاحـب تجربة عمليـة ثـرَّة في البحث لأكثر من ثلاثة عشـر عامًا، وصهـر خبراته وتجاربه

التقنيـة والعلميـة والبحثية كلها لفهـم الظواهر الطبيعية الخفية. ولا سـيما تلك الشـاذة التي ليس لها تفسـيرات واضحة. أسَّس لاري فريق أركنساس لدراسـات الظواهـر الشـاذة المخالفـة للطبيعـة في شـهر فبرايـر مـن عـام 2007م، وتولى رئاسته وأصبح كبير الباحثين فيه. ويعد هذا الفريق من أكبر المنظمـات الوطنيـة التـي تُعنى بالبحـث في الظواهر الطبيعية وأنشـطها؛ إذ يضم اليوم أكثر من مئة وخمسـين عضوًا من مختلف أنحاء العالم. ويحظى لاري باحـترام واسـع لخبرته في اسـتخدام الأجهزة، واسـتخدام التقنية في إنجـاز بحـوث رصينة، وهـو يعمل - إلى جانب هذا- مستشـارًا تقنيًّا للعديد من المجموعات التي تُعنى بالبحث في الظواهر الطبيعية الشاذة في البلاد.

ظهـر لاري كثيرًا في قنـوات فضائيـة عـدَّة، أهمهـا: قنـوات ديسـكفري الفضائيـة، ومختبر الشـبح. والقنـوات الفضائيـة التي تعُنـى بالتاريخ. مثل قنـاة الغربـاء القدمـاء، وقـد أُجريت معه مقابـلات في عشـرات المطبوعات الورقية من: صحف، ومجلات، ومنشـورات إلكترونية. بما فيها أنومالسـت، وتايمـز هيرالـد نيـوز. وجاكوسـونفيل باتريـوت، وشـبكة بـارا الإلكترونيـة، وكرنت أفيرس هيرالد، ومجلة أنكسبليند، ومصباح مقاطعة جين الصغير، وموقـع القروي، وموقع بن بلف التجـاري. ظهر لاري أيضًـا في مئات البرامج الإذاعيـة العالميـة، واسـتضافته الكثير من الإذاعات. مثل: من السـاحل إلى السـاحل مع جورج نوري. والأسـرة. والمواجهات، والأبعاد العليا، و(X–Zone)، وحديث الأشـباح. واري. والظواهر الشـاذة عند مفـترق الطرق. وازدواجية أمريكا، والعالم الغامض. والأصوات الملتاعة.

يعـد لاري أحـد أعضـاء هيئـة الكُتَّاب الرئيسـين والمدوّنـين المعتمدين في مجلـة البواسـل. وقـد ظهـرت أعمالـه بانتظـام في مجلـة (ParaMagazine)، ومجلـة الفجـر الجديـد. ومجلـة الظواهـر الشـاذة، وهـو أيضًا كاتـب قصة فيلـم الرعـب «19 هيرتز»، ومتحـدث معروف قدَّم محاضـرات عدَّة في كثير مـن الموضوعات المهمة، مثل: الظواهر الشـاذة، ومـا وراء الطبيعة، وما وراء النقاب. والتاريخ. والأشباح والأساطير، والتخاطر في عطلات نهاية الأسبوع في فنـدق الهـلال. وعرض أشـباح تكسـاس، والتنـين. تحـدَّث لاري أيضًا في مناسـبات عـدَّة شـملت مهرجانـات توقيـع الإصـدارات الجديـدة، وافتتـاح المكتبـات، والأحـداث التي تتعلق بالعلوم، والظواهر الشـاذة. والميتافيزيقيا، والفكر، والقدرات البشـرية. وله نشـاط مشهود في تطوير كل ما يساعد على البحث في الآثار البيئية والظواهر الشاذة، مما قد يُعيننا على فهمها.

وإلى جانب هذا كله، ينوي لاري إصدار روايته الأُولى في العام (2016 م) التـي تحمـل عنـوان السـائرون على الشـبكة، والتـي ترتكز في أحـد جوانبها علـى النظريـة العلميـة وبحثـه في كتابـه الـذي ألَّفـه بالاشـتراك مـع مـاري د.جونز الشبكة.



منذ بدء الخليقة ظلت الرغبة في السيطرة على أفكار الآخرين، وسلوكهم وأفعالهم، واسعة الانتشار، انطلاقًا من الإقناع القهري الذي مارسه قدماء المصريين وفرسان الهيكل، إلى ما نشاهده اليوم من غارات إلكترونية وقذائف موجهة بالموجات الكهرومغناطيسية، ما جعلنا نعيش دومًا تحت رحمة أولئك الراغبين في إعادة برمجة أفكارنا، وتشكيل معتقداتنا وفق مشيئتهم.

يحتوي هذا الكتاب على حكايات مدهشة، تشمل:

- المحاولات القديمة للسيطرة على العقل باستخدام السحر، والعقاقير الطبية، والطقوس والشعائر.
- المعتقدات الدينية وتوظيف إعادة برمجة العقل.
- التقنيات الحديثة للسيطرة على العقل، من التنويم المغناطيسي، والمخدرات، والصدمات الكهربائية، إلى الإشعاع والطب النفسي.
- التحقيق في مرشح منشوريا وعلاقة وكالة المخابرات الأمريكية المركزية بمشروع حرب النجوم.
- عالم الهجمات الإلكترونية الجديد الشجاع، تقنية السيطرة على العقل من خلال الصوت والمراقبة الشاملة.

صحيح أن الحدود الداخلية لعقل الإنسان تعد آخر معاقل خصوصيته الحصينة، لكن: هل نحن فعلًا نسيطر على عقولنا؟ ربما تكون الإجابة صادمة حقًا.

ماري د. جونز، مؤلفة كتب عدة عن الظواهر الخارقة، ما وراء الطبيعة وطليعة الكتب العلمية (كثير منها بالاشتراك مع لاري فلاكسمان)، وظهرت بجانب هذا في أكثر من ألف برنامج إذاعي وتلفازي عبر العالم، كان آخرها ظهورها على القناة التاريخية في سلسلة المخلوقات الفضائية.

موقعها على الإنترنت: www.mariedjones.com

لاري فلاكسمان، رئيس فريق أركنساس لدراسات الظواهر الشاذة المخالفة للطبيعة وكبير الباحثين فيه، وهو متحدث بارع معروف على نطاق واسع؛

شارك في تأليف كتب عديدة، وكزميلته ماري د. جونز، ظهر لاري فلاكسمان في مئات البرامج الإذاعية والتلفازية، أهمها برنامج (مختبر الشبح) على قناة (ديسكفري).

موقعه على الإنترنت: www.larryflaxman.com

موضوع الكتاب: العقل (فلسفة)

ISBN :978-603-503-882-9
9 786035 038829

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing
تلهم المعرفة
Inspiring Knowledge